جامعـــة القاهـــرة

كليـــة الآداب

يصدرها
قسم التاريخ

المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

العدد الحادى عشر
يوليـــو ١٩٩٣

قـــواعد النشـــر

* ترحب المؤرخ المصرى بنشر الأبحاث والدراسات الأصـلية ذات المســتوى الأكاديمى الجاد بعد التحكيم ، فضـــلا عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة .

* تقبـل المؤرخ المصرى للنشر الأبحاث التاريخية والحضـارية المكتوبة باللغتين العربية والانجليزية على ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن ٣٠ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة على ورق حجم كوارتر بما فى ذلك الهـوامش والجـداول وقائمة المراجـع .

* المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر فى مكان آخر ، وتقوم رئاسة التحرير باخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم .

* تحتفظ المؤرخ المصرى لنفسها بحق قبول أو رفض الأبحاث أيا كان قرار هيئة التحكيم .

* النشر فى المؤرخ المصرى متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربيـة والأجنبيـة وسـائر المهتمين بالدراسات التاريخيـة .

* الآراء الواردة بالمؤرخ المصرى تعبر عن وجهة نظر أصحابها .

المؤرخ المصرى

العـدد الحادى عشر — يوليـو ١٩٩٣

المراسلات :

ترسل البحـوث والمقالات باسـم السيد الأستاذ الدكتـور / **سـيد احمـد الناصرى** رئيس التحرير على العنوان التالى :

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة (قسم التاريخ)

بريـد الأورمان ـ جـيزة

بسم الله الرحمن الرحيم

يطيب لنا أن نقدم هذا العدد الجديد من المؤرخ المصرى مع اطلالة العام الدراسى ٩٣ — ١٩٩٤ راجين أن يحوز هذا العدد الحافل رضى القارىء الكريم وأن يجد فيه إضافة ثمرة إلى المكتبة التاريخيـــة •

يحفل هذا العدد بمجموعة من البحوث والدراسات التاريخية التى أجيزت من محكمين لهم باعهم الطويل فى الدراسات التاريخية مما يزيد من شأن المؤرخ المصرى وقيمتها العلمية لـــدى جمهـــور المتخصصين ويجعل منها قبلة للباحثين الذين يحرصون على أن تطل بحوثهم من نافذة المؤرخ المصرى ثقة منهم فى أن المؤرخ المصرى تتيح للمهتمين بدراسة التاريخ مساحة حرة •

ومن هذا المنطلق ، تحرص المؤرخ المصرى وأسرة تحريرها على أن تكون فى المستوى اللائق المرتقب دائما • ونقدم فى هـــذا العدد نخبة من البحوث والدراسات لنخبة من الباحثين من عدة أقطار عربية ، وإذا كانت البحوث الغالبة على هذا العدد تنتمى إلى دراسات المغرب والأندلس الاسلامى فانه لا يخلو من دراسات تاريخية لمناطق وأزمنة أخرى وهذا فى زعمنا يزيد من ثراء العدد وقيمته •

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير ، ، ،

هيئـــة التحـــرير

البحـوث والدراسـات

خطـــة الشـــرطة بالأندلس فى عهد الخليفـــة
الحـــكم المســتنصر
٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ / ٩٦١ ـ ٩٧٩ م

الدكتـــور

محمـــود عرفة محمـــود

كلية التربية الأساسية ـ الكويت

لمـــا كانت الشرطة[1] تعد ركنـــا أساســـيا من أركان الدولة الاسلامية ، وضرورة حتمية لاستقرارها والمحافظة على كيـــانها

---

(١) الشرطة بالتحريك ، العلامة والجمع اشراط ، وقد وردت فى القرآن الكريم بصيغة الجمع . قال تعالى : (فهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء اشراطها) سورة محمد ١٨ ، والاشراط هى علامات الساعة ، كما وردت فى الأحاديث النبوية الشريفة بالمعنى نفسه ، وقد ذكر أسد بن مالك أن قيس بن سعد كان بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم بمنزلة صاحب الشرطة من الامير ، وجاء فى تاج العروس الشرطة طائفة من أعوان الوالى سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها ، ويرى الزمخشرى أن الشرطة من أوائل الأشياء فقال : « ان من الاشراط التى هى أوائل الأشياء صاحب الشرطة » . انظر :

ابن منظور ، جمال الدين بن مكرم (ت ٧١١ هـ) ، لسان العرب ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر (بدون تاريخ) ، جـ ١ ، ص ٣٠٣ .

ابن حجر ، أحمد بن على (ت ٨٥٣ هـ) فتح البارى بشرح صحيح البخارى المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة ١٣٨٠ هـ ، باب الأحكام ، جـ ١٣ ، ص ١٣٣ .

الزمخشرى ، جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ) اســـاس البلاغة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٣ م ، جـ ١ ، ص ٤٨٦ .

الزبيدى ، محب الدين محمد مرتضى (ت ١٣٥٠ هـ) ، تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية بمصر ، الطبعة الاولى ، سنة ١٣٠٦ هـ ، جـ ٥ ، ص ١٦٧ .

وسيادتها ، لذا صار لــزاما على المهتمين بالبحث فى التنظيمات الاسلامية بذل الجهد والمشقة من أجل كشف النقاب عنها وتجليــة صورتها المشرقة وابراز مدى تقدم العرب فى تنظيم خطة الشرطة الاسلامية[٢] .

على الرغم من أن الشرطة كانت من احدى الخطط الهامة التى ينظر أصحابها فى الأحكام[٣] ، إلا أن خطة الشرطة لم تحظ بنصيب وافر من البحث والدراسة خلال العصور التاريخية المختلفة التى مرت بها دولة الاسلام فى الاندلس .

---

(٢) على الرغم من اهمية البحث فى نظام الشرطة الاسلامية ، الا أن قلة المعلومات الواردة عن هذا الموضوع فى كتب التراث ، أدت الى احجام الباحثين عن الخوض فى مثل هذه الدراسة ، وقد عبر الدكتور حسين مؤنس عن ذلك بقوله : « لم يدرس نظام الشرطة الاسلامية الى الآن الدراسة الواجبة ، المادة التى كتبها تسير ستين — فى دائرة المعارف لا قيمة لها ، وكذلك ما قاله ابن خلدون عنها قليل لا يغنى » انظر هذا التعليق فى كتاب التمدن الاسلامى لجورجى زيدان ، مطبعة دار الهــلال بمصر ١٩٠٤ م ، جـ ١ ص ٢٥٣ ، ولعل ذلك هو ما دفع الاستاذ محمد الشريف الرحمونى للتصدى لموضوع نظام الشرطة فى الاسلام الى أواخر القرن الرابع الهجرى ، الدار العربية للكتاب ١٩٨٣ م ، وهى دراســة عميقة جادة بذل فيها الكاتب جهدا كبيرا يشكر عليه ، وقد تناول فيهــا تطور نظام الشرطة عند العرب قبل الاسلام وحتى نهاية القرن الرابــع الهجرى بالمشرق الاسلامى ، وقد أشار الاستاذ الرحمونى الى وجوب التصدى لدراسة الشرطة فى الاندلس قائلا : « ان موضوع الشرطة فى الاندلس ثرى ومتسع ، وأن بحثه بعمق هو جدير ببحث مستقل يأتى على جميع جوانبه » ، ص ٨٧ .

(٣) جاء فى المرقبة العليا أن الخطط التى كان ينظر اصحابها فى الأحكام بالاندلس هى ، أولها القضاء وأجله قضاء قاضى الجماعة بقرطبة ، وثانيها الشرطة ، وثالثها المظالم ، ورابعها الرد ، وخامسها المدينة ، وسادسها السوق ، انظر :

النباهى ، أبو الحسن عبد الله بن الحسن (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) ، تاريخ قضاة الاندلس (المرقبة العليا) ، تحقيق ليــفى بروفنسال ، دار الكتاب المصرى ، الطبعة الاولى ، ١٩٤٨ م ، ص ٥ .

يتناول هذا البحث خطة الشرطة بالاندلس فى عهد الخليفة الحكم المستنصر — الذى ازدهرت خلاله التنظيمات الاسلامية ، وبلغت فيه خطة الشرطة درجة كبيرة من الرقى والتطور ، تبين مدى تقدم وازدهار الحضارة الاسلامية .

لما كانت الشرطة ترتبط ارتباطا وثيقا بقيام الدول(٤) نظرا لحاجة الحكام لحفظ الأمن فى ربوع البلاد وضبط الأمور فيها ، فظهرت نواة خطة الشرطة بالاندلس فى عهد عبد الرحمن الداخل (١٣٨ — ١٧٢ هـ) الذى استعان بالحصين بن عبد الله العقيلى من أهل الشام وعينه فى وظيفة صاحب الشرطة(٥) .

تطورت خطة الشرطة فى عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) ، وصارت تتألف من الشرطة الكبرى والشرطة الصغرى ، يقول ابن خلدون : « ثم عظمت نباهتها (الشرطة) فى دولة بنى أمية بالاندلس ونوعت الى شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وجعل حكم الكبرى على الخاصة وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية

---

(٤) اهتمت الحكومات منذ القدم بتنظم اجهزة للامن ، فأقام الفراعنة فرقا لحراسة الفرعون وحاشيته ، وحماية المقابر من السرقات ، كما عين تبع — ملك اليمن عدل بن جزء بن سعد العشيرة بن مالك جلادا جاهليا على شرطته للقصاص من أعدائه ومخالفيه ، كما كانت هناك اجهزة للأمن عند الفرس والروم ، انظر : ابن حزم ، على بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ) جمهرة انساب العرب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، دار المعارف بمصر (بدون تاريخ) ، ص ٣٨٣ .

Walter : les Institutions de Police chez les Arabes; les Parsains et les Turcs, le Journal Asiatique, No 16, 1860, pp. 114 — 119.

على حلمى ، الشرطة والامن بمصر ، العصر الفرعونى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ص ٩ .

(٥) ابن الابار : محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨ هـ) ، الحلة السيراء ، تحقيق د. حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣ ، جـ ٢ ، ص ٣٥٤ — ٣٥٥ .

والضرب على أيديهم فى الظلامات وعلى أيدى أقاربهم ومن اليهم من أهل الجاه ، وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامة »[٦] .

استحدث الخليفة الناصر وظيفة الشرطة الوسطى بعد أن اتسعت الهوة بين الشرطة الكبرى والشرطة الصغرى ، وصار من المتعذر أن ينظر أصحابها فى جرائم الطبقة الوسطى . يقول ابن عذارى : « وولى الخليفة الناصر الشرطة الوسطى سعيد بن سعيد بن حدير ولم تكن قبل هذه الخطة »[٧] .

بلغت خطة الشرطة بالاندلس أوج عزتها وتقدمها فى عهـد الخليفة الحكم المستنصر — الذى عنى بتطويرها ، وتقليدها أكابر رجالات الـدولة وعلمائها ، حتى غدت من أعظم الخطط الادارية استقرارا ونظاما .

تقليد صاحب الشرطة :

حرص الخلفاء على اختيار رجال الشرطة ممن عرف عنهم شدة البأس ، وقوة الشكيمة ، وعفة الخلق والصدق والامانة والاخلاص فى العمل عملا بقوله تبارك وتعالى : « ان خير من استأجرت القوى الأمين »[٨] ، وذلك ان اجتماع القوة والامانة فى الناس قليل[٩] .

كان يشترط فى صاحب الشرطة أن يكون من أوثق الرجـال وأظهرهم نصيحة ، وأنفذهم بصيرة ، وامضاهم عزيمة ، وأصدقهم

---

(٦) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) ، المقدمة تحقيق أ. حجر عاصى ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨٩ م ، ص ١٦٤ .

(٧) ابن عذارى المراكشى (ت ٦٩٥ هـ)، البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب ، مكتبة صادر ، بيروت ١٩٥٠ ، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٨) سورة القصص ، آية ٢٦ .

(٩) ابن تيمية ، تقى الدين (ت ٧٢٨ هـ) السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ، دار الكتاب العربى بمصر ١٩٥١ م ،ص ٤ـ٥ .

عفافا ، وأكفأهم أمانة ، وأصحهم خبرا ، وارضاهم فى العامة دينا ، وأحمدهم عند الجماعة خلقا ، وأعطفهم على كافتهم رأفة ، وأحسنهم لهم نظرا ، وأشدهم فى دين الله وحقه صلابة ، عالما بصيرا مجربا ، له نباهة فى الذكر وصيت فى الولاية ، معروف البيت ، مشـــهور الحسب »[١٠] .

كما كان يشترط فى صاحب الشرطة أن يكون حليما ، مهيبا ، دائم الصمت ، طويل الفكر ، بعيد الغور ، وأن يكون غليظا على أهل الريب ، شديد اليقظة ، عارفا بأحكام الله عز وجل وحدوده[١١] .

كان الخليفة يعين صاحب الشرطة بحاضرة الخلافة ، والولايات والثغور[١٢] ، ويحدد له المهام المنوطة به ، والمنهاج الذى ينبغى أن يسير عليه[١٣] ، ويخلع عليه الخلع الفاخرة ، فولى على بن محمد ابن أبى الحسين الشرطة الصغرى بالثغر الأدنى ، وعاصمته قورية ،

---

(١٠) القلقشندى ، أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ) صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، دار الكتب الخديوية ، مصر ١٩١٤ ، جـ ١ ، ص ٢١٥ .

(١١) السبكى ، تاج الدين (ت ٧٧١ هـ) معيد النعم ومبيد النقم ، المطبعة الادبية بسوق الخضار القديم بمصر (بدون تاريخ) ، ص ٥٤ .

(١٢) الثغور : كانت تتألف من الثغر الأعلى ، وعاصمته سرقسطة ، يتبعه مدن لاردة ، وتطيلة وطرطوشة ، وكان يواجه برشلونة وجبـــال البرنات ومملكة نافار ، والثغر الأوسط ، وعاصمته طليطلة ، ويواجه مملكتى قشتالة وليون ، والثغر الأدنى وعاصمته قورية ، ومدنه قلمرية وشنترين . انظر :

شكيب ارسلان ، الحلل السندسية فى الاخبار والآثار الاندلسية ، بيروت ، دار مكتبة الحياة (بدون تاريخ) ، جـ ١ ص ٢٠٦ ، جـ ٢ ، ص ٤ ، محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، عصر الخلافة والدولة العامرية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ١٩٦٩ م ، جـ ١ ص ٢٣٨ .

(١٣) انظر الملحق رقم ١ ، مرسوم تقليد صاحب الشرطة بالاندلس .

كما عين عليها أخاه حسن بن على ، وذلك فى شعبان سنة ٣٦١ هـ[١٤] .

ولما كان يشترط فيمن يلى الشرطة الوسطى أن يكون عارفا بأحكام الحسبة[١٥] (السوق) ، فقلد الخليفة المستنصر هذه الخطة أحمد بن نصر بن خالد ، وعهد اليه بالنظر فى تجاوزات الطبقة الوسطى من أعيان التجار وأصحاب المصانع ، وأرباب المهن ، فضلا عن الرقابة الصارمة على الأسواق والضرب على أيدى المخالفين[١٦] .

أما الشرطة العليا فكان يعين عليها القادة الثقاة وعظماء الخاصة من المقربين للخليفة ، فقلدها كبار القواد من مواليه ، فمن بينهم أحمد بن سعد الجعفرى — مولى الخليفة[١٧] .

كان من مراسم تقليد صاحب الشرطة العليا بالحاضرة والولاية أن يتخذ مكانه بالموضع المخصص على باب السدة[١٨] بقصر الخلافة

---

(١٤) ابن حيان ، أبو مروان حيان بن خلف القرطبى (ت ٤٦٩ هـ) المقتبس فى أخبار الاندلس ، تحقيق عبد الرحمن على الحجى ؛ دار الثقافة بيروت — لبنان ١٩٦٥ ، ص ٨١ .

(١٥) الحسبة : هى أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهى عن المنكر اذا أظهر فعله ، قال تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) آل عمران ١٤ ، وكان على المحتسب أو صاحب السوق كما كان يسمى بالأندلس أن يبحث عن المنكرات الظاهرة ليصل الى انكارها ويفحص عما ترك من المعروف الظاهر باقامته ، وله أن يتخذ أعوانا لأنه عمل هو له منصوب وأنه مندوب وله اجتهاد رأيه فيما تعلق بالعرف دون الشرع كالمقاعد فى الاسواق ، انظر :

الماوردى أبو الحسن على بن محمد (ت ٤٥٠ هـ) الاحكام السلطانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

(١٦) ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، ص ٧٠ ، ١٠١

(١٧) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

(١٨) باب السدة : هو الباب الرئيسى بقصر الخلافة بقرطبة ، وكان مخصصا للاستقبالات الرسمية واستعراض الجيوش ورغبة الخلفاء فى الظهور لعامة الشعب . انظر :

وهو ما يعرف بكرسى الشرطة[١٩] — الذى أشار اليه ابن خلدون بقوله : « ونصب لصاحب (الشرطة) الكبرى كرسى بباب دار السلطان ، ورجال يتبوؤون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها الا فى تصريفه »[٢٠] ، فجلس هشام بن محمد بن عثمان علىى كرسى الشرطة فوق فراش المدينة على باب السدة عند تقليده خطة الشرطة العليا بكورة بلنسية Valencia وطرطوشة Tortosa .

لما كان يعين على الشرطة العليا كبار العلماء والفقهاء ، فوليها أحمد بن عمر بن يوسف المعافرى — الذى كان يتمتع بمكانة علمية عالية ومستوى خلقى رفيع ، وكان قد رحل الى المشرق سنة ٣٤٢ هـ فى طلب العلم ، فلما عاد الى الأندلس اكتسب ثقة الخليفة المستنصر فولاه أحكام الشرطة واستأدبه لولى العهد المؤيد بالله[٢١] .

كان للارتباط الوثيق بين خطتى الشرطة والرد[٢٢] ، أن اسندتا لشخص واحد ، فتقلدها محمد بن تمليخ التميمى[٢٣] ، وبذلك أعطيت له صلاحيات نقض الأحكام القابلة للطعن — التى حكم فيها غيره بعد أخذ رأى الخليفة فى ذلك ، والحكم فيما أشكل على غيره من

=

ابن حيان : المقتبس من أنباء أهل الاندلس (نسخة أخـرى) ، تحقيق د. محمود على مكى بيروت ، دار الكتاب العربية ، ١٩٧٣ ، تعليق رقم ١٦٢ للمحقق ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

(١٩) ابن حيان : المقتبس فى اخبار بلد الاندلس ، ص ٤٦ .

(٢٠) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٦٤ .

(٢١) ابن الفرضى : أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣ هـ) تاريخ علماء الاندلس ، القاهرة ، الدار المصرية للتاليف والترجمة والنشر ١٩٦٦ م ، جا ، ص ٦٢ .

(٢٢) الرد : الرد لغة صرف الشىء ورجعه ، ومصدر وصف به ، وشىء رديد أى مردود ، ابن منظـور ، لسـان العـرب ، جـ ٤ ، ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٢٣) ابن الفرضى : المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٤ .

أصحاب الأحكام ، فضلا عن تفقد الرعية فى المدن والثغور والتعرف على أحوالهم ومشكلاتهم ، والتحقيق فيما يرفعه الأفراد والجماعات ضد بعض عمالهم لانصافهم منهم[٢٤] ، وعلى ذلك كان يعمل على حل المشاكل القضائية ، والحكم فيما استرابه أصحاب الأحكام وردوه إليه عن أنفسهم[٢٥] .

حظى أصحاب الشرطة بمكانة سامية لدى الخليفة الحكم المستنصر يتجلى ذلك فى الاحتفالات باستقبال السفراء والمواسم والأعياد ، فكانوا يتبوؤون مقاعدهم الشريفة اللائقة بهم ترتيبا على مستوياتهم ، فلما اتخذ الخليفة المستنصر مجلسه على سرير الحكم فى محراب المجلس الشرقى احتفاء باستقبال جعفر بن على ابن حمدون الاندلسى — أمير مدينة المحمدية بالمغرب وأخيه يحيى[٢٦] ، ومن معهما من بنى خزر[٢٧] (دعاة بنى أمية بالأندلس فى

---

(٢٤) ابن حيان : المقتبس فى اخبار بلد الاندلس ، ص ١٤— ١٥ .

(٢٥) النباهى : المرقبة العليا ، ص ١٤ .

(٢٦) جعفر ويحيى ابنا على بن حمدون المعروف بالأندلسى ، كان جدهما الأكبر عبد الحميد قدم الى الأندلس من الشام وسكن البيرة Elvira ، ثم انتقل حمدون — حفيد عبد الحميد الى بجاية Bougie بالجزائر ، وكان ابنه على هو الذى بنى مدينة المسيلة بالجزائر — وكانت تعرف بالمحمدية ، فلما توفى ، ولى ابنه جعفر حكمها وتبنى جعفر واخوه يحيى الدعوة لبنى امية بالاندلس ، ثم ذهبا الى الاندلس حيث اكرمهما الحكم المستنصر واستقبلهما أروع استقبال ، انظر :

ابن عذارى : البيان المغرب ٢ ، ص ٢٤٢ — ٢٤٣ ، ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبيد الله محمد (ت ٧٧٦ هـ) اعمال الأعلام من بويع قبل الاحتلال — من ملوك الاسلام ، تحقيق وتعليق ليفى بروفنسال ، دار المكشوف ، بيروت ١٩٥٦ م ، ص ٤٢ ، الزركلى : خير الدين سالم ، الاعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٩ م ، جـ ٢ ، ص ١١٩ .

(٢٧) بنو خزر : أبناء وأخوة محمد بن الخير بن خزر الزناتى ، من دعاة بنى امية بالأندلس فى الشمال الافريقى ، وكان محمد بن الخير قد حارب مع جعفر ويحيى ابنى على بن حمدون ضد زيرى الصنهاجى ، وصار اخوته وابناؤه من اتباع جعفر وقاموا بالدعوة لبنى أمية : انظر : ابن عذارى : المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ .

الشمال الافريقى) ، كان على رأس المستقبلين أحمد بن سعد الجعفرى — صاحب الشرطة العليا ، الذى اتجه ومن معه من الوفود والحرس من قصر الزهراء الى باب السدة من قصر قرطبة حيث توصل الى الخليفة عشية يوم الثلاثاء ٢٤ ذى القعدة سنة ٣٦٠ ﻫ ، واتخذ مكانه السامى المخصص لصاحب الشرطة العليا ، وتبعه أصحاب الشرطة الوسطى وطبقات أهل الخدمة(٢٨) .

ولما وافى عيد الفطر سنة ٣٦٢ ﻫ جلس الخليفة الحكم على السرير بقصر الزهراء فى المجلس الشرقى للتهنئة أفخم قعود ، وعن يمينه وشماله أهل بيته ، ثم الوزراء ، فقعدوا بعد التسليم بأثرهم ، وكان الحاجب عن ذات اليمين الوزير صاحب المدينة بقرطبة ، وتحته صاحب الشرطة العليا يحيى بن عبد الله بن يحيى بن ادريس ، وبعده صاحب الشرطة الوسطى والمواريث محمد بن عبد الله بن أبى عامر(٢٩) ، وعن ذات اليسار صاحب الخيل والحشم ، وتحته صاحب الشرطة العليا أحمد بن عيسى بن فطيس ، وبعده صاحب الشرطة الوسطى عبد الرحمن بن محمد بن هاشم التجيبى .. ثم

---

(٢٨) ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الاندلس ، ص ٤٢ — ٥٣ .

(٢٩) هو محمد بن عبد الله بن ابى عامر المعافرى ، الملقب بالمنصور ، من سكان الجزيرة الخضراء Algeciras قرب جبل طارق ، ثم قدم قرطبة ودرس بها ، وتقرب من الحكم المستنصر حتى ولاه عدة مناصب وغدا من رجالات الدولة العظام ، فلما توفى الخليفة فى ٢ صفر ٣٦٦ ﻫ / ٣٠ سبتمبر ٩٧٦ م ، استطاع الاستيلاء على السلطة الفعلية رغم وجود هشام المؤيد ، الذى كان يملك ولا يحكم — انظر :

ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ٢٦٨ — ٢٧٧ ، ابن سعيد ، أبو الحسن على بن موسى بن عبد الملك (ت ٦٨٥ ﻫ) المغرب فى حلى المغرب ، جزءان ، تحقيق وتعليق شوقى ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة فى قرطبة ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٨٢ ، ص ٣٢٤ .

طبقات أهل الخدمة على مراتبهم ، ثم توصل بأثرهم الحكام وقضاة الكور ، وأهل الشورى وطبقات العلماء(٣٠) .

كما اتخذ أصحاب الشرطة العليا والوسطى أماكنهم السامية أثر الوزراء على أكمل وجه من الزينة والخيلاء ، فى الحفل الذى أقامه الخليفة الحكم المستنصر فى ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ / سبتمبر سنة ٩٧٣ م ، لاستقبال وفد شانجه بن جرسيه Sancho Garces حاكم نبارة Navarra ، ووفد فرذلند بن الشور Fernando Ansurez حكم منتشون Monzon ، ورسل قومس حاكم Carrion ، ورسل لذريق بن بلشك Rodrigo Velazques — الذى بعث بها حكام الشمال المسيحى توكيدا للصداقة واظهارا للولاء(٣١) .

لما كانت خطة الشرطة يتقلدها الأكابر من رجالات الدولة ، حتى كانت ترشيحا للوزارة والحجابة(٣٢) ممن كانوا يتمتعون بالقوة والحزم والتفانى فى أداء مهامهم ، فارتقى بعضهم المناصب العليا فى الدولة ، فتقلد يحيى بن ادريس — صاحب الشرطة العليا بجيان

---

(٣٠) ابن حيان : المقتبس فى أخابر بلد الاندلس ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٣١) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ١٣٨ — ١٣٩ ، المقرى ، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمسانى (ت ١٠٤١ هـ) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ٤ اجزاء ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٤٩ م ، جـ ١ ، ص ٣٧٥ ،

Dozy (R) : Spanish Islam Translated with a biographical, Introductional Notes by. Francis Griffin stocks, London, 1913, p. 453.

(٣٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٦٤ .

Jien خطة السكة[٣٣] خلفا لمحمد بن عبد االه بن أبى عامر سنة ٣٦١ هـ[٣٤] .

كما استدعى أحمد بن محمد بن عباس — صاحب الشرطة العليا من مدينة لاردة Lerida وقلده الخليفة المستنصر ولاية سرقسطة وتطيلة Tudela فى ربيع الآخر سنة ٣٦١ هـ[٣٥] ، وبذلك أصبح صاحب الشرطة أعلى سلطة ، فيحق له تعيين القضاة وأصحاب الأحكام كأصحاب الشرطة والسوق وغيرهم لاعانته ، والنظر فى الأمور الادارية والمالية لأن صاحب المدينة كان أعلى مكانة من صاحب الشرطة وأوسع اختصاصا[٣٦] .

وفى شوال سنة ٣٦٢ هـ ، قلد الحكم المستنصر ثقته محمد بن عبد الله بى أبى عامر قضاء القضاء مجموعا الى ما يتقلده من خطتى الشرطة العليا والوسطى وقضاء كورة اشبيلية ، فارتفع بذلك قدره فى الدولة[٣٧] .

كما رقى جعفر بن عثمان المصحفى من خطة الشرطة العليا الى خطة مدينة قرطبة بدرجة وزير ، وولى محمد بن أفلح مدينة

---

(٣٣) خطة السكة : هى النظر فى النقود المتعامل بها بين الناس ، وحفظها مما بداخلها من الغش او النقص ان كان التعامل بها عددا ، او ما يتعلق بذلك من جميع الاعتبارات ثم وضع علامة السلطان على تلك النقود — والنظر فى ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة — وهى دينية بهذا الاعتبار فهى تندرج تحت الخلافة : انظر :

ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٥٠ — ١٥١ .

(٣٤) ابن حيان : المقتبس فى اخبار بلد الاندلس ، ص ٧٢ .

، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٣٧٤ .

(٣٥) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ٦٨ — ٦٩ .

(٣٦) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ٣٠ — ٦٦ — ٩٤ — ١٣٦ .

(٣٧) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ١٢٣ .

الزهراء بعد ترقيته أيضا ، وقد خلفه أخوه عليها بعد وفاته فى رجب سنة ٣٦٤ هـ[٣٨] .

لا شـــك أن قوة شخصية أصحاب الشرطة العليا ، ومستواهم العلمى والخلقى الرفيع ، وكفاءتهم وحنكتهم الادارية هى التى أدت بهم الى اكتساب ثقة الخليفة الحكم المستنصر ، وارتقائهم المناصب العليا بالدولة .

ومن ناحية أخرى كان الخليفة يأمر بعزل أصحاب الشرطة الذين يتهاونون فى تأدية مهامهم ، فأنفذ الخليفة المستنصر أمرا بعزل أحمد ابن سعد الجعفرى عن الشرطة العليا ويعلى بن أحمد بن يعلى عن الشرطة الوسطى عن عتب عليهما فى رمضان سنة ٣٦٤ هـ[٣٩] .

تطور خطة الشرطة واختصاصات صاحبها :

كانت الشرطة فى الأصل تابعة للقضاء ، لذلك اقتصرت مهـــام صاحب الشرطة فى بداية تنظيم خطة الشرطة بالاندلس على تنفيذ أحكام القضاة ، وفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم[٤٠] ، والتأديب فى حق من لم ينته عن الجريمة ، فضلا عن معاونة الحكام وأصحاب المظالم والدواوين فى حبس من أمروه بحبسه ، وأشخاص من كاتبوه باشخاصه ، ومساعدة القاضى فى اثبات الذنب على مرتكبيه ،

---

(٣٨) ابن الابار : الحلة السـيراء ، جـ ١ ، ص ٢٥٧ — ٢٥٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٦ ، ابن حيان : المقتبس فى أخبار الاندلس ، ص ٢١٠ .

(٣٩) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ٢٣٨ .

(٤٠) يعرف الفقهاء الجرائم بأنها محظورات شرعية زجر الله تعالى عنها بحد أو تعزير ، ولها عند التهمة حال استبراء تقتضيه السياسة الدينية ولها عند ثبوتها وصحتها حال استيفاء توجيه الأحكام الشرعية ، انظر : الماوردى : الاحكام السلطانية ، ص ٢٧٣ .

لذلك كان الحصين بن الدجن ــ صاحب الشرطة فى عهد عبد الرحمن الداخل يحضر مجالس القضاء لتنفيذ الأحكام واقامة الحدود[٤١] .

تطورت خطة الشرطة بعد استقلالها عن القضاء ، واتسع مجال اختصاصات صاحب الشرطة تبعا لذلك ، فكان يكلف بالنظر فى المخالفات التى تتطلب قرارات عاجلة ، وأصبح له حق النظر فى الجرائم بعد أن كان عمله مقتصرا على منع الفتن والقبض على المشبوهين[٤٢] .

تعاظمت اختصاصات صاحب الشرطة مع تطور خطتها حتى صارت تشتمل على النظر فى الجرائم كلها واقامة الحدود والتعازير[٤٣] ، فضلا عن النظر فى أمور الجنايات ، والبحث عن أهل الريب والفســاد وقمعهم ، والأخذ على أيدى اللصــوص والمقامرين والحد منهم ، فصار يوجه التهــم ويحقق مع المتهمين ويقوم بتنفيذ العقوبات[٤٤] .

وعلى ذلك صارت مجالس الشرطة ساحات للاستجواب والحكم وتنفيذ الأحكام ، ســواء حــكم بها صاحب المجلس أو الحاكم أو القاضى ، ولاضفاء الصفة الشرعية على اختصاصات صاحب الشرطة أمر الخليفة الحكم المستنصر أن ينص فى مرسوم التقليد على توليتهم أحكام الشرطة[٤٥] .

---

(٤١) ابن الابار : الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ٣٥٤ ــ ٣٥٥ .

(٤٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٦٤ ، احمد شلبى : السياسة والاقتصاد فى التفكير الاسلامى ، مكتبة النهضة المصرية ، طبعة ثانية سنة ١٩٦٧ م ، ص ١٧٤ ، انظر الملحق رقم ٢ : الفروق بين خطتى الشرطة والقضــاء .

(٤٣) انظر الملحق رقم ٣ : الفروق بين الحدود والتعازير .

(٤٤) ابن خلدون : المقــدمة ، ص ١٦٤ ، القلقشندى : صــبح الاعشى ، جـ ١٠ ، ص ٢٢ .

(٤٥) ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ، جـ ١ ، ص ٦٢ ، ٢٧١ ، جـ ٢ ، ص ٧٤ .

كانت مجالس الشرطة علنية وعلى غاية من الهيبة ، حيث يتصدر المجلس صاحب الشرطة ، والى جانبه كاتب الشرطة لتدوين المحاضر ، ولا تقتصر مجالس الشرطة على الاستجواب والحكم ، بل يقع فيها تنفيذ الأحكام من حدود وتعازير ، وكان صاحب الشرطة يقوم بنفسه بالاشراف على تنفيذ الأحكام(٤٦) .

لما كان صاحب الشرطة العليا يختص بالنظر فى أهل المراتب السلطانية ، لذلك عهد الخليفة الحكم المستنصر الى هشام بن محمد ابن عثمان — صاحب الشرطة العليا بالتوجه الى محمد بن سعيد أبى القاسم — ابن خال أبيه الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وأمره بضمه الى السجن مقيدا وذلك لأمر أنكره عليه ، فقبض عليه وأودعه السجن وذلك فى رجب سنة ٣٦٣ ه(٤٧) .

كان صاحب الشرطة العليا يحرص على حضور مجلس المظالم(٤٨) لاعانة صاحبها على تنفيذ أحكامه ، وذلك أن صاحب الشرطة كان يعد رئيس الحماة والأعوان(٤٩) — الذين كانوا من بين

---

(٤٦) التنوخى : أبو على المحسن (ت ٣٨٤ ه) الفرج بعد الشدة ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٥ ه ، ج ١ ، ص ١٨٦ ، ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ ه) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٧ ه / ١٩٤٩ م ، ج ٤ ، ص ٧ .

(٤٧) ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الاندلس ، ص ١٥٣ .

(٤٨) عرف الفقهاء خطة المظالم بأنها قود المتظالمين الى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة ، واعتبروها مزيجا بين سطوة الحماة ، وثبت القضاة ، لذلك اشترطوا فى صاحبها أن يكون جليل القدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيبة ، طاهر العفة ، قليل الطمع ، كثير الورع .

(٤٩) الماوردى : الاحكام السلطانية ، ص ٧٩ .

الحاضرين لهذه الجلسات[٥٠] التى كانت تعقد النظر فى قضايا النزاع بين العامة والولاة والموظفين على اختلاف مراتبهم ، اذا انحرفوا عن طريق العدل والانصاف ، فلما وصلت شكاية أهل كورة اشبيلية من واليها وحاشيته ، وسار اليها الوزير صاحب المظالم عبد الرحمن بن موسى بن حدير وبصحبته صاحب الشرطة العليا والفقهاء والكتاب وذلك فى شوال سنة ٣٦١ هـ[٥١] .

ومن ناحية أخرى كان صاحب الشرطة العليا يكلف برئاسة بعثات الشرف المرافقة لسفراء الدول الأجنبية ، فأسند الخليفة الحكم المستنصر لصاحب الشرطة العليا هشام بن محمد بن عثمان رئاسة بعثة الشرف المصاحبة لبون فليون Enneco Bonfill — سفير بريل بن شنير Borrell Sunier حاكم برشلونة وكان السفير[٥٢] قد وصل الى حاضرة الخلافة فى نهاية شعبان ٣٦٠ هـ /

---

(٥٠) كما كان يحضر هذه المجالس القضاة والحكام لمعرفة ما يجرى فى مجالسهم بين الخصوم ، والفقهاء ليرجع اليهم صاحب المظالم فيما اشكل ويسألهم عما اشتبه واعضل ، والكتاب ليثبتوا ما جرى بين الخصوم وما توجب لهم او عليهم من الحقوق ، والشهود ليشهدهم على ما اجبه من حق وامضاه من حكم ، الماوردى : المصدر نفسه ، ص ١٠ .

(٥١) ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الاندلس ، ص ٨٦ .

(٥٢) كان بصحبة هذا السفير مجموعة من الفرسان ، وحمل هؤلاء معهم الهدايا الكثيرة ، وقد استقبلهم الخليفة أحسن استقبال ، وأنزلهم فى منية نصر — التى تقع خارج قرطبة على نهر الوادى الكبير ، وكان يقوم بالترجمة لهم وللخليفة بعض القرطبيين المستعربين Mozarabes وهم الأسبان الذين عايشوا المسلمين فى المجتمع الأندلسى مع بقائهم على دينهم ، وقد تعلموا العربية . انظر : ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ٢٠ — ٢١ ، الحميرى : أبو عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجى (جمعة سنة ٨٦٦ هـ) الروض المعطار فى خبر الأقطار ، القاهرة ١٩٣٧ هـ ، ص ١٨٧ ،

Reinuad : Muslim Colonies, p. 153.

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، ص ١٣٠ .

أكتوبر ٩٧١ م لعقد معاهدة سلم وصداقة بين امارة برشـــلونة وقرطبــة .

وكان من المها مالتى يضطلع بها صاحب الشرطة العليا ، استنفار الناس للقتال وحثهم على الاستعداد له ، وترغيبهم فى الجهاد من أجل الدفاع عن البلاد ودرء الاخطار الخارجية عنها ، ففى منتصف رجب سنة ٣٦٤ هـ أنفذ الخليفة الحكم المستنصر عدة من أصحاب الشرطة وكبار رجال الدولة الى كور الاندلس محركين لأهلها للنهوض مع جيش الصائفة للتصدى للجلالقة(٥٣) المغيرين على حدود الدولة ، فكان ممن جرده لذلك ، صاحب الشرطة العليا يحيى بن عبد الله بن يحيى بن ادريس الى كور الجوف ، وصاحب الشرطة العليا عبد الرحمن ابن رماحس الى كور الشرق وصاحب الشرطة العليا أحمد بن محمد ابن سعد الى شنترين Santaren (٥٤) .

كذلك كان صاحب الشرطة العليا يكلف بمهام التفتيش على القوات المرابطة بالثغور للاطمئنان على مدى اســتعدادها ويقظتها لحراسة الحدود وحمايتها ، ففى منتصف شعبان سنة ٣٦٢ هـ أنفــذ الخليفة الحكم المستنصر ، صاحب الشرطة العليا والمواريث محمــد ابن عبد الله بن أبى عامر ، ومعه صاحب الشرطة قاضى الثغر الأعلى محمد بن على بن أبى الحسين ، والخازن أحمــد بن محمد الكلبى الى مدينة اصيلا بالعدوة أمناء وممتحنين على القوات المرابطة بهــا وقادتهم . فلما عادوا فى أواخر رمضان من العام نفسه استقبلهم الخليفة واستقصاهم عن جميع ما هنالك ، فأوسعوه علما وشــفوه خبرا ، فأحمد سعيهم وسكن الى صحة أخبارهم وأثنى عليهم(٥٥) .

---

(٥٣) الجلالقة : حكام جيليقية Galicia ، انظر : محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ، ج ٢ ، ص ٥٤٣ .

(٥٤) ابن حيان : المقتبس فى اخبار بلد الأندلس ، ص ٢١٦ .

(٥٥) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ١٠٦ — ١١٨ .

لم يقتصر دور صاحب الشرطة العليا على دعوة الناس للجهاد واستنفارهم للقتال ، والتفتيش على الجنود المرابطين بالثغور ، بل كان يكلف بمهام قتالية لمعاونة قادة فرق الجيش فى التصدى لأعداء الدولة وحماية ثغورها وحدودها ، ففى الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ استدعى الخليفة المستنصر بالله صاحب الشرطة العليا هشام بن محمد بن عثمان ، والناظر فى الحشم زياد بن أفلح الى مجلسه الخاص مع الوزراء وأمرهما بالتأهب للخروج قائدين على صائفة العام المجردة الى الغرب ، لما لا يزال يتوقع من اعتداءات المجوس الاردمانيين[٥٦] ، فنفذا المهمة على أكمل وجه وعادا الى

---

(٥٦) المجوس الاردمانيين : هم أصل النورمان ، ويعرفون بالاسبانية Normandos أو Wikingos وبالانجليزية Norsemen أو Vikings وهى تعنى سكان الشمال ، وهم سكان الدول الاسكندنافية الذين اشتهروا بنشاطهم الحربى البحرى ، وهم أيضا سكان الخلجان ، وتعود اصول هذا الشعب الى الجرمان أو انقينونيين ، وينقسم الى ثلاث مجموعات هم السويديون والنرويجيون والدانيون (الدنماركيون) ، والمجموعة الأخيرة هى التى جبلت على مهاجمة بلاد الاندلس ، وقد أطلق عليهم المؤرخون المسلمون فى الغرب الاسلامى اسم المجوس او الاردمانيون أو كليهما . أما تسميتهم بالمجوس انتى تطلق على الزرادشتيين عبدة النار ، لأن النورمان كانوا يكثرون من اشعال النار خلال غزوهم حدود الاندلس فظن المسلمون أنهم يعبدونها كالزرادشتية . وأما كلمة الاردمانيين فهى من الكلمة اللاتينية Nordmanni أى سكان الشمال وقد هاجموا الاندلس عدة مرات منذ ذى الحجة سنة ٢٢٩ هـ / اغسطس ٨٤٤ م ، وفى عهد الخليفة الحكم المستنصر بدات هجماتهم اول رجب سنة ٣٥٥ / ٢٣ يونيو ٩٦٦ م وبعد عدة معارك ردهم المسلمون . كما عادوا لمهاجمة الاندلس فى مطلع رمضان ٣٦٠ هـ / سبتمبر ٩٧١ م ، ولكنهم عادوا بعد هزيمتهم . كما أوقع المسلمون بهم هزيمة ساحقة عندما هاجموا سواحل الاندلس الغربية فى بداية رمضان سنة ٣٦١ هـ / ٩٧٢ م . انظر : ابن القوطية ، أبو بكر محمد (ت ٣٦٧ هـ) تاريخ افتتاح الاندلس ، بيروت ، دار الجامعيين ١٩٥٨ م ، ص ٨٤ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ٤٩ .

مدينة الزهراء فى ذى القعدة من العام نفسه[٥٧] .

كما خرج صاحب الشرطة العليا والحشم قاسم بن محمد بن قاسم الى الجزيرة على رأس طائفة من الجند ، ممدا للوزير القائد الأعلى للجيش غالب بن عبد الرحمن فى منتصف شعبان سنة ٣٦٢ هـ[٥٨] .

وفضـــلا عن ذلك كان صاحب الشرطة العليا يكلف بعمليـــات الاستكشاف والدفاع المؤقت لحين وصول القوات النظامية ، ففى رمضان سنة ٣٦١ هـ ، عهداً الى صاحب الشرطة العليا هشام بن محمد ابن عثمان تتبع أخبار النورمان ـــ الذين كانوا كثيرا ما يغيرون على حدود الدولة وثغورها[٥٩] .

أما صاحب الشرطة الوسطى فكان يختص بالنظر فى تجاوزات الطبقة الوسطى وبخاصة كل من ارتبط منهم بالاسواق ، التجـــار وأصحاب المصانع وأرباب المهن ، لذلك كان يكلف بمراقبة الأسواق بصفة دائمة ، والقضاء على المشاكل الناجمة عن ضـــيقها وازدحامها بالرواد ، فأمر الخليفة الحكم المستنصر ، صاحب الشرطة الوســـطى أحمد بن نصر بن خالد بتوسيع المحجة العظمى بسوق قرطبـــة لضيقها

=

Mawer (A) The Vikings, Cambtidgo, 1930, p. 14; Thompson (J. W.) : The Middle ages, London, 1931, p. 127; Dozy (R) : Recherches sur l' Histoire et la litterature pp. 269 — 278.

حسين مؤنس : غارات النورمانيين على الاندلس ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، المجلد الثانى ، العدد الأول ١٤٩ ، ص ٤٢ ، سعـــيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جزءان ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧١ م ، جـ ١ ، ص ٢١٠ ـــ ٢١٣ .

(٥٧) ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الاندلس ، ص ٧٨ ، ص ١٢ ـــ ١٣ .

Dozy : Spanish Islam, p. 516.

(٥٨) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ١٦ .

(٥٩) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ١٣ .

عن مخترق الناس وازدحامهم فيها ، وهدم الحوانيت التى تقف حائلا دون التوسعات ، فأتم ذلك على ما حدد له فى جمادى الأول سنة ٣٦١ هـ[٦٠] .

كذلك كان من مهام صاحب الشرطة الوسطى مرافقة صاحب المدينة ومعاونته فى تنفيذ أوامر الخليفة فيما يختص بالأسواق واقامة الحوانيت ، وازالة المعوقات لأنه يمثل السلطة الشرعية على التجار وأصحاب المصانع ، فاجتمع أحمد بن نصر خالد صاحب الشرطة الوسطى مع صاحب المدينة بقرطبة جعفر بن عثمان[٦١] لنقل دار البرد القاطنة بقرب قصر قرطبة وفى صدر سوقها العظمى الى دار الزوامل بأطراف المدينة ، واقامة حوانيت للبزازين بدار البرد ، لتوسيع المكان واستيعاب التوسع فى صناعتهم بناء على أمر الخليفة الحكم المستنصر وذلك فى المحرم سنة ٣٦١ هـ[٦٢] .

وفضلا عما سبق كان صاحب الشرطة الوسطى يكلف بمهام ذات طبيعة خاصة ، ففى جمادى الآخرة سنة ٣٦٢ هـ ، أنفذ الخليفة المستنصر صاحب الشرطة الوسطى أحمد بن نصر الى كورة جيان Jien للتحقيق فى شكاية أهلها من ثقل المؤنة المحدد لهم نقلها الى اشبيلية ، والتى كانت تتألف من الخشب والزفت والقطران ، فرأى إسقاطها رفقا بالرعية[٦٣] .

---

(٦٠) المقتبس فى اخبار بلد الأندلس ، ص ٧٠ — ٧١ .

(٦١) جعفر بن عثمان بن نصر المصحفى : استوزره الخليفة الحكم المستنصر بعد ان كان واليا على جزيرة ميورقة فى أيام الناصر بالله ، وصار واليا على مدينة قرطبة ، وتلقب بالوزير صاحب المدينة وهو اديب أندلسى من كبار الكتاب ، انظر : الحميدى ، محمد بن فتوح (ت ٤٨٨ هـ) جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، مكتب نشر الثقافة الاسلامية ، القاهرة ٥٦٣ هـ ، ص ١٧٥ .

(٦٢) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ٦٣ .

(٦٣) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ١٤ .

كما عهد الخليفة المستنصر بالله لصاحب الشرطة الوسطى أحمد بن نصر بتوزيع الأموال التى أخرجها على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وذلك كما جرت العادة فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ(٦٤) .

كذلك استدعى الأمير أبو الوليد هشام بن الخليفة الحكم المستنصر ، صاحب الشرطة الوسطى عبد الرحمن بن يحيى بن محمد هاشم التجيبى ، وأمره باللحاق الى سرقسطة قائدا وممدا ، بناء على أمر الخليفة ، وخلع عليه خلعا فاخرة وذلك فى شعبان سنة ٣٦٤ هـ(٦٥) .

أما صاحب الشرطة الصغرى ، فكان ينظر فى جرائم العامة والدهماء ، فضلا عن الاشراف على السجون ، وحفظ النظام ، ومنع كل ما من شأنه أن يؤدى الى الفوضى ، ومراقبة أماكن اللهو ، وتفقد الدروب والشوارع من أول الليل واحكام أمرها حتى طلوع الفجر ، كما كان من أهم ما يكلف به عمارة أسوار المدينة وأبوابها وحراستها والتصدى للمتسللين والمشبوهين(٦٦) .

كما كان صاحب الشرطة الصغرى يضطلع بمهام خاصة تتجلى فى ضبط الأمور بالثغور والعمل على استتباب الأمن بها ، ولذلك حرص الخليفة المستنصر على منح صاحب الشرطة الصغرى صلاحيات قضائية تخول له التحقيق فى الجرائم ، وتنفيذ الأحكام دون الرجوع للسلطة الحاكمة ، فولى محمد بن على بن أبى الحسين الشرطة الصغرى وضم له القضاء بالثغر الأعلى ، كما استدعى الخليفة أخاه حسن بن على وأشركه مع أخيه فى الأمر ردءا وذلك فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ(٦٧) .

---

(٦٤) ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، ص ٧٦ .
(٦٥) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ٢٢٢ .
(٦٦) ابن خلدون : المقدمة، ص ١٦٤ .
(٦٧) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ٨١ .

أصحاب الوظائف المساعدة التابعين لصاحب الشرطة :

يرى الفقهاء أن نصب عمال الشرطة والقضاء والولاة وأمثالهم من الوسائل الى جلب المصالح العامة والخاصة ، كما أن نصب أعوان لهؤلاء يعتبر من وسائل الوسائل ، ولا شك أن الوسائل تأخذ حكم المقاصد التى تؤدى اليها[٦٨] .

يعد خليفة صاحب الشرطة[٦٩] من أهم معاونيه ، فكان يتولى مهام صاحبه ويتحمل مسئولياته حالة غيابه ، لذلك كان يشترط فيه أن يكون عالما متفقها ، عارفا بأحكام الله عز وجل من حدود وديات وتعازير ، مطلعا على حالة الأمن بالبلاد .

لما كان صاحب الشرطة يكلف برئاسة بعثات الحج[٧٠] والخروج فى مهمات حربية ، فكان خليفته يتخذ مكانة ويقوم بدلا منه بتصريف شئون خطة الشرطة ، للحفاظ على الاستقرار والنظام والأمن فى ربوع البلاد ، وبخاصة أن المهمات التى يقوم بها صاحب الشرطة كانت تستغرق وقتا غير قصير[٧١] .

---

(٦٨) ابن عبد السلام : عز الدين (ت ٦٦٠ هـ) قواعد الاحكام فى مصالح الانام ، راجعه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الازهرية ، مصر ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، جـ ١ ، ص ٥٨ ، القرافى : احمد بن ادريس (ت ٦٨٤ هـ) الفروق ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٤٤ هـ ، جـ ٣ ، ص ٢٦٦ .

(٦٩) الخليفة : الجمع خلائف وجمعه سيبويه خلفاء ، وكانت نشأة هذه الخطة قد اقتضتها الضرورة للحفاظ على حالة الأمن فى ربوع البلاد حالة غياب صاحب الشرطة ، ابن منظور : لسان العرب ، جـ ١٠ ، ص ٤٣١ .

(٧٠) ابن خلدون : العبر ودوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٥٧ م ، جـ ١٢ ، ص ٣٨٢ .

(٧١) ابن حيان : المقتبس فى اخبار بلد الاندلس ، ص ٧٨ ، ٩٢ ، ١٠٦ .

كان يتبع صاحب الشرطة كاتب خاص به ، يعرف بكاتب الشرطة ، يقوم بتدوين المحاضر وكتابة الأحكام ، فضلا عن جمع واعداد تقارير مساعدى الشرطة وإعدادها للعرض عليه(٧٢) .

كان كاتب الشرطة يختار بدقة من بين الذين تتوافر فيهم شروط التفقه بالأحكام الواردة فى القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، الى جانب اجتهاد العلماء والفقهاء ، وكان يشترط فيه أن يكون عارفا بحكم العمد وحكم الخطأ ، عالما بمن ينبغى أن يعاقب فى الزلات وبمن تدرأ عنه الحدود بالشبهات ، فضلا عن الأحكام المعمول بها فى الدولة ، وكان كاتب الشرطة الساعد الأيمن لصاحب الشرطة فى أغلب الأوقات ، وبخاصة عند عقد مجالس الشرطة للتحقيق والفصل(٧٣) .

اهتم صاحب الشرطة بترتيب فرقة من الشرطة لكل حى من أحياء المدينة ، تكون مسئولة عن حفظ النظام وإقرار الأمن فيها ليلا ونهارا ، وكان يعين عليها من أعوانه رؤساء يعرفون بأصحاب الأرباع وذلك بعد تقسيم المدينة من ناحية الضبط والحراسة الى الارباع التى تتبعها الأحياء والقطع(٧٤) .

كان صاحب الشرطة يحدد المهام لأصحاب الأرباع التى تتجلى فى اليقظة الدائمة لسكنات الليل وغفلات النهار ، ومراقبة الدور وأوكار اللصوص ، ويقوم أصحاب الأرباع برفع تقاريرهم اليومية الى صاحب

---

(٧٢) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ١ ، ص ١٤٣ .

(٧٣) التنوخى : ابو على المحسن (ت ٣٨٤ هـ) الفرج بعد الشدة ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٥ هـ ، جـ ١ ، ص ٥٥ — ٥٦ .

، القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ١ ، ص ١٤٣ — ١٤٤ .

(٧٤) التنوخى : الفرج بعد الشدة ، جـ ٢ ، ص ٢٧٣ ، ابن طباطبا : محمد بن على (ت ٧٠٩ هـ) الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار صادر بيروت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، ص ١٦٣ .

الشرطة أو كاتبه عن طريق العراض[٧٥] ، فكان رجال الشرطة يسهرون على أمن المدينة ، ويحرسون متاجرها وأسواقها ليعمل أهلها فى اطمئنان وينامون فى سلام .

أما أسواق المدينة وأماكن الرصد بأطرافها فكان يعين لها فرقا مسلحة برئاسة عرفاء المحارس[٧٦] وذلك انهم كانوا يحملون أسلحة خاصة بصفة دائمة وتكون مهمتهم حراسة أطراف المدينة وثغراتها ، ومعاونة أصحاب الأرباع فى الضبط ، والقبض على المتسللين والمشتبه فيهم ، ومراقبة المشبوهين ، والغرباء الوافدين على المدينة .

كما كان عرفاء المحارس يعاونون صاحب الشرطة فى تنفيـــذ أوامر الخلفاء الخاصة بالقبض على المخالفين والزج بهم فى السجن ، فلما شرع هشام بن محمد ـــ صاحب الشرطة العليا فى تنفيذ أمـــر الخليفة الحكم المستنصر بالقبض على محمد بن سعيد وايداعه السجن ، مضى نحوه وبين يديه عرفا المحارس وذلك فى رجب سنة ٣٦٢ هـ[٧٧] .

كذلك كان من أعوان صاحب الشرطة ، أصحاب الليـــل ـــ الذين كانوا يجوبون أنحاء المدينة من غروب الشمس حتى طلوع فجر اليوم التالى ، يتقدمهم حملة المشاعل والنفاطون ، اظهارا للقوة وترويعا للصوص ، فضلا عن تتبع أهل الريب والقبض عليهم[٧٨] .

---

(٧٥) عريب القرطبى : (ت ٣٦٦ هـ) صلة تاريخ الطبرى ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٩٥٨ م ، جـ ٨ ، ص ٥٠ .

(٧٦) العريف هو القائم بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس يلبى أمورهم ، ويتعرف الامير منه على أحوالهم ، ابن منظور : لسان العرب ، جـ ١١ ، ص ١٤٣ ، ابن قيم الجوزية : (ت ٧٥١ هـ) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، المؤسسة العربية الطباعة والنشر ، القـــاهرة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٩ م ، ص ٢٧٨ .

(٧٧) ابن حيان : المقتبس فى اخبار بلد الاندلس ، ص ١٥٣ .

(٧٨) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢١٩ .

يختلف أصحاب الليل عن الفرق الشرطية المخصصة لكل حى ، فى أن هذه الفرق كانت ثابتة تشبه المخافر فى الوقت الحاضر ، أما أصحاب الليل فكانوا يكونون فرقا طوافة وتتركز أعمالها ليلا ، فكانوا يجوبون شوارع المدينة ، لا ينقطعون عن الطواف الا بعد رفع آذان الفجر ، وعندئذ تفتح أبواب المدينة ، التى كانت عادة ما تغلق بعد صلاة العشاء • وكان يحق لأصحاب الليل القاء القبض على كل من يجدوه فى الشوارع فى ساعات الليل المتأخرة(٧٩) •

كان أصحاب الليل يتخذون كلابا لتنبيههم ومعونتهم فى القيام بمهامهم على أكمل وجه ، وكانوا ينتقون من الكلاب أضخمها وأقواها ، وبعد انتهاء دورياتهم ، كانوا قدمون المشبوهين والغرباء مع تقاريرهم الى أصحاب الأرباع للنظر فى أمرهم(٨٠) •

ومن الجدير بالذكر أن أصحاب الليل كانوا يعرفون بالدرابين ، قال المقرى(٨١) : « وأما خطة الطواف بالليل فإنهم يعرفون فى الاندلس بالدرابين ، لأن بلاد الاندلس لها دروب باغلاق ، تغلق بعد العتمة ولكل زقاق بائت فيه ، له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معد » •

كما كان صاحب الشرطة يعين أحد رجاله الأكفاء للاشراف على السجن(٨٢) التابع له ، ويطلق عليه صاحب السجن(٨٣) — الذى كان

---

(٧٩) التنوخى : الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ٢١٩ ، سيد أمير على : مختصر تاريخ العر ب والتمدن الاسلامى ، ترجمة عفيف البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٤٦٩ •

(٨٠) التنوخى : المصـــدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٩ ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ •

(٨١) انظر نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢١٩ •

(٨٢) يرى الفقهاء أن السجن هـــو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه حيث شاء ، فالحبس الشرعى هو ضد التخلية وهو عقوبة قديمة ، فقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : (لئن =

يقوم بالتحفظ على اللصوص والمجرمين وأصحاب الجنايات وغيرهم من الخارجين على القانون(٨٤) .

كان صاحب السجن يعنى بالتحفظ عليهم ، ويرسل اليهم الأطباء ومعهم الأدوية والأشربة ، وكل ما يحتاجون اليه من علاج طوال فترة تمضية الأحكام ، لذلك كان يجب عليه أن يكون جادا فى عمله ، ناظرا فى أمر المحبوسين كل يوم ، فانما يتضرر أهل الحبس بقلة النظر فى أمورهم(٨٥) .

لذلك كان أصحاب السجون يتم اختيارهم بدقة على أساس الأمانة والصدق ، والمعرفة بطرق التهذيب واصلاح المسجونين قبل عودتهم الى المجتمع ، ومن ناحية أخرى كان يشترط فى صاحب سجن النساء أن يكون شيخا عفيفا ، متزوجا ، حسن الخلق(٨٦) .

=

اتخذت آلها غيرى لاجعلنك من المسجونين) سورة الشعراء آية ٢٩ ، وقال تعالى : (رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) سورة يوسف آية ٣٣ ، والسجن فى الاسلام ليس أداة للتعذيب والانتقام وانما هو أداة اصلاح وتقويم وحفظ للفرد والجماعة ، وقد شدد الفقهاء على منع السجان من تعذيب المساجين وأمروا بتفقدهم والنظر فى امورهم ، وجعلوا اعلان التوبة سببا فى الافراج عنهم ، القرافى : الفروق ، جـ ٤ ، ص ١٨١ ، ابن فرحون : برهان الدين ابراهيم (ت ٧٩٩ هـ) تبصرة الحكام ، مطبعة السعادة بمصر ، جـ ٢ ، ص ١٣٤ .

(٨٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، دار الكتاب العربى ، جـ ٢ ، ص ٤٣ .

(٨٤) ابن حيان : المقتبس فى اخبار بلد الاندلس ، ص ١١٨ .

(٨٥) التنوخى : المستجاد من فعلات الأجواد ، تحقيق محمد كرد على ، مطبعة الترقى بدمشق ، سنة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م ، ص ١٥ .

(٨٦) السمنانى : أبو القاسم على بن محمد بن أحمد (ت ٤٩٩ هـ) روضة القضاة وطريق النجاة ، تحقيق د. صلاح الدين الناهى ، مطبعة أسعد ، بغداد ١٩٧٠ م ، ص ١٣١ — ١٣٢ .

كان صاحب السجن يزود بدفتر يسجل فيه يوم دخول المحكوم عليه ، ووصفه وجريمته التى اقترفها ، ومدة الحبس ، وتاريخ الخروج المنتظر ، وذلك لضمان حقوق المسجونين[٨٧] •

كذلك كان يتبع صاحب الشرطة طائفة من أصحاب الفرانقين ، وهم القائمون بأمر البريد[٨٨] • وكان يشترط فيهم الصــدق والأمانة والمعرفة بالشرائع والتمسك بأهداب الدين ، وكانوا يعاونون أصحاب الشرطة فى دعم الأمن بالبلاد ، والقبض على المجرمين ، لأن أصحاب البريد كانوا عيونا ساهرة بالرقابة الدائمة عليهم ، فضلا عن معرفتهم التامة بأماكن اقامة الناس ومنازلهم • فكان صاحب الشرطة العليا بقرطبة يحرص على أن يرافقه فى القيام بواجباته والقبض على المخالفين ، فريق من أصحاب الفرانقين[٨٩] •

هكذا عاشت بلاد الاندلس فى أمن وطمأنينة لنبوغ أصحاب الشرطة ويقظة أعوانهم ، مما كان له أكبر الأثر فى وقاية المجتمع من المشبوهين ، ومنع الجرائم قبل وقوعها ، والقاء الهيبة والرعب فى نفوس اللصوص والخارجين عن القانون ، فعاش الناس فى هدوء وسكينة وانصرفوا للعمل من أجل تقدم وازدهار الحضارة الاسلامية •

---

(٨٧) ابن عبدون التجيبى (ت فى القرن الخامس الهجرى) رسالة فى الحسبة ، نشر ليفى بروفنسال بالمجلة الاسيوية ، جوان ١٩٣٤ ، ص ٢٠٩ •

(٨٨) البريد هو أن تجعل خيل فى عدة أماكن ، فاذا وصل صاحب الخبر (الفرانقين) المسرع الى مكانها وقد تعب فرسه ، ركب فرسا غيره مستريحا ـــ انظر : ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ١٠٦ •

(٨٩) ابن حيان : المقتبس فى اخبار بلد الاندلس ، ص ١٥٣ •

أدوات رجال الشرطة وملابسهم :

كان رجال الشرطة يستخدمون الدرة[٩٠] ، والمقرعة ، والقلوس للتأديب ، فضلا عن السياط[٩١] لاقامة الحدود ، وكان يشترط فى السوط المستعمل للضرب ألا يكون شديدا ولا رقيقا لينا ، بل يجب أن يكون بين اللين والشدة ، والغلظة والدقة . وكان الجلادون من رجال الشرطة يباشرون أعمالهم تحت رقابة صاحب الشرطة أو من ينوب عنهم ، وكان يشترط فى الجلادين ألا يكونوا من الجهـال الغلاظ ، بل كان يتولى الجلد رجال من أهل البصيرة يعلمون كيفية الضرب لتحقيق مقتضى الشريعة ، فضلا عن درايتهم باسعاف من أصابه مكروه أثناء تنفيذ الحدود[٩٢] .

---

(٩٠) كان الخليفة عمر بن الخطاب أول من استخدم الدرة ، وكانت فى يده اكثر هيبة من السيف فى يد غيره ، انظر السيوطى : جلال الدين (ت ٩١١ هـ) تاريخ الخلفاء ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م ، ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٩١) اتفق الفقهاء والعلماء على أن الضرب بالسوط ينبغى أن يصيب الجلد ولا يعدو الى اللحم ، فكل ضرب يقطع الحم أو ينزع الجلد ويجرح اللحم مخالف لحكم الاسلام ، كذلك يجب أن يكون الضرب بين الضربين فلا يكون مبرحا ، ولا ينبغى أن يكون فى موضع واحد من الجسد ، بل يفرق على الجسد كله عدا الوجه والفرج والرأس ، واتفقوا على أن الرجل ينزع ثيابه كلها ما عدا السراويل ، والمرأة لا ينزع ثيابها بل تربط عليها حتى لا ينكشف جسدها ، وانما تنزع الثياب الخارجية الغليظة ، ولا تضرب الحامل حتى تضع ولا ترجم حتى تفطم صبيها ، السيوطى : تنوير الحوالك فى شرح موطأ الامام مالك ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، جـ ٢ ، ص ١٦٩ ، الجصاص : ابو بكر الرازى (ت ٣٧٠ هـ) أحكام القرآن ، المطبعة البهية المصرية ١٣٤٧ هـ ، جـ ٣ ، ص ٢٢١ — ٣٢٢ ، ابن حزم المحلى ، تحقيق محمد منير الدمشقى ، ادارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٥٢ هـ ، جـ ١١ ، ص ١٦٩ — ١٧٢ .

(٩٢) التنوخى : نشوار المحاضرة ، مطبعة ابن زيدون ، دمشق ١٣٤٨ هـ ، جـ ٨ ، ص ٦٩ ، ابن الجوزى : جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن ابى الحسن (ت ٥٩٧ هـ) ذم الهوى ، المطبعة المصرية بالازهر ، سنة ١٣٥٠ هـ / ١٩٣٦ م ، ص ٤٦٨ .

كان رجال الشرطة يستعملون الكتاف[٩٣] ، والصفاد[٩٤] ، والكبل ، والغل[٩٥] — الذى كان يصنع من الجلد غير المدبوغ ، فضلا عن السلاسل ، والقيد — للقبض على الجناة والمخالفين ، فلما عهد الخليفة الحاكم المستنصر لصاحب الشرطة العليا بالقبض على ابن خال أبيه ، مضى نحوه وقبض عليه ، وأقبل به الى السدة بقصر الزهراء ، وقد أحضر له القيد فقيد وأودع السجن[٩٦] .

ومن ناحية أخرى كان رجال الشرطة يتسلحون بالطبرزين ، يحملونه معلقا فى أوساطهم ، وكان عرفاء المحارس يتسلحون بالسيوف والحراب والرماح والعمد والسكاكين ، ويتقون بالسواعد والاكف المصنوعة من حلقات الحديد ، وذلك لطبيعة المهام المكلفين بهـا .

أما الفرق الحربية المساعدة التى كان صاحب الشرطة يقودها فى مهام عسكرية فكانت تتسلح بالقنا الطويلة ، والدروع ، والتروس ، والقسى والسهام ، بينما يضع رجالها على رؤوسهم البيضات[٩٨] ،

---

(٩٣) الكتاف : الحبل ونحوه مما يقع به كتف الجانى وهو شد يديه الى خلف كتفه .

(٩٤) الصفاد : حبل يوثق به الجانى ، وهو الصفد وجمعه اصفاد .

(٩٥) الغل : ما أحاط بالعنق وجمعه اغلال .

(٩٦) ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الاندلس ، ص ١٥٣ .

(٩٧) الطبرزين : لفظة فارسية معناها الفأس ، وهو سلاح يشبه البلطة ينتهى برأس مستديرة وتصنع قبضته من الحديد أو الخشب الصلب المتين ، ابن سيدة ، أبو الحسن على بن اسماعيل (ت ٤٥٨ هـ) ، كتاب المخصص ، بيروت ، المكتبة التجارية ١٩٦٧ ، مجلد ٢ ، سفر ٦ ، ص ٥٣ — ٥٤ ، القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٢ ، ص ١٤٠ — ١٤١ ، جـ ٥ ، ص ٤٥٨ .

(٩٨) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ١٩٧ .

كما كانت خيولهم تتصفح برقائق الحديد ومنهم من كان يحمــل الدماغات والأحوزة ـــ وهى العصى الحديدية •

كانت الملابس الرسمية لرجال الشرطة لا تختلف كثيرا عن ملابسهم فى غير أوقات العمل ، الا أنهم كانوا يتخذون الأشراط أو العلامات تمييزا لهم عن العامة ، وحتى يستطيع المضطرون الاهتداء لهم فى حالة تعرضهم للاخطار •

كان اللباس الكامل يتألــف من العمامة والقبــاء والسروال والنعال ، بالاضافة الى المنطقة والجبة والقميص والبيضة •

اهتم رجال الشرطة بارتداء العمامة لمنزلتها الخاصة عند العرب ، فهى جنة فى الحرب ، مكنة فى الحر ، زيادة فى القامة ، وكان صاحب الشرطة يرتدى العمامة وقد أسبل طرفها بين كتفيه ، أما أعوانه ومرؤوسيه فكانوا يعتمون القفراء أى عقد العمامة فى القفاه[٩٩] ، بينما كان بعضهم يشدها فوق البيضة فى الحراسة الليلية ، أو تشد فوق القلنسوة فى المناسبات الرسمية[١٠٠] •

كان أصحاب الشرطة بالاندلس على عهد الخليفة المستنصر يرتدون العمائم الفاخرة المصنوعة من الخز وبخاصة فى الاحتفالات العامة والأعيــاد الدينية ، فضـــلا عن مناسبات تقليدهم خطــة الشرطة[١٠١] •

كانت الجباب من قطع الملابس الطويلة الفضفاضة التى تثبت حافتها فى المنطقة ، وكان يلبس فوقها قميص مزود بأكمام واســعة أو ضيقة ، بينما كان القباء[١٠٢] يلبس فوق القميص أو يشـــمر

---

(٩٩) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ١٠١ .
(١٠٠) ابن حيان : المقتبس فى اخبار بلد الاندلس ، ص ١١٨ .
(١٠١) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ١٣٢ ، ٢٢٣ .
(١٠٢) ابن حيان : المصدر نفسه ، ص ٤٩ ، ١٩٧ .

فيسمح لمرتديه بحرية الحركة والجلوس[١٠٣] ، وكانت الجباب والأقبية تصنع واسعة وعريضة من السندس أو من الخز الملون •

أما السراويل فهي الألبسة التي يستتر بها النصف الأسفل من الجسم ، وتعرف السراويل أيضا بالسرابيل لقوله تبارك وتعالى : « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم »[١٠٤] ، بينما كان يلبس تحت السراويل تبان مصنوع من الشعر •

كانت الأردية تلبس مع الازار ، أو مع الازار والقميص ، كما كان الرداء يلبس فوق الطبرزين[١٠٥] — الذى يحمله رجال الشرطة ، وكان الازار عبارة عن عباءة واسعة يلتف بها ، وبخاصة فى الحراسة الليلية على أسوار المدينة وأطرافها اتقاء للبرد • كما كانت الأنواع الفاخرة منه ترتدى فى الاحتفالات والمناسبات العامة •

كانت الملابس تحزم بالمناطق[١٠٦] ، والمنطقة عبارة عن حزام من الجلد السميك أو من القماش الغليظ ، أما فى الاحتفالات فكان يتخذ من القاش السادة أو الملون أو المقلم •

أما النعال فكانت معروفة منذ زمن بعيد ، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى »[١٠٧] والنعال هى الأحذية التى تستعمل فى وقاية القدمين مما

---

(١٠٣) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢٦٢ .

Dozy (R) : Dictionnaire detaille des noms des vetements ches les Arabes Amsterdam, 1845, p. 352.

(١٠٤) سورة النحل : آية ٨١ .

(١٠٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ ٢ ، ص ٢٧٥ .

(١٠٦) التنوخى : نشوار المحاضرة ، جـ ٨ ، ص ١١ — ١٣ .

(١٠٧) سورة طه : آية ١٣ .

تحمله الأرض على ظهرها . وكانت عبارة عن سيور مشدودة من الجلد أو الليف .

وكانت النعال تصنع على شكل خفين مبطنين بالشعر ومزودين بأجربة توضع بها الخناجر أو السكاكين[١٠٨] لاستعمالها عند الضرورة ، والى جانب ذلك كان هناك الأمواق[١٠٩] ـ وهى خفاف غليظة تلبس فوق الخفاف العادية .

* * *

(١٠٨) ابن سده : المخصص ، مجلد ١ ، سفر ٤ ، ص ١١١ .

(١٠٩) ابن سيده : المصدر نفسه ، مجلد ١ ، سفر ٤ ، ص ١١٤ .

خاتمـــة البحـــث

يتجلى من ثنايا البحث أن الشرطة كانت من الخطط الادارية الهامة التى عنى بها الخلفاء الأمويون بالأندلس للحفــاظ على أمــن الدولة وسيادتها واستقرارها ، ويتولى رئاستها صــاحب الشرطة وتعاونه مجموعة من المرؤوسين لأداء المهام المنوطة بالشرطة على أكمل وجه •

كما يتضح أن خطة الشرطة قد تطورت فى عهد الخلافة ، وصارت تتألف من الشرطة الكبرى والشرطة الوسطى والشرطة الصــغرى ، وأن مهام كل طائفة منها قد تأصلت على عهد الخليفة الحكم المستنصر ، الذى ازدهرت خلال فترة حكمه التنظيمات الاسلامية ، وبلغت خطة الشرطة درجة كبيرة من الرقى والتقدم •

حظى أصحاب الشرطة فى عهد الخليفة الحكم المستنصر بمكانة سامية ، يتجلى ذلك فى الحرص على حضورهم الاحتفالات الرسمية باستقبال السفراء الأجانب والمناسبات والأعياد الدينية ، فكانوا يتبؤون مقاعدهم الشريفة اللائقة بهم •

ليس أدل على مكانة أصحاب الشرطة على عهد الخليفة المستنصر بالله من أن كثيرا منهم ارتقى الى المناصب الأعلى فقد كانت خطــة الشرطة ترشيحا للوزارة والحجابة وولاية المدن •

يتضح من البحث أن اختصاصات صاحب الشرطة قد تعاظمت بعد انفصال خطة الشرطة عن القضاء ، فكان يحق له النظر فى الجرائم كلها واقامة الحدود والتعازير وتنفيذ العقوبات دون الرجوع للسلطة الحاكمة •

كما يتضح أن الشرطة كانت تكلف بمهام حربية كفرق مساعدة

تعمل جنبا الى جنب قوات الجيش ، فضلا عن قيام أصحاب الشرطة باستنفار الناس ، والتفتيش على القوات المرابطة بالثغور للاطمئنان على مدى استعدادها ويقظتها لحراسة الحدود وحمايتها .

يتجلى من ثنايا البحث أن صاحب الشرطة كان يحدد المهـــام بمنتهى الدقة لاعوانه ومرؤوسيه ومن بينهم خليفته وكاتبه ، وأصحاب الأرباع ، وعرفاء المحارس ، وأصاحب الفرانقين فضلا عن صاحب السجن مما كان له أكبر الأثر فى أداء الشرطة للمهام المنوطة بها على أكمل وجه .

كما يتضح مدى عناية الخليفة الحكم المستنصر برجال الشرطة فى تزويدهم بكافة أنواع الأدوات والأسلحة لتنفيذ مهامهم بدقة وفى وقت قصير ، فضلا عن الاهتمام بالزى الخاص بهم حتى يظهروا بالمظهر اللائق برجال الشرطة الساهرين على أمن وسيادة الدولة .

وقصارى القول أن خطة الشرطة بالاندلس كانت مضبوطة محكمة على عهد الخليفة الحكم المستنصر بفضل نبوغ أصحاب الشرطة وحزمهم وشدتهم فى الحق ، وباعانة صفوة من الرجال — الذين كانوا مثالا للاستقامة والأمانة فى تطبيق أحكام الاسلام وشرائعه ، فعاشت البلاد فى أمن وطمأنينة عزيزة شامخة .

* * *

الملاحـــــق

الملحـــق الأول

مرســوم تقليد صاحب الشرطة بالاندلس (١١٠)

« كتاب تأكيد اعتناء ، وتقليد ذى منة وغناء ، أمر بانفاذ فلان ، أيده الله تعالى « لفلان ابن فلان ، صانه الله تعالى ! ليتقدم لولاية المدينة الفلانية وجهاتها ويصوح ما تكاتف من العدوان فى جنباتها ، تنويها أخطأه بعلائه ، وكساه رائق ملائه ، لما علمه من سنائه ، وتوسمه من غنائه ورجاه من حسن منابه ، وتحققه من طهارة ساحته ، وجنابه ، وتيقن — أيده الله تعالى ! — انه مستحق لمــا ولاه مستقل بما تولاه ، لا يعتريه الكسل ولا تثنيه عن المضاء الصوارم والاسل ، ولم يكل الأمر منه الى وكل ، ولا ناطه بمناط عجز ولا فشل ، وأمره أن يراقب الله تعالى فى أوامره ونواهيه ، وليعلم انه زاجره عن الجور وناهيه ، وسائله عما حكم به وقضاه ، وانفذه وأمضاه ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ، فليتقدم الى ذلك بحزم لا يخمد توقده ، وعزم لا ينفد تفقده ، ونفس مع الخير ذاهبة ، وعلى متن البر والتقوى راكبة ، ويقدم للاحتراس من عرف اجتهاده ، وعلم ارقه فى البحث وسهادة ، وحمدت أعماله ، وأمن تفريطه واهماله ، ويضم اليهم من يحذو حذوهم ، ويقفو شأوهم ، ممن لا يستراب بمناحيه ، ولا يصاب خلل فى ناحية من نواحيه ، وأن يذكى العيون على الجناة ، وينفى عنها لذيذ السنات ، ويفحص عن مكامنهم ، حتى يغص بالريق نفس آمنهم ، فلا يستقر بهم موضع ولا يفر منهم حب ولا موضع ، فاذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه ، وبث السؤال فى مواضع تصرفه ومواطنه فان لاحت شبة ابداها الكشف والاستبراء وتعداها البغى والافتراء ، نكله بالعقوبة أشد نكال ،

---

(١١٠) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٩ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

وأوضح منها ما كان ذا اشكال ، بعد أن يبلغ اناه، ويقف فى طرفه مداه ، وحد له أن لا يكشف بشره الا فى حد يتعين ، وان جـــاءه فاسق أن يتبين ، وأن لا يطمع فى صاحب مال موفور ، وأن لا يسمع من مكشوف فى مستور ، وأن يسلك السنن المحمود ، وينزه عقوبته من الافراط ، وعفوه عن تعطيل الحدود ، واذا انتهت اليه قصة مشكلة أخرها الى غده ، فهو فى العقاب أقدر منه على رده ، فقد يتبين فى وقت ما لا يتبين فى وقت ، والمعاجلة بالعقوبة من المقت ، وأن يتغمد هفوات ذوى الهيات ، وأن يستشعر الاشفاق ، ويخلع التكبر فانه من ملابس أهل النفاق ، وليحسن لعباد الله تعالى اعتقاده ولا يرفض زمام العدل ولا مقاده •

وأن يعاقب المجرم قدر زلته ، ولا يعتز عند ذلته ، وليعلم أن الشيطان أغواه ، وزين له مثواه ، فيشفق من عثاره ، وسوء آثاره ، وليشكر الله تعالى على ما وهبه من العافية وألبسه من ملابســــها الضافية ، ويذكره جل وعلا فى جميع أحواله ويفكر فى المحشر وأهواله ، ويتذكر وعدا ينجز فيه ووعيدا ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، والأمير أيده الله تعالى ولى له ما عدل واقسط ، وبرىء منه إن جار وقسط ، فمن قرأه فليقف عن حده ورسمه ، وليعرف له حق قطع الشر وحسمه ؛ ومن وافقه من شريف أو مشروف ، وخالفه فى نهى عن منكر أو أمر بمعروف ، فقد تعرض من العقاب لما يذيقه وبال خبله ، ولا يحيــق المكر السىء الا بأهله وكتب فى كذا » ••

* * *

الملحــق الثـــانى

الفروق بين خطتى الشرطة والقضاء[111]

احــدها : انه يجوز لصاحب الشرطة وأمثاله : كالوالى وصاحب الأحداث أن يسمع قرف المتهوم من أعوانه ويرجع الى قولهم فى الاخبار عن سوابقه : هل هو من أهل الريب ؟ وهل عرف بمثــل ما اتهم به أم لا ؟ فإن برأوه من مثل ذلك خفت التهمة وعجل باطلاقه ، وان عرفوه بأشباهه غلظت التهمة وقويت واستعمل فيها من حـــال الكشف ما سنذكر ، وليس هذا للقضاة .

الثـــانى : يجوز لصاحب الشرطة مراعاة شواهد الحال فى قوة التهمة وضعفها ، فاذا كانت زنى ـــ مثلا ـــ وكان هو مطيعا للنساء ذا خلابة وفكاهة ، قويت التهمة ، وان كان بضده ضعفت وليس هذا للقضـــاة .

الثـــالث : لصاحب الشرطة أن يعجل حبس المتهوم للكشـــف والاستبراء ، واختلف فى مدة حبسه لذلك ، فذكر عبد الله الزبيرى من أصحاب الشافعى أن حبسه مقدر بشهر واحد ، وقال غيره بعدم تقديره ، وجلعه موقوفا على رأى الامام واجتهاده ـــ وهذا أشبه ـــ وليس للقضاة أن يحبسوا أحدا ألا بحق وجب .

الرابــع : يجوز لصاحب الشرطة ـــ مع قوة التهمة ، أن يضرب المتهوم تعزيرا لا حدا ليأخذه بالصدق عن حالة فيما اتهم به ، فإن أقر وهو مضروب اعتبرت حاله فيما ضرب عليه ، فإن ضرب ليقـــر لم يكن لاقراره أثر ، وإن ضرب ليصدق عن حاله وأقر تحت الضرب قطع ضربه واستعيد اقراره ، فإذا أعاده كان مأخوذا بالاقـــرار

---

(111) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ٢٧٣ ـــ ٢٧٥ .

الثانى دون الأول ، فإن لم يعده واقتصر على الاقرار الأول ، له أن يعمل به وان كرهه الفقهاء ، وليس ذلك للقضاة ، وحاصل هذه المسألة أن المدعى عليه بتهمة لا يخلو حاله من احدى هذه الحالات .

(أ) أن يكون بريئا ليس من أهل تلك التهمة فهذا لا يجوز عقوبته اتفاقا والصحيح معاقبة من اتهمه صيانة للأبرياء لتسلط أهل الشر عليهم .

(ب) المتهمون بالفجور كالسرقة وقطع الطريق والقتل والزنا ، فلابد من الكشف والاستقصاء عليهم بقدر تهمهم وشهرتهم بها ، وربما كان بالضرب ، والحبس دون الضرب على قدر ما اشتهر عنهم « ولا تحليفهم وارسالهم مذهبا لأحد من الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولو حلفنا كل واحد منهم وأطلقناه مع العلم باشتهاره بالفساد فى الأرض ، وكثرة سرقاته وقلنا : انا لا نأخذه الا بشاهدى عدل كان الفعل مخالفا للسياسة الشرعية ومن ظن أن الشرع تحليفه وارساله فقد غلط غلطا فاحشا مخالفا لنصوص رسـول الله ﷺ ولاجمـاع الأمـة » .

(ج) الذى لا يعرف حاله ببر ولا بفجور فاذا اتهم يحبس حتى ينكشف حاله ، والمنصوص لمالك وأصحابه : انه يحبس من طرف الولاة أو القضاة على حد سواء .

الخامس : يجوز لأصحاب الشرطة فيمن تكررت منه الجرائم ولم ينزجر عنها بالحدود أن يستديموا حبسه — اذا استفز النـاس بجرائمه — حتى يموت ، وقوته وكسوته من بيت المال ، وليس ذلك للقضـاة .

السـادس : يجوز لهم احلاف المتهم استبراء لحاله وتغليظا عليه فى الكشف عن أمره ، ولهم احلافهم بالطلاق والعتاق والصدقة وليس للقضاة احلاف أحد على غير حق ولا احلافه بغير الله ، ومشـهور مذهب مالك أن للقاضى أن يحلف المتهوم ، وأما كـون

اليمين بالطلاق فإنما ذكروها فى الوالى يأخذ الرجل شاربا فيحلفه بالطلاق وغيره حتى لا يعود اليها ، والحقوا به الوالد يحلف ولده بالطلاق وشبهه ليؤدبه ويبعده عن الفسق ، وألزموا الحالف اليمين وان كان قد أكره عليها ، وكان ابن عاصم فى الاندلس يحلف الناس بالطلاق يغلظ عليهم به ، فلما ذكروا ذلك لسحنون قال : من أين أخذ ذلك ؟ فقيل له : من قول عمر بن عبد العزز : تحدث للناس أقضيه بقدر ما أحدثوا من فجور فقال سحنون : مثل ابن عاصم يتأول .

والواقع ان الاحلاف بالطلاق ليس من التغليظ المباح لما روى عن ابن عمر — رضى الله عنهما — أن النبى ﷺ قال : « من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » ، وعنه أيضا — « من حلف بغير الله فقد كفر » ، وفى لفظ ، « من حلف بغير الله فقد أشرك » ، فلا ندرى مع هذا كيف يقول الفقهاء بجواز الحلف بالطلاق والعتاق — والاحلاف بهما — ؟ وعلى أى سند يعتمدون ؟ وبأى دليل من الكتاب أو السنة أو عمل الصحابة يستدلون » ؟

نشهد أن ليس لهم على تلك المقالة من حجة الا تقليد المتأخر لزلة المتقدم ، دعا اليها هوى الملوك والأمراء وخاصة فى البيعـــة — فتتابع الناس عليها الا من شاء الله ممن لا يصدر الا عن حجة ولا يقول فى الدين إلا بالحق ، وفى الأوائل أن أول قاض حلف الجند بالطلاق من نسائهم أن لا يهربوا هو سنان بن سلمة فى أيام معاوية .

الســـابع : لصاحب الشرطة أن يأخذ أصل الجرائم بالتوبة اجبارا وله أن يظهر من الوعيد عليها ما يقودهم اليها طوعا ، على أن لا يصل ذلك الى القتل فيما لا يجب فيه القتل ، وليس ذلك للقضاة .

الثـــامن : يجوز لأصحاب الشرطة أن يسمعوا شهادات أهل الملل ، وليس ذلك للقضاة مطلقا ، سواء كانت الشهادة على المسلمين أو على بعضهم وهو مذهب الشافعية والمالكية ، وذكر ابن القيـــم

ان الامام مالكا أجاز شهادة الطبيب الكافر حتى على المسلم للضرورة ، وقال ابن حزم : ان المالكية أجازوا شهادة طبيبين كافرين حيث لا يوجد طبيب مسلم ، ومنع الحنفية قبول شهادة غير المسلم على المسلم ، وأجازوا قبول شهادة أهل الملل على بعضهم ، وروى عن الامام الأعظم أبى حنيفة — رضى الله عنه — قبول شهادتهم على المسلمين بالوصية فى السفر للضرورة ، ومذهب الحنابلة والظاهرية عدم قبول شهادة غير المسلم مطلقا واستثنوا حالة الوصية فى السفر ويقول الزيدية : لا تقبل شهادة كافر على مسلم اجماعا ولو على وصية فى السفر لقوله ﷺ : « لا تقبل شهادة ملة على ملة الا ملة الاسلام فإنها تجوز على الملل كلها » .

* * *

الملحـــق الثـــالث

الفـــروق بين الحدود والتعـــازير[١١٢]

أحـــدها : إن التعزيز غير مقدر فهو عند المالكية بحسب الجناية والجانى والمجنى عليه ، وقال أبو حنيفة لا يجاوز به أقل الحدود ، وهو أربعون ، والشافعى يقول لنا اجماع الصحابة ، قال رسول الله ﷺ : « لا تجلدوا فوق عشر فى غير حدود الله تعالى » .

ثانيهـــا : ان الحدود واجبة التنفيذ والاقامة على الأئمـــة ، واختلفوا فى التعزير ، قال مالك وأبو حنيفة : إن كان لحق الله تعالى وجب كالحدود الا أن يغلب على ظن الامام ان غير الضرب مصلحة ، من الملامة والكلام .

وقال الشافعى : غير واجب ، على أن الامام ان شاء أقامه وان شاء تركه ، ولأنه غير مقر فلا يجب كضرب الأب والمعلم والزوج ، وقد يجب كنفقات الزوجات والأقارب ، ونصيب الانسان فى بيت المال غير مقدر فهو واجب .

ثالثهـــا : ان الحدود وان جرت على الأصل والقاعدة من اختلاف العقوبات باختلاف الجنايات ، من جهة أن الشرع جعل حد الزنا مائة ، وحد القذف ثمانين ، وحد السرقة القطع ، وحد الحرابة القتل ، إلا أنها جرت على خلاف الأصل المذكور فى مسائل منها : انه سوى بين الجرح اللطيف والعظيم فى القصاص مع تفاوتها ، ومنها انه سوى بين قتل الرجل الصالح التقى الشجاع البطل مع الوضيع ، وسوى بين سرقة دينار ، وسرقة ألف دينار ، وبين شارب قطرة من الخمر وشارب جرة مع اختلاف مفاسدها ، وأما التعزير فهو على وفق الأصل المذكور أبدا .

رابعـــا : من الفروق : ان التعزير تأديب يتبع المفاسد وقـــد

---

(١١٢) القـــرافى : الفروق ، جـ ٤ ، ص ١٧٧ — ١٨٣ (الفرق ٢٤٦) .

لا يصحبها العصيان فى كثير من الصور ، كتأديب الصبيان والبهـائم والمجانين استصلاحا لهم مع عدم المعصية ، واما الحدود المقدرة فلم توجد فى الشرع الا فى معصية .

خامسها : ان التعزير قد سقط وان قلنا بوجوبه ، قال امـام الحرمين : « اذا كان الجانى من الصبيان أو المكلفين قد جنى جناية حقيرة والعقوبة الصالحة لها لا تؤثر فيه ردعا ، والعظيمة التى تؤثر فيه لا تصلح لهذه الجناية سقط تأديبه مطلقا » .

سادسـها : إن التعزير يسقط بالتوبة ما علمت فى ذلك خلافا ، والحدود لا تسقط بالتوبة على الصحيح إلا الحرابة لقوله تعالى : « إلا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم » .

سـابعها : ان التخيير يدخل فى التعازير مطلقا ولا يدخل فى الحدود الا فى الحرابة .

ثامنهـا : ان التعزير يختلف باختلاف الفـاعل والمفعول به والجناية ، والحدود لا تختلف باختلاف فاعلها ، فلابد فى التعـزير من اعتبار مقدار الجناية والجانى والمجنى عليه .

تاسـعها : ان التعزير يختلف باختلاف الأعصار والأمصار ، فرب تعزير فى بلد يكون اكراما فى بلد آخر ، كقلع الطيلسان بمصر تعزير ، وفى الشام اكرام ، وكشف الرأس عند أهل الاندلس ليس هوانا ، وبالعراق ومصر هوان .

عاشرها : ان التعزير يتنوع لحق الله تعالى الصرف كالجنـاية على الصحابة أو الكتاب العزيز ، ونحو ذلك ، والى حق العبد الصرف ، كشتم زيد ونحوه والحدود لا يتنوع منها حد بل الكل حق الله تعالى الا القذف مع خلاف فيه ، وأما أنه تارة يكون حدا حقا لله تعالى وتارة يكون حقا لآدمى فلا يوجد البتـة .

* * *

المصـــادر والمراجــع

أولا : المصـــادر والمراجع العربيـــة :

آدم مــتز :

١ ــ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٦٧ م .

ابن الابار : محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨ هـ)

٢ ــ الحلة الســيراء ، تحقيق د. حســين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣ .

أحمــد شـــلبى :

٣ ــ السياسة والاقتصاد فى التفكير الاسلامى ، مكتبــة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٧ م .

السيد عبد العــزيز ســالم :

٤ ــ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة فى قرطبة ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٨٢ م .

التنوخى : أبو على المحســن (٨٤٢ هـ) :

٥ ــ نشوار المحاضرة ، مطبعة ابن زيدون ، دمشق ١٣٤٨ هـ .

٦ ــ الفرج بعد الشدة ، دار الطباعة المحمــدية ، القاهرة ١٣٧٥ هـ .

ابن تيمية : تقى الدين (ت ٧٢٨ هـ) :

٧ ـــ السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ، دار الكتاب العربى بمصر ١٩٥١ م .

الجصـــاص : أبو بكر الرازى (ت ٣٧٠ هـ) :

٨ ـــ أحكام القرآن ، المطبعة البهية المصرية ١٣٤٧ هـ .

ابن الجوزى : جمال الدين أبو الفرج (ت ٥٩٧ هـ) :

٩ ـــ ذم الهوى ، المطبعة المصرية بالأزهـــر ١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م .

ابن حجر : أحمد بن على (ت ٨٥٢ هـ) :

١٠ ـــ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة ١٣٨٠ هـ .

ابن حزم : على بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ) :

١١ ـــ جمهرة أنساب العرب ، تحقيـــق ليفى بروفنسال ، دار المعارف بمصر .

١٢ ـــ المحلى ، تحقيق محمد منير الدمشقى ، ادارة الطباعة المنيرية ١٣٥٢ هـ .

حســـــين مؤنس :

١٣ ـــ غارات النورمان على الأندلس ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، المجلد الثانى ، العدد الأول ١٩٤٩ م .

١٤ ـــ فجر الأندلس ، الشركة العربيـــة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٥٩ م .

الحميــدى : محمد بن فتــوح (ت ٤٨٨ هـ) :

١٥ ـــ جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، مكتبة نشر الثقافة الاسلامية ، القاهرة ١٣٧٢ هـ •

الحميرى : أبو عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجى (جمعة سنة ٨٦٦ هـ)

١٦ ـــ الروض المعطار فى خبر الأقطار ، القاهرة ١٩٣٧ م •

ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف القرطبى (ت ٤٦٩ هـ) :

١٧ ـــ المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، تحقيق عبد الرحمن على الحجى ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٥ م •

١٨ ـــ المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق د• محمود على مكى ، بيروت ١٩٧٣ •

ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبد الله محمد (ت ٧٧٦ هـ) :

١٩ ـــ أعمال الاعلام من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، تحقيق وتعليق ليفى بروفنسال ، بيروت ، دار المكشوف ١٩٥٦ م •

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) :

٢٠ ـــ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٧٥ م •

٢١ ـــ المقدمة ، تحقيق أ• حجر عاصى ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨٨ م •

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) :

٢٢ ـــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، مكتبة النهضـــة المصرية ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٩ م •

الزبيدى : محب الدين محمد مرتضى (ت ١٢٥٠ هـ) :

٢٣ ــ تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ .

الزمخشرى : جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ) :

٢٤ ــ أســـاس البلاغة ، دار الكتب المصرية ، القـــاهرة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٢ م .

الســبكى : تاج الــدين (ت ٧٧١ هـ) :

٢٥ ــ معيد النعم ومبيد النقم ، المطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم بمصر .

ســعيد عبد الفتـــاح عاشـــور :

٢٦ ــ أوروبا العصور الوسطى ، جزءان ، مكتبـــة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧١ م .

ابن سعيد : أبو الحسن على بن موسى بن عبد الملك (ت ٦٨٥ هـ) :

٢٧ ــ المغرب فى حلى المغرب ، جزءان ، تحقيق وتعليـــق د. شـــوقى ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م .

السمانى : أبو القاسم على بن محمد بن أحمد (ت ٤٩٩ هـ) :

٢٨ ــ روضة القضاة وطريق النجاة ، تحقيق د. صاح الدين الناهى ، بغداد ١٩٧٠ م .

ســـيد أمير عـــلى :

٢٩ ــ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ، ترجمة عفيف البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٧ م .

ابن ســـيده : أبو الحسن على بن اسماعيل (ت ٤٥٨ هـ) :

٣٠ ــ كتاب المخصص ، بيروت ، المكتبة التجارية ١٩٦٧ م .

السـيوطى : جلال الدين (ت ٩١١ هـ) :

٣١ ــ تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م •

شـكيب أرسـلان :

٣٢ ــ الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية ، بيروت ، دار مكتبـة الحياة •

ابن طباطبا : محمد بن على (ت ٧٠٩ هـ) :

٣٣ ــ الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسـلامية ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م •

ابن عبد السلام : عز الدين (ت ٦٦٠ هـ) :

٣٤ ــ قواعد الأحكام فى مصالح الأنام ، راجعه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهـرية ، مصر ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م •

ابن عبدون التجيبى : (ت فى القرن الخامس الهجرى) :

٣٥ ــ رسالة فى الحسبة ، نشر ليفى بروفنسـال ، المجـلة الآسيوية ، جوان ١٩٣٤ م •

ابن عذارى : المراكشى (ت ٦٩٥ هـ) :

٣٦ ــ البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، مكتبـة صادر ، بيروت ١٩٥٠ م •

عـلى حـلمى :

٣٧ ــ الشرطة والأمن بمصر ، العصر الفرعونى ، مكتبـة الأنجلو المصرية •

ابن فرحون : برهان الدين ابراهيم (ت ٧٩٩ هـ) :

٣٨ ــ تبصرة الحكام ، مطبعة السعادة بمصر •

ابن الفرضى : أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣ هـ) :

٣٩ ــ تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦ م •

القرافى : أحمد بن ادريس (ت ٦٨٤ هـ) :

٤٠ ــ الفروق : دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٤٤ هـ •

القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ) :

٤١ ــ صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، دار الكتب الخديوية بمصر ١٩١٤ م •

ابن القيم : الجوزية (ت ٧٥١ هـ) :

٤٢ ــ الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م •

الماوردى : أبو الحسن على بن محمد (ت ٤٥٠ هـ) :

٤٣ ــ الأحكام السلطانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥ م •

محمد عبد الله عنان :

٤٤ ــ دولة الاسلام فى الأندلس ، عصر الخلافة والدولة العامرية ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٦٩ م •

المقرى : شهاب الدين أحمد بن محمد التلمسانى (ت ١٠٤١ هـ) :

٤٥ ــ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق

محيى الدين عبد الحميــد ، مطبعــة السعادة بمصر ١٩٤٩ م .

ابن منظور : جمال الدين بن مكرم (ت ٧١١ هـ) :

٤٦ ــ لسان العرب ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر (بدون تاريخ) .

ثانيــا : المراجــع الأجنبيــة :

— **DOZY (R) :**

1 — Dictionnaire detaille des noms des vetements chez les Arabes, Amsterdam, 1845.

2 — Recberches sur l'Histoire et la litterature de l'Espagne pendant le Moyen age. Paris, 1881.

3 — Spanish Islam, Translated with a biographical Introductional Notes by Francis Griffin Stockes, London, 1913.

— **Mawer (A) :**

4 — The Vikings. Cambridge, 1930.

— **Reinaud :**

5 — Muslim Colonies, London, 1952.

— **Thompson (J. W.) :**

6 — The Middle Ages, London, 1931.

— **Walter :**

7 — Les Institutions de Police chez les arabes, les parsans, et les Turcs, le Journal Asiatique, No. 16. 1960.

الدور السياسى للفهريين فى الأندلس
منـــذ الفتح العـــربى حتى أواخـــر
عهـــد عبد الرحمن الداخـــل
(٩٦ ـــ ١٦٣ هـ)

د. محمد عبد الباسط محمد حســـين
أستاذ التاريخ الاسلامى المســـاعد
كلية المعلمين ـــ مكة المكرمة

تمهيـــــد : فى الفتـــح العـــربى الأندلس

ظلت الأندلس[1] تحت الحكم الرومانى إلى أن أغارت عليهـــا قبائل « الوندال » فى القرن الخامس الميلادى ، ثم فى أوائل القرن السادس الميلادى سنة ٥٠٧ أغار على الأندلس قبائل القوط الغربيين وطردوا الوندال[2] الى أفريقية وكونوا لهم دولة قوية فى الأندلس

---

(١) المراد بلفظ الاندلس اسبانيا الاسلامية بصفة عامة ، وكلمـــة الاندلس اشتقها العرب من كلمة « واندلوس » وهى اسم قبائل الوندال الجرمانية وبعد سقوط مملكة غرناطة وانتهاء الحكم الاسلامى من اسبانيا سنة ١٤٩٣ م اطلق الأسبان اسم « اندالوثيا » على الولايات الجنوبية الاسبانية وهى المنطقة التى تشمل حتى اليوم ولايات قرطبة واشبيلية وغرناطة .

« انظر احمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والاندلسى ، ص ٢٢٧ » .

ويذكر صاحب « الروض المعطار » بأن العرب لم يستعملوا اسم اسبانيا للاشارة الى شبه الجزيرة المعروفة بهذا الاسم وانما اطلقوا اسم الاندلس على شبه الجزيرة كلها . انظر : الحمـــيرى ، ص ١ .

(٢) لقد كان القوط احدى القبائل او الشعوب البربرية التى نزحت

=

غير أن أمرهم ما لبث أن ضعف وسرت فيهم روح التخاذل . فقد قسم الأشراف ورجال الدين البلاد إلى مقاطعات كبيرة وسكنوا القصور الفخمة كما وانصرفوا الى الملذات وعاملوا عبيدهم وخولهم بالعسف[٣] .

واتخذ القسس من وراء هذه القوة التى وصلوا إليها سبيلا لإضطهاد اليهود الذين كانوا يشكلون طائفة كبيرة العدد فى الأندلس ، كما صدرت هناك الأوامر المشددة ضد كل من امتنع عن الدخول فى المسيحية[٤] فكانت الكنيسة منذ أن اشتد ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود . ففى عصر الملك « سيسفوط » فرض التنصير على اليهود أو النفى أو المصادرة . فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها ورياء فى سنة ٦١٦ م . ثم توالت عليهم صنوف الإيذاء والاضطهاد والمحن ولا سيما فى عهد الملك « إجيكا » الذى اشتط فى معاقبتهم . فقد كان لا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية وينزع أبناؤهم منذ السابعة ، ويربون على دين النصرانية ، وألا يتزوج عبد يهودى إلا بجارية نصرانية ، ولا تتزوج يهودية إلا بنصرانى[٥] .

=

من شمال أوربا ، وكانوا يسكنون حتى أواخر القرن الثانى الميلادى شواطىء البلطيق الجنوبية . أما الوندال فكانت قبائل عديدة منهم تسكن على ضفاف نهر « أودر » كما أن هناك من المشابهات بين القوط والوندال ما يدل على أنهما يرجعان فى الأصل الى شعب أو جنس واحد . انظر محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ، ج ١ ، ص ٢٨ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسى ، ج ١ ، ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(٤) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٥) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ، ج ١ ، ص ٣١ ، ٣٢ .

وكان إلى جانب اليهود فى بلاد الأندلس العديد من الطبقات التى تعانى الكثير من نير ذلك الحكم القوطى الجائر الذى استمر زهاء قرنين من الزمان • فكانت هناك الطبقة الوسطى التى تعانى من ضنك العيش أسوأ مما كان يعانيه العبيد • فقد كان يقع على كاهلهم الإنفاق على الدولة • فهم الذين يؤدون الضرائب ، ويجمعون الأموال للأغنياء • مما أدى إلى انهيار هذه الطبقة وإفلاسها • أضف إلى ذلك الطبقة الدنيا التى شملت العبيد[٦] وكانت هذه الطبقة أكثر عددا من الطبقات السابقة ، وأقل حقوقا ، ومعظم أفرادها يشتغلون فى مزارع النبلاء ورجال الدين ولذا فهم مرتبطون بالأرض التى يشتغلون فيها وملك لصاحبها[٧] • تلك هى حال بلاد الأندلس فى الوقت الذى كان أهل شمال أفريقية يتمتعون بحكم العرب وينعمون بعدلهم • إذا فلا عجب إذا ما تمنى شعب الأندلس وخاصة اليهود والعبيد الخلاص من نير الحكم القوطى الجائر •

وصل العرب إلى سواحل المحيط الأطلسى وأفريقية ، ورأوا « مضيق هرقل » ورنوا بأبصارهم الى ولايات أسبانيا المشرقة[٨] • فى وقت كان قد احتدم فيه الشقاق بين الكونت « يوليان » حاكم سبتة من قبل القوط و « لذريق » ملك أسبانيا مما مهد الطريق للعرب لأن يتمكنوا من فتح تلك البلاد[٩] •

فقد تحالف الكونت يوليان مع حزب « أخيلا » — حاكم طنجة — للتخلص من لذريق لما كان يضمره له من العداء بسبب سوء سلوكه

---

(٦) لينول : العرب فى اسبانيا ، ص ٥ — ٦ ، ٨ .

(٧) احمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٥٢ .

(٨) Dozy : the moslems in Spain. p. 231.

(٩) لينول : العرب فى أسبانيا ، ص ٤ .

(١٠) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

مع ابنيه — ووجد فى جيوش البربر والعرب فى شمال أفريقيا خير معين لتحقيق أهدافه فقد زار يوليان موسى بن نصير وكلمه فى غزو الأندلس ووصف له حسنها وفضلها — وهون عليه حال رجالها مما شوق موسى بن نصير لفتح تلك البلاد(١٠) فاستشار الوليد بن عبد الملك فى ذلك فأشار عليه الوليد بأن يختبرها بالسرايا ولا يغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال(١١) .

وتنفيذا لأمر الخليفة قام موسى بن نصير بعدة غارات إستطلاعية على جنوب الأندلس لجس النبض .. فاستدعى فى بادىء الأمر حليفه ومحرضه على غزو بلاد الاندلس الكونت يوليان حاكم سبتة وقال له : « إننا لا نشك فى قولك ولا نرتاب غير أننا نخاف على المسلمين من بلاد لا يعرفونها ، وبيننا وبينها البحر ، وبينك وبين الملك لذريق حمية الجاهلية واتفاق الدين ، فجز اليه بنفسك وشن الغارة على بلاده ، واقطع ما بينك وبينه ، وإذ ذاك تطيب النفس عليك ، ونحن من ورائك إن شاء الله » فانصرف يوليان وحشد جيوشه وجاز فى مركبين الى الأندلس ، وشن الغارة على الساحل الجنوبى ، فسبا وقتل ، وغنم ورجع وقد امتلأت أيديهم خيرا ، وشاع الخبر فى كل قطر فتحمس الناس للغزو(١٢) .

ولم يكتف موسى بن نصير بهذه الغارة الاستطلاعية التى قام بها يوليان ، بل استدعى ضابطا من ضباطه يدعى طريف بن مالك ، وأمره بشن الغارة على ساحل أسبانيا الجنوبى ، فعبر طريق المضيق فى مائة فارس وأربعمائة راجل ، وذلك فى رمضان سنة ٩١ه وهناك فى المكان المعروف باسمه حتى اليوم ، نزل طريف وجنوده وأغاروا على

---

(١١) الحميرى : الروض المعطار ، ص ٨ .

(١٢) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، ص ١٠ .

المناطق التى تليها الجزيرة الخضراء وأصاب سبيا ومالا كثيرا ورجع سالما[١٣] .

قد شجع نجاح طريف فى هذه الغزوة موسى بن نصير على فتح أسبانيا فندب لهذا الأمر الخطير مولاه طارق بن زياد ، فأمتثل طارق أمره وركب البحر إلى الجزيرة الخضراء[١٤] .

لما علم لذريق بزول العرب فى أرض أسبانيا جمع جيشا مزودا بكامل العدة والسلاح . ولكن لم يثن هذا من عزيمة طارق ابن زياد ، ويضعف من إيمانه بالنصر ، بل أخذ يفتح القلاع والمدن[١٥] كما بعث إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد فأمده بجيش « وادى لكة » وقد أخذ هو وجنده يحملون على العدو حتى تم لهم النصر ، ثم ما لبث أن هجم طارق على لذريق فضربه بسيفه فقتله ، ومما ساعد على انتصار جيش طارق بن زياد انحياز أبناء غيطشة وأنصارهم إلى العرب[١٧] .

وتشير بعض المصادر العربية بأن أهل الأندلس ما أن تسامعوا « بالفتح على يد طارق حتى اقبلوا نحوه من كل صوب ، وخرقوا البحر على كل ما قد مروا عليه من مركب وقشر فلحقوا بطارق ، وارتفع أهل الأندلس عند ذلك بالحصون والقلاع وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال »[١٨] .

---

(١٣) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

(١٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ٤٠٣ .

(١٥) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

(١٦) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١١٣ — ١١٤ .

يذكر صاحب كتاب الامامة والسياسة أن طارق ابن زياد كتب الى مولاه موسى يقول « ان الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث ! » ابن قتيبة ، جـ ٢ ، ص ١١٨ .

(١٧) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١١٧ ، ١٢١ — ١٢٢ .

(١٨) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٦٣ .

لمـــا بلغ موسى بن نصير ما حققه طارق بنزياد من نصر عظيم فى بلاد الأندلس عبر الجزيرة الخضراء بمن معه ولحق بمـــولاه طارق وقال له : « لن يجازيك الوليد به عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك الأندلس — فاستبحه هنيئا مريا ، فقال له طارق : أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم أنته الى البحر المحيـــط »(١٩) .

فى الواقع أن موسى بن نصير كان يعمل مع طارق بن زياد منذ نزوله للأندلس فقد عبر موسى الأندلس فى رمضان سنة ٩٣ هـ ، واستصحب معه ثمانية عشر ألفا من خيرة جنده جلهم من العرب ، وفيهم عدد من القيسية واليمنية(٢٠) .

وكان هؤلاء العرب الذن ذهبوا مع موسى بن نصير هم الجماعة الكبيرة الأولى من مهاجرى العرب للاندلس ويعرفون عند المؤرخين بطالعة موسى ، وستكون لهم الصدارة بين مسلمى الأندلس زمنا طويلا وسيكون لهم الدور البناء فى سير الأحداث(٢١) .

وهكذا سار موسى بن نصير وطارق بن زياد جنبا الى جنب لفتح بلاد الأندلس واستمرا فى السير قدما حتى بلغا جبال البرانس .

وعندما خلف عبد العزيز بن موسى بن نصير أباه فى ولاية الأندلس سنة ٩٦ هـ نظم الحكومة ، ورفع عن الأسبان مظـــالم الغوط ، وبالغ فى ارضاء المسيحيين لذا نقم عليه بعض أعدائه فوشوا به عند الخليفة سليمان بن عبد الملك فأثار جند الأندلس وأوغر صدورهم عليه قتلوا بعد أن حكم هذه البلاد زهاء سنتين(٢٢) .

---

(١٩) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٥١ .

(٢٠) الضـــبى : بغية الملتمس ، ص ٥١ .

(٢١) حسين مؤنس : فجر الاندلس ، ص ٩١ .

(٢٢) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٧٠ .

أولا : الوضع السياسى للفهريين فى عصر الولاة :

بعد مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير أقام الجند قائدهم أبا أيوب بن حبيب الفهرى ابن أخت موسى بن نصير — واليا على الأندلس ، فأخذ يطوف البلاد وينشر العدل فى أرجائها . غير أن مدة ولايته لم تستمر مدة طويلة . فقد عزل لعدم موافقة والى أفريقية على تعيينه فخلفه الحر إبن عبد الرحمى الثقفى سنة ٩٧ هـ .

لم يحقق موسى بن نصير فكرته التى كانت ترمى إلى فتح جنوبى أوروبا إذ لم تتعد فتوح العرب جبال البرانس ، وظل الأمر كذلك حتى ولى عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولانى (١٠٠ — ١٠٢ هـ) بلاد الأندلس ، فجدد عهد الفتوح واخترق جبال البرانس ولكن ما لبثت أن نشبت هناك معركة عظيمة بين كل من جند السمح وجند « اليتانيا » قتل فيها السمح وأكثر رجاله ، فتولى عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقى قيادة الجند فوطد النظام فى أرجاء البلاد ، ثم تفرغ للقتال فى بلاد « غالة » ولكن ما لبث « شارل مارتل » أن جمع جيشا ضخما لقى به العرب على مقربة من « بواتيه » حيث دارت بينهم الموقعة المشهورة بموقعة « بلاط الشهداء »(٢٣) .

وبعد مناوشات بين الطرفين كاد النصر يتم فيها للعرب لولا أشيع من أن العدو استولى على ما خلفوه من غنائم ، فأسرع الجند لحمايتها فوقع الاضطراب فى صفوفهم وأصيب عبد الرحمن الغافقى بسهم أودى بحياته فتفرقت كلمة العرب(٢٤) .

تعتبر هذه الموقعة من المواقع الحاسمة فى تاريخ العرب ، إذ لو تم النصر فيها للعرب لوقعت كل أوروبا فى قبضتهم وانتشر الاسلام فى أرجائها . بل لم يحاول العرب بعد هذه الموقعة

---

(٢٣) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٢٤) حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسى ، جـ ١ ، ص ٣٢١ .

الاستيلاء على بلاد الفرنجة إنما أخذوا يتراجعون الى بلاد الأندلس قد أثار هذا الحدث الجلل نفس هشام بن عبد الملك أيما اهتمام بشئون الأندلس ومصير الاسلام فى الغرب ، فاختار عبد الملك بن قطن الفهرى واليا للأندلس ، وأمره أن يعمل على حماية شبه الجزيرة ، وتوطيد هيبة الاسلام فى تلك الأرجاء . فعبر عبد الملك الى أسبانيا فى جيش منتخب من جند أفريقية فى أواخر سنة ١١٤ هـ(٢٥) وكان ثوار المقاطعات الشمالية قد انتهزوا فرصة مقتل عبد الرحمن الغافقى وإنحلال جيشه ، وحاولوا أن ينزعوا عنهم نير الإسلام ، فسارع عبد الملك الى الثغر الأعلى « أرجوان » وهزم الثوار فى عدة مواقع ، ثم عبر البرنية الى البسكونية سنة ١١٥ هـ التى كانت دائما من أشد المقاطعات الجبلية مراسا وأكثرها خروجا وانتقاضا فعاث فيها وشتت جندها حتى ألجأهم إلى طلب الصلح(٢٦) ثم سار الى « لانجدوك » التى كان الفرنج منذ موقعة بلاط الشهداء يتطلعون الى استردادها ويكثرون الإغارة عليها . فنظم حامياتها وحصن قواعدها ، ثم أغار على أرض « اكوتين » وعاث فيها فاعترضه « الدوق أدوردة » إلا أن عبد الملك لم يخاطر حينئذ بالتوغل فى أرض الفرنج نظرا لصغر جيشه ، بل ارتد الى الجنوب ، ولكنه أثناء عبوره « جبال البرنية » هاجمته « العصابات البسكونية » فأصابته أثناء قتالها خسارة كبيرة ، لذا عاد إلى قرطبة دون أن يتمكن من اخضاعها .

لم يطل عهد عبد الملك بن قطن الفهرى بعد عودته ، فقد كان شديد الوطأة كثير الظلم والبطش(٢٧) لذا سخط الزعماء واولوا الرأى . ودب الخلاف بين القبائل وبدت بوادر الفتنة أضف الى

---

(٢٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٦٤ — سيد امير على : مختصر تاريخ العرب ، ص ١٥٢ .

(٢٦) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٨ .

(٢٧) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١١٠ .

هذا أنه لم يوفق فى اخماد الثورة فى الولايات الشمالية وتوطيد سلطان الاسلام فيها ، فعزل فى رمضان سنة ١١٦ هـ وأختار عبيد الله ابن الحبحاب عامل أفريقيا مكانه لولاية الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى فدخلها فى شوال سنة ١١٦ هـ • وكان عقبة من طراز عبد الرحمن الغافقى جنديا عظيما ، نافذ العزم ، كثير العدل والتقوى • لذا اعتزم أن يوطد سلطان الاسلام فى الولايات الشمالية وفى غاليس « فرنسا » إلا أنه اصطدم حين عبوره البرنية الى الاندلس بعصابات قوية من البسكونيين والقوط حاولت بتحريض الفرنج أن تسدد دونه ممرات الجبال فتكبد فى تمزيقها بعض الخسائر ولكنه ارتد بجيشه سالما الى قرطبة • وكان هذا اللقاء الأخير بين العرب والفرنج فى سهول الرون سنة ١٢١ هـ ، ثم توفى عقبة بن الحجاج بعد ذلك فقدمت الجماعة مكانه عبد الملك بن قطن الفهرى • فولى الأندلس للمرة الثانية ، وقيل بل ثار ابن قطن على عقبة فى سنة ١٢٢ هـ فى جمع كبير من أنصاره وانتزع ولاية الأندلس لنفسه(٢٨) •

فكان هذا الانقلاب بالنسبة للاندلس فاتحة عهد جديد من الاضطرابات والفتن والحروب الأهلية المتصلة بين العرب والبربر والتى كانت على أشدها فى المغرب الأقصى حتى اذا ما هزم من جراء ذلك الجيش العربى فى مفازة طنجة للمرة الثالثة ، وقتل كلثوم ابن عياض والى أفريقية ومعظم قواده ، وفر بلج بن بشر فى بقية من جند الشام الى سبتة وامتنع بها فطاردهم البربر وشددوا عليهم الحصار حتى جهدوا واشرفوا على الهلاك استغاث بلج وزملاؤه بعبد الملك بن قطن الفهرى ورجوه أن يعاونهم على العبور الى الأندلس •

ولما كان عبد الملك مضربا ، وقد شهد موقعة الحرة وما ارتكبه جند يزيد بن معاوية من إراقة دماء المسلمين ، ويبغض بالتالى

---

(٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٥ ، ص ٢٨ — ٢٩ .
ابن لخدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ١١٩ .

الشاميين ويخشى مطامعهم أبى اغاثتهم فى بادىء الأمر • إلا أن الأحداث اضطرته بعد هذا اضطرارا لأن يستدعى بلج ومن معه ذلك أن ثورة البربر فى الأندلس كان لها أكبر صدى • إذ تحرك البربر فى معظم الأقاليم الشمالية وعصفت بالأندلس ريح ثورة بربرية دينية سياسية كتلك التى عصفت بأفريقية واضطرمت الثورة بالأخص فى « جليقية » و « ماردة » و « قورية » و « طلبيرة » وحشد الثوار جموعهم واختاروا لهم إماما ، واعتزموا الزحف على طليطلة ، وقرطبة ثم الجزيرة ليمهدوا للبربر سبيل القدوم الى أسبانيا ومعاونتهم على سحق العرب • كما استطاع البربر وهم فى شدة عنفوان ثورتهم أن يهزموا كل الحملات التى وجهها ابن قطن لإخضاعهم •

وهنا ارتاع ابن قطن وذكر فى الحال أن يستعين بجند الشام المحصوريين فى سبتة وهم زهاء عشرة آلاف ، فكتب الى بلج بن بشر يدعوه الى معاونته ، واشترط عليه للعبور الى الأندلس مغادرتها متى صلحت حال جنده ، وانتهت الثورة •

قبل بلج بن بشر هذه الشروط ، وقدم الرهائن من أصحابه لتنفيذ هذا الميثاق ومن ثم عبر هو وأصحابه الى الأندلس سنة ١٢٣ هـ وانضموا الى قوات ابن قطن بقيادة ولديه أمية وقطن • والتقت تلك القوات بالبربر أولا عند « شذونة » فهزم البربر وأصاب الشاميون منهم غنائم كثيرة • ثم وقع بعد ذلك القتال فى ظاهر قرطبة مع جموع البربر الزاحفة عليها ، فهزموا أيضا بعد مقاومة شديدة ثم هزم البربر للمرة الثالثة فى وادى « سليط » على مقربة من طليطلة وكانوا قد بدأوا حصارهم • وبذلك سحقت الثورة ومزق البربر فى كل مكان وانتعش بلج وأصحابه وقويت نفوسهم واشتدت شوكتهم[٢٩] •

---

(٢٩) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٩ .

عندئذ طالب ابن قطن بتنفيذ الميثاق وجلاء الشـــاميين عن الأندلس متوجسا من بقائهم ، فكان نتيجة ذلك أن نادى الشاميون بخلع ابن قطن وتولية « بلج ابن بشر » وانحازت إليه اليمانية . ولم يكتف بذلك بل وثب بلج ابن بشر هو وأصحاب عبد الملك بن قطن الفهرى وهو فى قلة من جنده ، فقضوا عليه بقصر قرطبة فقتلوه وصلبوه ، ومثلوا بجثته ، ثم تم الأمر بعد ذلك لبلج ابن بشر حيث ولى إمارة الأندلس فى أوائل ذى العقدة سنة ١٢٣ هـ[٣٠] .

إلا أن الفتنة لم تنته بعد فإن أمية وقطن ابنى عبد الملك فرا الى الشمال وحشدا جموعا من سرقسطة ، وأزرهما البلديون « العرب المحليون » والبربر وبذلك أنقسمت الأندلس الى معسكرين كبيرين . معسكر الشاميين الميمنيين على الحـكم ومعسكر العـرب والبربر المحليين فعظمت بعد ذلك الفتنة واشتد الاضطراب وسار أمية وقطن وأنصارهما الى قرطبة لقتال الشاميين فى جيش قدر بنحو مائــة ألف ، والتقى الفريقان على مقربة من قرطبة فى شوال سنة ١٢٤ هـ ونشبت بينهما معارك شديدة انتهت بمقتل بلج بن بشر وانتصـــار الشاميين على البلديين انتصارا باهرا ، ومن ثم عادوا ظافرين فتولى الإمارة ثعلبة بن سلامة[٣١] وقبض على زمام الأمور بحزم إلا أن سلطان الحكومة كان قد تضعضع وأنقسمت الأندلس الى مناطق عديدة النفوذ ، وأصبحت الغلبة لجماعة من الزعماء الخارجين على حكومة قرطبة مثل أمية وقطن ابنى عبد الملك ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، واستمر هذا الفريق يؤازر سواد العرب المحليين والبربر ولم تمض أشهر قلائل حتى اضـطرمت الحرب مرة أخـرى بين الفريقين المتنازعين ومن ثم قدم الى قرطبة حاكم جديد للاندلس

---

(٣٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٢٢٠ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٩١.

(٣١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٩٦ .

هو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى بعثه حنظلة بن صفوان والى أفريقية إجابة لجماعة من زعماء الاندلس خشوا عواقب الفتنة ، وما قد تؤدى اليه من استظهار نصارى الشمال واغارتهم على الأراضى الاسلامية(٣٢) .

وعندما قدم أبو الخطار الى الأندلس قبض على زمام السلطة وأفرج عن الأسرى والسبايا(٣٣) وتتبع الزعماء الخارجين . فقبض على ثعلبة ونفاه الى افريقية مع نفر من زملائه . فى حين أعلن كل من أمية وقطن ابنا عبد الملك الطاعة وتفاهما معه فولاهما الحكم فى بعض الولايات الشمالية . أما عبد الرحمن بن حبيب الفهرى فاستطاع أن يتقى المطاردة ففر الى تونس .

وحدث أن اعتدى أبو الخطار على زعيم من زعماء المضرية بالإهانة والضرب وهذا الزعيم هو « الصميل ابن حاتم بن شمر ذى الجوشن ، وكان من بين أشراف الشام الذين انتظموا فى جيش بلج بن بشر ، ثم جاز معه الى الأندلس(٣٤) أضف الى ذلك أنه كان فارسا شجاعا وزعيما ذا نجده فالتفت حوله المضرية وبعض اليمنية من خصوم أبى الخطار ومنافسيه ولذا عندما اعتدى عليه أبو الخطار بعث الى قومه فى مختلف الأنحاء وأيدته المضرية وحلفاءوهم فى الخروج وتفاهم مع باقى الزعماء الناقمين على أبى الخطار ومنهم ثوابة بمحاربة أبى الخطار فزحف بجموعه على قرطبة فلقيه أبو الخطار بقواته فى « شذونه » على ضفاف « وادى لكة » فى رجب

---

(٣٢) اخبار مجموعة ، ص ٤٥ .

(٣٣) ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ٤٦ .

(٣٤) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٦٢ لقد عمد ابو الخطار الى الصميل فاكره وشتمه وأمر جنده ان يضربوه حتى مالت عمامته من على راسه ويقال ان سبب هذا العداء الذى كان يكنه ابى الخطار للصميل هو تخوفه منه لأن امر القيسية كان قد انتهى اليه وفاقهم بالنجدة والسخاء فتوجس منه شرا ، فجر الاندلس ، ص ٢٢٣ .

سنة ١٢٧ هـ ونشبت بين الفرقين معارك شديدة أنتهت بهزيمة أبى الخطار وأسره . ودخل ثوابة قرطبة ، وارتضته المضرية أميرا للاندلس مكان أبى الخطار ووافق عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أمير أفريقية على هذا الاختيار(٣٥) ولم يمض سوى قليل حتى توفى ثوابة فى أوائل سنة ١٢٩ هـ بعد أن حكم الاندلس زهاء عام ونصف وهنا نشب الخلاف بين الزعماء والقبائل مرة أخرى وأصر اليمنية على أن يكون الأمير منهم خلفا لأميرهم المتوفى ، وأصر الصميل أن يكون الامير من المضرية ، واشتد النزاع بين الفريقين ووقعت بينهما مصادمات ومعارك عديدة ولبثت الاندلس بضعة أشهر دون أمير رسمى ، وتولى الأحكام فيها عندئذ عبد الرحمن بن كثير اللخمى باتفاق الفريقين ولما تفاقم الخلاف ، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية اتفقوا على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أحد زعماء المضرية ، فولى إمارة الاندلس فى ربيع الثانى سنة ١٢٩ هـ(٣٦) .

وكان المتفق عليه بين اليمنية والمضرية أن يتعاقبا فى الولاية فيمكث يوسف عاما فقط ثم يرد الأمر الى اليمنية(٣٧) إلا أن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى لم يفكر بعد أن ظفر بالامارة أن ينزل عنها طائعا مختارا ، بل بادر منذ البداية الى استخلاص جميع السلطات لنفسه ، وهنا ظهر أبو الخطار الأمير المعزول على مسرح

---

(٣٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٥ ، ص ١٢٦ .

(٣٦) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ، جـ ١ ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .

لقد مضى الصميل يبحث عن شخص يرضاه اليمنيون ويأمن جانبه القيسون ثم يكون الى ذلك ضعيفا سهل القياد حتى يملك زمامه فهداه البحث الى يوسف الفهرى سيد الفهريين فى الاندلس وكان للفهريين مقام ممتاز عند العرب اجمعين اذ ذاك لأنهم ذؤبة قرش ، وكانت قريش فى هذه المنازعات كلها حيادا لا تسرف فى الميل الى فريق دون فريق ، فجر الاندلس ، ص ٢٢٨ .

(٣٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٥ ، ص ١٣٨ .

الأحداث مرة أخرى فما أن علم بتولية يوسف حتى اجتمعا هو وابن جريث على قتال يوسف الفهرى ، وحشد كل منهما جموعه وزحفا على قرطبة وحشد يوسف والصميل جموع المضرية والتقيا فى « شقندة » بالقرب من قرطبة سنة ١٣٠ هـ ونشبت بين الفريقين معركة هائلة لم يكن بالمشرق ولا بالمغرب حرب أصدق منها جلادا ولا أصبر رجالا[٣٨] .

واستمر القتال سجالا بين الطرفين ، وأسر أبو الخطار ويحيى ابن حريث وكثير من أصحابه وقتلوا جميعا ، وجردت اليمنية من زعمائها وأصبحت الاندلس فى تاريخ تلك الواقعة تحت سلطان يوسف الفهرى فى الظاهر وسلطان الصميل بن حاتم فى واقع الأمر .

ولذا فان يوسف الفهرى رغم أن الأمر استقر له فانه كان يخشى الصميل فرأى أن يبعده عن قرطبة فاقطعه ولاية « سرقسطة » وأعمالها . فسار الصميل الى سرقسطة واستخل يوسف بالأمر . ونشط الى ضبط النظام واصلاح الشئون فى ظروف صعبة فكانت السلطة المركزية قد اضمحلت ، وهبت ريح الفتنة من كل صوب ، وتحرك النصارى فى الولايات الشمالية ، وعصف القحط فوق ذلك بالاندلس سنة ١٣٣ هـ[٣٩] .

---

(٣٨) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٦١ ، لقد وصف ابن القوطية هذه الموقعة وصفا موجزا انظر تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٢٠ وانظر كتاب أخبار مجموعة ص ٥٩ — ٦٠. فلقد كان يحيى ابن حريث يبغض أهل الشام فكان يقول « لو أن دماء أهل الشام جمعت لى فى قدح لشربتها » أخبار مجموعة ، ص ٦٠ واذا كان لا ينفك منازعا للصميل مهددا أمره لذا بادر الصميل بعزله عن ولاية « رية » أخبار جموعة ٥٨ .

(٣٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٣٨ أما أسباب هذا القحط الذى عصف بالأندلس فى تلك الفترة فيرجع الى الحروب الطاحنة التى وقعت بين العرب : شامية ويمنية ، وبين العرب والبربر ، كما أن هذه الحروب لم تكن قصيرة الأمد ولا محصورة الميدان وانما امتد

=

ولكن يوسف الفهرى أبدى فى التغلب على مثل هذه الصعاب والمحن التى اجتاحت بلاد الاندلس فى هذه الفترة همة فائقة ، فطاف بالاقاليم ، وعزل الحكام العابثين ، وقمع المظالم والفوضى ما استطاع ، وأصلح الطرق الحربية وعدل نظام الضرائب فاكتسب بذلك عطف كثير من النصارى كما واعاد أيضا التنظيم الادارى للاقاليم فقسم أسبانيا الى خمس ولايات كما كانت أيام القوط وعنى بتنظيم الجيش واصلاحاته عناية كبيرة وحشد قوات جديدة ليتمكن من قمع الثورة فى داخل البلاد وحماية الحدود الشمالية[٤٠] .

إلا أن الأحقاد والمنافسات القديمة التى هدأت حينا بتولية يوسف الفهرى ما لبثت أن اضطرمت من جديد حين استأثر يوسف وحليفه الصميل بكل سلطة وولاية وكان المفهوم أن ولاية يوسف الفهرى لإمارة الاندلس إنما هى حل مؤقت لحالة طارئة حتى يأتى الأمير الشرعى الذى يختاره الخليفة ، ولكن الخلافة الأموية لقيت مصرعها غير بعيد فى سنة ١٣٢ هـ ، وتفاقم الاضطراب الذى سرى

=

شرها حتى شمل سكان البلاد جميعا وأقاليمها كلها فلقد انجفل العرب من المواضع التى كانوا قد استقروا فيها فى الوسط والشمال والغرب وخلفوها لا يكاد يشرف على عمارتها أحد ، واقبل البربر فى أعقابهم وهجروا مواقعهم البعيدة وساروا هم الآخرون الى الجنوب ثم انهزموا أمام العرب هذه الهزائم المتلاحقة ، وتتبعهم هؤلاء بالأذى — فى كل ناحية حتى ضاقت بهم البلاد ، وأخذوا يهجرون الاندلس ويعودون الى مواطنهم فى افريقية جماعات وهكذا فقدت النواحى أعدادا عظيمة ممن كان قد سكنها من العرب والبربر الذين كانوا يقومون على زراعتها وعمارتها ، فلا غرابة ان تقل المحاصيل وتتعرض البلاد لخطر المجاعة . ثم أن هذه الحروب المتوالية بين العرب حينا وبين العرب والبربر حينا آخر قد دارت رحاها فى الأقاليم الخصبة المزروعة فى الجنوب والجنوب الشرقى ، فخربت الكثير من المزارع واضطرب أمر زراعها ، وزادت المحاصيل قلة تبعا لذلك ، حسين مؤنس : فجر الاندلس ، ص ٢٣٣ .

(٤٠) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ، جـ ١ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

الى شئون أفريقية والاندلس قبل ذلك بأعوام ، وأصبح تـراث الخلافة الأموية نهبا مباحا لكل طامع ومتغلب ، وكان بالاندلس عدة من الزعماء النابهين ذوى الجاه والعصبة ينقمون من يوسف والصميل استئثارها بالسلطة وكان أقوى أولئك الخصوم والزعماء المنافسين ليوسف « عبد الرحمن بن علقمة اللخمى ــ حاكم ثغر أبونة ــ الملقب » بفارس الاندلس[٤١] .

فلما تولى يوسف الفهرى إمارة الاندلس واضطرمت شئون الشمال أخذ ابن علقمة يدبر العدة لعبور البرنية ، ومحاربة يوسف ، ولكن لم يلبث أن اغتاله بعض أصحابه وحملوا رأسه الى يوسف الفهرى[٤٢] .

كما خرج على يوسف فى اشبيلية يوسف بن عمرو بن يزيد الأزرق ، وكثر جمعه وقوى أمره ، فزحف اليه يوسف الفهرى وقاتله حتى هزمه وقتله . كما وخرج اليه فى باجة عروة بن الوليد وقد التف حوله النصارى فضلا عن أنصاره من العرب والبربر وسار الى اشبيلية واستولى عليها ، واتسع نطاق الثورة فى تلك الأنحاء فوجه اليه يوسف الفهرى جيشا لقتاله فهزمه عروة فسار اليه يوسف بنفسه ووقعت بينهما معارك شديدة انتهت بهزيمة عروة وأسره ثم بقتله مع نفر من أصحابه .

بيد أن ثورة أخطر وأوسع نطاقا كانت تدبر عندئذ فى الشمال لخلع يوسف والصميل وسحق سلطانهما وكان روح هذه الثـورة ومدبرها زعيم مضرى شديد البأس هو عامر بن عمرو بن وهب العبدرى وكان عامر هذا صديقا ليوسف الفهرى قبل ظفره بالامارة يتولى مثله قيادة الجيش فلما ولى يوسف نزعها منه وكان كباقى

---

(٤١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٤٣ .

(٤٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٣٩ .

الزعماء ينتثم من يوسف والصميل استئثارهما بالسلطة فلما اضطرمت الاندلس بالفتن أخذ يدبر وسائل الخروج على يوسف فكاتب الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور ، وعرض عليه أن يدعوا له بالاندلس وأن يحكمها باسمها وينعى على يوسف والصميل اسرافهما فى سفك دمائهم « يوم شقندة » فالتفت حوله اليمنية والمضرية ولم يكن يوسف يجهل حركاته وتدابيره ، فلما هم بمطاردته والقبض عليه فر الى الشمال فى كثير من أتباعه .

وكان ثمة زعيمان قرشيان آخر هما الحباب بن رواحة الزهرى ، وتميم بن معبد الفهرى ، قد رفعا لواء الثورة فى ولاية « سرقسطة » حيث كان الصميل — وضيقا عليه الحصار فاستغاث الصميل بحليفه يوسف الفهرى ولكن يوسف لم يستطع أو لم يرد إنجاده بغية القضاء على سلطانه[٤٣] فاضطر الصميل أن يلقى خصومه فى قلة من أنصاره وأتباعه ونشبت بين الفريقين عدة معارك انتهت بهزيمة الصميل وانسحابه من سرقسطة فدخلها عامر وحليفه واستوليا عليها سنة ١٣٦ هـ وعمت الثورة كورة سرقسطة وما يليها ودعا عامر لنفسه بولاية الاندلس بمرسوم زعم أنه تلقاه من أبى جعفر المنصور وبذا خرج الشمال كله عن قبضة يوسف الفهرى .

وفى أواخر سنة ١٣٧ هـ سار يوسف الفهرى الى سرقسطة فى جيش كبير وحاصرها بشدة حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعا ورأوا أن يتقوا مصائب الحصار بتسليم عامر وابنه وهب والجباب الزهرى الى يوسف فحملهم يوسف معه فى الأصفاد وارتد صوب طليطلة ثم أمر بهم فقتلوا أثناء الطريق وتخلص يوسف بذلك من آخر الزعماء الخوارج عليه[٤٤] .

---

(٤٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٣٨ ، ٤٣ .

(٤٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٥ ، ص ١٤٠ ، ١٨٤ .
ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٥٢ .

ثانيــا : موقف الفهريين من حكم عبد الرحمن الداخل :

وما أن تخلص يوسف الفهرى من آخر زعماء الخوارج حتى فوجىء بخطر جديد قد أتاه من خارج الجزيرة ذلك أن فتى من بنى أمية يدعى « عبد الرحمن بن معاوية » نزل بساحل الاندلس فى ثغر « المنكب » واجتمع اليه أشياع بنى أمية فى كورة « غرناطــة » وانتشرت دعوته فى جنوب الاندلس بسرعة كبيرة .

وعندما وصلت هذه الأنباء مسامع جند يوسف الفهرى ساد الجيش الزعر والاضطراب حتى تفرق الكثير من جنده(٤٥) وبادر بالتالى يوسف والصميل بمن بقى معهم من الأشياع والجند بالتوجه نحو قرطبة ليدبرا الخطط لرد هذا الخطر الجديد . وقد أشــار الصميل على يوسف ازاء هذا أن يعمد الى مصانعة عبد الرحمــن وملاطفته واغرائه بمصاهرته . فاستجاب يوسف لمشورة الصميل ، وبعث الى عبد الرحمن وهو « بطرش » وفدا يعرض عليه أن يزوجه من ابنته ويقطعه كورة « قرناطة » أو كورة « رية » ، أو ما بينهما كما بعث اليه هدية وبعضا من المال وكتابا مطولا يرغبه فيه بمحالفته .

لكن عبد الرحمن الداخل لم يغتر بوعود يوسف وعهده ، فأبى عرضه ، ورد رسله لأنه كان يسموا بأطماعه الى أبعد من ذلك وأرفع فقد كان سلطان الاندلس هو كل مطمع آماله(٤٦) لذا عندما وجد أنه يستطيع البدء بمناجزة يوسف الفهرى سار بقواته صوب قرطبة . وكان ذلك فى أوائل شهر ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ .

وفى ذلك الحين كان يوسف والصميل قد حشــدا جموعهما ومعظمها من الفهرية والقيسية إلا أن جند يوسف كان قد وهن

---

(٤٥) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٢٠ .

(٤٦) اخبار مجموعة ، جـ ٢ ، ص ٤٧ ، ابن عذارى : البيــان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٤٧ .

وضعف وتفرق معظمه خلال الفتن والغزوات المتوالية ثم جاءت دعوة عبد الرحمن الأموى فزادته تفرقا وضعفا ولكن يوسف الفهرى لم يجد بدا من الخروج لمجابهة هذا الخطر الداهم فزحف بقواته الى « المسارة » حيث عسكر فى ظاهر قرطبة من جهة الغرب على ضفة « نهر الوادى الكبير » فى الوقت الذى كان عبد الرحمن الداخل قد أشرف بجيشه على ضفة « النهر الجنوبية » عند قرية مقابلة تسمى « بلة نوبة » . وهناك تأهب الفريقان للحرب اذ لم تنجح محاولة يوسف الفهرى فى سبيل عقد الصلح فقد صمم عبد الرحمن الداخل على القتال فى يوم الجمعة الموافق ١٠ ذى الحجة متيمنا بذكرى موقعة « مرج راهط » الشهيرة التى انتصر فيها جده مروان بن الحكم على قوات عبد الله بن الزبير التى كان يقودها الضحاك بن قيس الفهرى وذلك فى يوم عيد الأضحى المبارك — وقد كان يوم الجمعة أيضا سنة ٦٤ هـ لذا دفع عبد الرحمن بقواته فى اليوم التالى لاقتحام النهر . وكان أول من اقتحمه منهم جند بنى أمية .

ومع أن يوسف الفهرى كان يفوق على خصومه بكثرة فرسانه إلا أن التفرق كان يسود جنده ، فى حين كانت جموع عبد الرحمن الداخل تضطرم رغم قلتها عزما وحماسا فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، ولكنها قصيرة المدى فلم يأت الضحى حتى مزقت خيل يوسف الفهرى — وهزم جيشه هزيمة منكرة ، ونهبت أسلابه وقتل كثير من وجوه القيسية والفهرية ، وفر يوسف صوب « طليطلة » حيث كان ولده عبد الرحمن ، وفر الصميل صوب « جيان » ودخل عبد الرحمن الداخل وصحبه قرطبة دون مقاومة ، وبويع بالإمارة فى عاشر ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ(٤٧) .

إلا أن يوسف الفهرى بعد أن فر عقب الموقعة تجاه طليطلة ، حشد بها ونواحيها ما استطاع من أنصاره بمعاونة عامله عليها هشام

---

(٤٧) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٢٦ — ٢٨ .

ابن عزرة الفهرى ، وبما وافاه به الصميل بمن حشد من المضرية • ثم سار فى قواتهما الى « جيان » ثم الى « قرناطة » حيث اجتمع أهل هذه الأنحاء حوله فنزل بهم عند قرناطة متأهبا لمحاربة عبد الرحمن ولكن ما كاد يستقر فيها حتى بادر عبد الرحمن بالسير اليه تاركا حماية قرطبة لحليفه وقائده أبى عثمان •

لكن عندما بلغت هذه الأنباء مسامع يوسف الفهرى بعث ابنه عبد الرحمن فى بعض قواته الى قرطبة فاقتحمها وأسر أبا عثمان ، ونفرا من أصحابه من أهل عبد الرحمن الداخل وحريمه ، ثم غادرها فى الحال خشية المفاجأة ولكن عبد الرحمن الداخل لم يلو فى طريقه على شيء وقصد قرناطة توا ، وحاصر يوسف والصميل فلما شعرا بأن المقاومة عبث استسلما للأمر الواقع ثم فاوضاه فى الصلح والتسليم بالأمر له ، ونبذ كل دعوى فىالولاية والسلطة على أن يؤمنهما فى النفس والمال والأهل وأن يؤمن حلفاؤهم واصدقاؤهم جميعا وأن يسمح لهما بسكنى قرطبة تحت رعايته ورقابته فأجابهما عبد الرحمن الى الصلح على ذلك نظير تقديم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمد أبا الأسود رهينة لديه يعتقلهما فى قصر قرطبة برفق وإكرام حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور وتم عقد الصلح بين الفريقين فى صفر سنة ١٣٩ هـ وأفرج عن أبى عثمان وباقى الأسرى الذين أسرهم ولد يوسف وتصافى الفريقان • وقفل يوسف والصميل مع عبد الرحمن الى قرطبة وانفض جندهما(٤٨) •

لكن رغم ذلك كله كان عبد الرحمن يشدد عليهما الرقابة ويحرض على تجريدهما من كل سلطة وقوة فى وقت كان هناك فى قرطبة فل من عصبية يوسف الفهرى وأنصاره ممنيتطلعون الى العهد السابق ويلومون يوسف على تسليمه واستكانته ، ويحرضونه على استعادة مركزه وسلطانه أضف الى ذلك أن يوسف الفهرى نفسه كان يشعر

---

(٤٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٥٠ .

بأنه فى شبه اعتقال وأن عبد الرحمن يضيق الخناق عليه ، ويؤلب عليه صنائعه ينازعونه فى أملاكه كما يشعر بأن عبد الرحمن الداخل وراء ذلك الاضطهاد(٤٩) .

عندئذ عول على الفرار وكاتب أنصاره فى « ماردة » وطليطلة ، ثم فر الى ماردة التى كان بها معظم أهله وأصهاره سنة ١٤١ هـ وهناك حشد أنصاره من العرب والبربر حتى اجتمع له زهاء عشرين ألفا ثم سار بهم الى اشبيلية وعليها عبد الملك بن عمر بن مروان — المعروف بالمروانى — فحاصره فى اشبيلية حتى أتاه ولده عبد الله بالمدد ثم وقعت بينهما معارك شديدة قتل فيها كثير من الفريقين وارتد يوسف منهزما بفلوله . وكان عبد الرحمن الداخل يرابط بقواته فى « حصن المدور » فوافته الأنباء بهزيمة يوسف وفراره ، فتوقف عن مطاردته ، وسار يوسف الى طليطلة ولبث يتردد فى أنحائها عدة أشهر محاولا أن ينظم قواته مرة أخرى إلا أن بعض الخونة من أنصاره أو مواليه ائتمروا به واغتالوه ذات يوم على مقربة من طليطلة ، وحملوا رأسه الى عبد الرحمن فى قرطبة سنة ١٤٢ هـ وانتهت بذلك حياة يوسف الفهرى الحافلة المضطربة ، وأمن عبد الرحمن شره وخطره وقتل ابنه عبد الرحمن المعتقل لديه ، ورفع رأسيهما فوق الرماح أمام القصر ليلقى الرعب فى قلوب الخوارج والمخالفين(٥٠) أما الابن الثانى ليوسف الفهرى — وهو محمد أبو الأسود — فقد استطاع أن يفر من سجنه ، وقصد توا طليطلة معقل عصبة أبيه وتحصن بها ، فبعث عبد الرحمن فى أثره جيشا بقيادة « تمام بن علقمة » وعينه واليا لطليطلة فحاصرها حتى سلمت ، وأسر محمد بن يوسف الفهرى ثانية وجىء به الى قرطبة ، واستولت جنود عبد الرحمن الداخل على طليطلة فى ذى الحجة سنة ١٤٢ هـ وسحق بذلك وكر

(٤٩) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٦٦ اخبار المجموعة ، ص ٥٩ .

(٥٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٥١ اخبار مجموعة ص ١٠٠ .

الثورة الفهرية وزج بمحمد الى السجن ثانية ، ولكنه ما لبث أن ادعى العمى حتى استطاع أخوه الأصغر القاسم بن يوسف الفهرى أن يفر من طليطلة متنكرا قبل سقوطها أما الصميل فلبث يوسف فى سجنه لعدة أسابيع أخرى حتى دس عليه عبد الرحمن الداخل من قتله داخل السجن خنقا فى أواخر سنة ١٤٢ هـ[٥١] .

وهكذا انتهت بذهاب يوسف والصميل مرحلة خطيرة من الاضطراب والقلاقل .

* * *

(٥١) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٥٠ ، المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٦٧ .

ثالثا : ضعف الفهريين واضمحلال نفوذهم :

لقد أمضى عبد الرحمن الداخل أعوامه فى كفاح مستمر يتلقى وثبات الخوارج عليه من كل صوب . وكان أول الخوارج عليه بعد مصرع يوسف الفهرى والصميل . القاسم ابن يوسف الفهرى وحليفه رزق بن النعمان فكان القاسم حينما فر من طليطلة قد سار الى الجزيرة الخضراء والتجأ الى شيخها رزق بن النعمان صديق أبيه وحشد حوله جمعا من الأنصار والمرتزقة ، واستولى بمعونة حليفه على شذونه ثم سار فى قواتها الى اشبيلية ولم تكن بها قوة تدافع عنها فاستوليا عليها دون مشقة ، فبادر عبد الرحمن الداخل فى قواته الى اشبيلية ونشبت بينه وبين الخوارج معركة عنيفة قتل فيها رزق ابن النعمان ومزق جنده ودخل عبد الرحمن أشبيلية ظافرا وذلك فى أواخر سنة ١٤٣ هـ أما القاسم فالتجأ بقواته الى شذونة فبعث عبد الرحمن فى أثره والى طليطلة فطارده حتى أسره ومزق قواته(٥٢) .

وعندما كانت طليطلة تضطرم فيها عناصر الثورة وفيها كثير من أنصار الفهرية ولم يلبث أن قام زعيمهم هشام بن عزرة الفهرى ولد عزرة أمير الأندلس السابق وأعلن الثورة واعتصم بالمدينة حتى سار اليه عبد الرحمن الداخل وحاصره عدة أشهر الى أن اضطر الى طلب الصلح وقدم ولده رهينة بحسن طاعته فاجابه عبد الرحمن الى طلبه وآثر أن يهادنه مؤقتا ولكنه ما كاد يصل الى قرطبة حتى عاد هشام الى الثورة فارتد اليه عبد الرحمن ليعاقبه على نكثه وحاصره ثانية وقتل ابنه وأطلق رأسه بالمنجنيق داخل الأسوار ، ولكنه رغم ذلك لم يظفر بحمل الثائر على التسليم فعاد الى قرطبة ليضاعف أهباته ، بيد أنه لم يستطع أن يعود توا الى طليطلة اذ نمى اليه عندئذ خبر حادث داهم الخطر يتطلب كل جهوده وقواه ذلك

---

(٥٢) اخبار مجموعة ، ص ١٠١ ، عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، ص ١٩٩ .

أن داعية من خصوم بنى أمية هوالعلاء بن مغيث اليحصبى كاتب أبا جعفر المنصور ، واتصل برسله فى أفريقية ، واستصدر منه سجلا بولايته للاندلس ، ثم ارتد الى الاندلس وعاد الى باجة فى قوة كبيرة ، ودعا لبنى العباس ، ورفع العلم الأسود ، وأعلن أنه قد عين أميرا للاندلس من قبل أبى جعفر المنصور سنة ١٤٦ هـ(٥٣) .

واضطرمت باجة وما حولها بنار الثورة ، وهرعت القبائل والأحزاب المختلفة الى الإنضواء تحت اللواء الأسود ولا سيما الفهرية واليمنية ، وجند مصر ، واستفحل أمر العلاء وكثر جمعه ، وانضم اليه أمية بن قطن الفهرى وأصحابه ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة لعدة أيام حتى هزم العلاء ، ومزق جنده ، وقتل منهم آلاف عديدة ، وكان العلاء نفسه ضمن القتلى ، وأسر ابن قطن ، ووضعت رأس العلاء فى سفط ، ومعها اللواء الأسود وسجل المنصور للعلاء وقد حمله بعض التجار الثقاة الى مكة حيث كان المنصور يؤدى فريضة الحج سنة ١٤٧ هـ(٥٤) .

وهكذا استطاع عبد الرحمن الداخل أن يسحق هذه الثورة الخطيرة التى كان أخطر ما فيها أنها لم تكن دعوة حزب أو قبيلة وإنما كانت دعوة عامة تدعمها الصبغة الشرعية(٥٥) .

ولما عاد عبد الرحمن الداخل الى قرطبة كانت الثورة التى يثير ضرامها هشام بن عزرة الفهرى فى طليطلة قد استفحلت واتسع نطاقها فأرسل عبد الرحمن قائديه بدرا وتمام بن علقمة فى جيش كبير الى طيلطلة فطوقها وشدد الحصار عليها حتى ضاق أهلها زرعا

---

(٥٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٥٤ .

(٥٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٢٣ ، احمد الشعراوى : الامويين امراء الاندلس ، ص ١٩٧ ، ٩٩ .

(٥٥) Dozy : The moslems in Spain. p. 234.

واضطروا الى طلب الصلح فأخذوا الى قرطبة مصفدين معذبين ثم صلبوا بأمر عبد الرحمن الداخل ، وتم بذلك سحق الثورة فى طليـــطلة(٥٦) .

وبينما كان عبد الرحمن الداخل يواجه هذه الثورات المتلاحقة التى يقوم بها الثوار فى الداخل ويقضى عليها واحدة تلو الأخرى ، ويثبت دعائم امارته ويقوى أركانها اذا ببعض الثوار يتصلون بقوى خارجية من أجل القضاء على الامارة الأموية فقد استعان عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى بالبربر فى أفريقية وعبر إلى تدمير وثار فيها ودعا للعباسيين وكاتب سليمان بن يقطان الكلبى وكان ائنذاك ببرشلونة ، ودعاه الى الدخول فى طاعته فأجابه : بأنه لا يدع عونه ولكن ذلك لم يرق لعبد الرحمن بن حبيب الفهرى فتوجه لغزوه ، ولكن ابن يقظان الكلبى تمكن من هزيمته فعاد ابن حبيب الفهرى الى تدمير(٥٧) وواصل الثورة فيها فخرج اليه عبد الرحمن الداخل واشتد فى قتاله فلجأ الى الجبال ليحتمى بها فبسط عبد الرحمن سلطانه فى كـــورة تدمير وتقدم الى كورة « بلنسية » بعد أن أحرق المراكب بســـاحل البحر حتى لا يمكنه من الهرب ودس عبد الرحمن الداخل على ابن حبيب الفهرى « مشكاراً البربرى » فتمكن من اغتياله ، وحمـــل رأسه الى عبد الرحمن .

وبذلك انهارت دعوت ابن حبيب الفهرى وثورته سنة ١٦٢ ، ١٦٣ هـ(٥٨) وبالتالى ضعف نفوذ الفهريين فى الاندلس .

---

(٥٦) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ، ص ١٦٣ .

(٥٧) أخبار مجموعة ، ص ١١٠ .

(٥٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٤ .

مصـــادر ومراجـــع البحـــث

١ ــ ابن الأبـــار : (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله :

الحلة السيراء (نشر حسين مؤنس ــ القـــاهرة ١٩٦٣ م) •

٢ ــ ابن الأثير : (ت ٣٠ هـ / ١٢٢٣ م) أبو الحسن على بن محمد الجزرى :

الكامل فى التاريخ •

٣ ــ أحمد ابراهيم الشعراوى :

الأمويون أمراء الاندلس •

٤ ــ أحمد مختار العبـــادى :

ــ فى التاريخ العباسى والاندلس •

ــ فى تاريخ المغرب والاندلس •

٥ ــ أرنولد : سيرتوماس :

الدعوة الى الاسلام (ترجمة حسن ابراهيم حسن)

٦ ــ ابن بطوطة : (ت ٧٧٩ هـ) محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم :

رحلة ابن بطـــوطة •

٧ ــ حسن ابراهيم حسن :

تاريخ الاســـلام السياسى والديـــنى والثقـــافى والاجتماعى •

٨ — حســين مؤنس :

فجر الأندلس .

٩ — الحمــيرى : ابن عبد المنعم :

الروض المعطار فى خبر الأقطار .

١٠ — ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون المغربى :

العبر وديوان المبتدأ والخبر .

١١ — ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م) أبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن بكر :

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .

١٢ — سيد أمير على :

مختصر تاريخ العرب « نقله الى العربية عفيف البعلبكى » .

١٣ — السيد عبد العزيز ســالم :

تاريخ المسلمين وأثارهم فى الأندلس .

١٤ — الضــــبى :

بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس .

١٥ — ابن عبد الحكم : (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ — ٨٧١ م) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم :

فتوح مصر وأخبارها .

١٦ — ابن عذارى : (أبو عبد الله محمد المراكشى)
البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب .

١٧ — ابن قتيبة : (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) أبو محمد عبد الله
ابن مسلم
الامامة والسياسة .

١٨ — ابن القوطية : (ت ٣٦٧ هـ) أبو بكر بن محمد عمر :
تاريخ افتتاح الأندلس .

١٩ — ابن الكردبوس :
كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء (نشر أحمد مختار
العبادى صحيفة معهد مدريد — ١٩٦٥ م) .

٢٠ — لينول :
العرب فى أسبانيا (ترجمة على الجارم) .

٢١ — محمد عبد الله عنان :
دولة الاسلام فى الأندلس .

٢٢ — المقرى : (أبو العباس أحمد)
— نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب وذكر
وزيرها لسان الدين بن الخطيب .

— أخبار مجموعة فى تاريخ الاندلس (نشره
وترجمه وعلق عليه لانوينتى أى الكنترا —
مدريد — ١٨٦٧ م) .

Dozy : The Moslems Spain.

النظـام القضـائى فى القيروان فى عصر الأغالبة

(١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ـ ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م)

تأليف الدكتور
عبد الحميد حسين محمود حمودة
مدرس التاريخ الاسلامى والحضـارة
الاسلامية بكلة الآداب ـ جامعـة
القاهرة ـ فرع الخرطوم

المقـدمة :

كانت وظيفة القـاضى من أرفع المناصب الهـامة فى الدولة الاسلامية ، منذ عصر الرسول ﷺ ، وتأتى فى المرتبة الثانية بعد الامارة وأشار القرآن الكريم الى أهمية العدل فوردت آيات كثيرة فى مواضع مختلفة ، قال تعالى : « ومن لم يحكم بما أنـزل الله فاؤلئك هم الظالمون »[١] • وقال تعـالى : « فأحكم بيننا بالحـق ولا تشـطط »[٢] •

وسار قضاة القيروان فى عصر الأغالبة على نفس المنهاج ، فحرصوا على غرس القيم الاسلامية والصفات الحميدة فى كيـان المجتمع الأغلبى •

وتعرضت فى هذا البحث لشروط التقليد التى ينبغى توافرها لمتولى خطة القضاء واختصاصاته وطريقة تعيين القاضى وعلاقـة القاضى بدار الخلافة والوالى •

كما أشرت الى أعوان القاضى والى الاجراءات القضائية ونماذج لأهم الأقضية والأحكام •

---

(١) المائـدة : ٤٥ .
(٢) ص : ٢٢ •

وذيلت بحثى بخاتمة لخصت فيها أهم النتائج التى توصلت اليها من البحث .

١ — شروط التقليد التى ينبغى توافرها فمن يتولى القضاء .

وردت فى كتب الفقهاء شروط معينة وآداب لتولى خطة القضاء وعلى القضاة أن يلتزموا بها نستطيع أن نتلمسها فى كتاب « الأحكام السلطانية » للماوردى وهى أن يكون القاضى رجلا ، عاقلا ، حرا ، مسلما ، عدلا ، سليم السـمع والبصر وأن يكون ملما بكافـة الأحكام الشرعية أصولها وفروعها وهى معرفته بكتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ وتأويل السلف والقياس(٣) . ويمكن أن نضيف الى ما سبق العلم والورع والنزاهة والعفة والحلم(٤) .

٢ — اختصاصات القـاضى :

تحدد كتب الفقه والنظم الاسلامية المهام المسندة الى القاضى بعشرة أمور اذ كانت ولايته عامة وله حرية التصرف وهى :

١ — فصل المنازعات وقطع التشاجر والخصومات .

٢ — استيفاء الحقـوق .

٣ — ثبوت الولاية على من كان ممنوع التصرف .

٤ — النظر فى الأوقاف بحفظ أصولها .

٥ — تنفيذ الوصايا على شروط الموصى .

---

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٠٩ م ، ص ٥٣ — ٥٤ ، — مصطفى الشكعة : معالم الحضارة الاسلامية ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ٧٤ — ٧٦ .

(٤) المالقى : تاريخ قضاة الاندلس ، الطبعة الخامسة ، دار الأفق ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٢ ، — وكيع : اخبار القضاة ، القاهرة ١٩٤٧ م ، ص ٧٧ .

٦ — اقامة الحـــدود على مســـتحقيها .

٧ — تزويج الأيامى بالأكفاء اذ عد من الأولياء .

٨ — النظر فى مصالح عمله من الكف عن التعدى فى الطرقات والأفنيـــــة .

٩ — تصفيح شهوده وافنائه واختيار التأبين عنه .

١٠— التســـوية فى الحكم بين القوى والضعيف(٥) .

وأثناء ولاية القاضى أبى سعيد سحنون للقضاء بالقـــيروان (١٦٠ هـ — ٧٧٦ — ٧٧٧ م / ٢٤٠ هـ — ٨٥٤ — ٨٥٥ م) تم اضافة اختصاصات أخرى فى أمور الأسواق ، التأديب على الغش والنفى من الأسواق للتجار المخالفين وبذلك امتد نشاط قضـــاة القيروان وادخلوا فى اختصاصهم حق الاشراف على الحسبة(٦) ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد فحسب بل أخذ سحنون لنفسه حق تعيين أمام الصـــلاة(٧) .

---

(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ٥٨ — ٥٩ .

(٦) المالكى : رياض النفوس ، الجزء الأول ، الطبعة الاولى ، نشر حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥١ م ، ص ٢٧٦ — عياض : ترتيب المدارك ، الجزء الرابع ، الرباط ، ص ٦٠ — ابن فرحون : الديباج المذهب فى أعيان المذهب ، القاهرة ١٣٢٣ هـ ، ص ١٦٣ — سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، الجزء الثانى ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٧٩ م ، ص ٩٢ — محمد المطلبى : تراجـــم اغلبية مأخوذ من ترتيب المدارك للقاضى عياض ، تونس ١٩٦٨ م ص ١٠٤ . — محمد زينهم محمد عزب : فقيه أفريقية أبى سعيد عبد السلام بن سعيد الملقب بسحنون ودوره فى التطور الفكرى فى المجتمع الأغابى ، رســـالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٨٦ م ص ١١٠ .

(٧) المالكى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٧ . — عياض : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٠ — سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

وقد أسند الى القاضى عبد الله بن أحمد بن أبى طالب حق النظر فى الولاة والجباة والحدود والقصاص والعزل والنهى عن المنكر فى القيروان[٨] .

٣ — تعيين القضـــاة وعزلهـــم :

كان تعيين القاضى للفصل بين الناس فيما ينشب بينهم من خـــلاف فرض أمرت به الشريعة الاسلامية[٩] .

ويحدثنا الماوردى[١٠] عن الطريقة التى تنعقد بهـــا ولاية القضاء بقوله : « وولاية القضاء تنعقد به الولايات مع الحضـــور باللفظ مشافهة ومع الغيبة مراسلة ومكاتبة لكن لا يدفع المكاتبة من أن يقترن بها من شواهد الحال ما يدل عليها عند المولى وأهل عمله والألفاظ التى تنعقد بها الولاية ضربان صريح وكتابة فالصريح أربعة ألفاظ قد قلدتك ووليتك واستخلفتك واستنبتك .. فأما الكتابة ... سبعة ألفاظ قد اعتمدت عليك وعولت عليك ورددت اليك وجعلت اليك وفوضت اليك وأسندت اليك ... » .

وكان تعيين قضاة القيروان فى عهد الأغالبة يتم بمعرفة الامراء فيما عدا ولاية أبى عبد الرحمن عبد الله بن غانم أول قضاة الأغالبة حيث كان يشغل منصب القضاء منذ سنة ١٧١ هـ / ٧٨٦ — ٧٨٧ م فى ولاية روح بن حاتم (١٧١ — ١٧٤) بينما قامت دولة الأغالبة بتونس سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م .

واختلفت الآراء حول ولاية ابن غانم للقضاء فيذهب البعض

---

(٨) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٣٨١ .

(٩) عطية مصطفى مشرفة : القضاء فى الاسلام ، الجزء الاول ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ١٩٣٩ م ص ١٦٥ .

(١٠) الأحكام السلطانية ، ص ٥٦ — ٥٧ .

الى أن ولايته كانت من قبل الخلافة العباسية ، ويذهب البعض الآخر الى أن ولايته كانت من قبل والى المغرب روح بن حاتم .

ويشير المالكى لحسم هذا الخلاف بقوله « فقال أبو عثمان « أمراته طالق بليلته ورقيقه احرار ان كان ولاه أمير المؤمنين ثم أن أبا عثمان أتى الى ابن غانم فأخبره الخبر فقال له ابن غانم « كم صداق زوجتك التى تزوجتها به ؟ قال « مائة دينار » قال « وكم ثمن مماليك عليك ؟ » قال « مائة دينار » قال : فدعا ابن غانم بكيس فعد لابى عثمان ثلاثمائة دينار وقال « خذها يا أبا عثمان فقد بأنت منك أمرأتك وعتق عليك عبيدك » .

وهذا دليل قاطع على أن ولاية ابن غانم كانت من قبل الخلافة العباسية عن طريق المكاتبة[١١] ونميل الى الرأى الأول وسندنا فى ذلك ما ذهب اليه ابن الرقيق[١٢] ت ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م بقوله : « وكان هارون الرشيد يكاتب ابن غانم وكان بعد ذلك قضاؤه من قبله لا من قبل ولاته على أفريقية وكان يكتب فى عنوانه « من هارون مأير المؤمنين الى قاضى أفريقية عبد الله بن عمر بن غانم » .

وأستمر ابن غانم على قضاء القيروان حتى قيام دولة الأغالبة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م وكان يتمتع بقوة الشخصية ولا يخشى فى الحق لومة لائم وحظى بمكانة رفيعة عند ابراهيم بن الأغلب الذى حزن عليه عندما وافاته المنية سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٥ — ٨٠٦ م[١٣] .

---

(١١) أبو العرب : طبقات علماء افريقية وتونس ، تحقيق على الشابى وآخرين ، الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٦٨ ، ص ١١٧ — المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٤٨ ، عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٣ ، ص ٦٨ — ٦٩ — السراج : الحلل السندسية ، الجزء الأول ، القسم الثالث ، تونس ١٩٧٠ م ، ص ٧٣٣ — ٧٣٤ .

(١٢) تاريخ افريقيا والمغرب ، تحقيق المنجى الكعبى ، تونس ١٩٦٧ م ، ص ٢٢٩ .

(١٣) نفسه ، ص ٢٢٨ .

ومن الجدير بالذكر أن تعيين قضاة القيروان فى عصر الأغالبة بعد ابن غانم كان يتم من قبل الامراء بالأجبار وصل أحيانا الى التهديد بالسيف لأن غالبية الناس ممن تتوافر فيهم الشروط اللازمة لشغل منصب القضاء كانوا يعزفون عن قبولها فعندما أراد ابراهيم ابن الأغلب تولية أبى محرز قال له : « قد عزمت على توليتك القضاء » فقال له أبو محرز : « لست أصلح لهذا الأمر ولست أطيقه » فقال له ابراهيم بن الأغلب : « لو كان الأغلب بن سالم(١٤) ويزيد بن حاتم(١٥) باقيين لم أكن أنا أمير ولو كان ابن أنعم(١٦)

---

(١٤) الأغلب بن سالم جد الأغالبة وكان من أصحاب ابو مسلم الخرسانى رحل الى بلاد المغرب مع محمد بن الاشعث فأسند اليه ولاية طبنة ثم بعد ذلك عينه الخليفة المنصور واليا على بلاد المغرب سنة ١٤٨ هـ لمزيد من التفاصيل انظر ابن الاثير : الكامل ، جـ ٥ ، دار الفكر ، بيروت ، ص ٢٦ — ابن خلدون : العبر وديوان المبتدء والخبر ، جـ ٤ ، بيروت ص ١٩٢ — السلاوى : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٣١٢ هـ ، ص ٥٧ .

(١٥) استعان الخليفة ابو جعفر المنصور بيزيد بن حاتم لفك الحصار المفروض على والى المغرب عمر بن حفص ونجح فى اخماد الثورات وعين واليا على المغرب من سنة ١٥٤ هـ — ١٧٠ هـ لمزيد من التفاصيل انظر :

— ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٢ — النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٤، ص ٨٥ — ٨٦ — ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ١٩٣ — ١٩٤ — السلاوى : الاستقصاء ، جـ ١ ص ٥٨ — ٥٩ — رشيد عبد الله الجميلى : دراسات فى تاريخ الخلافة العباسية ، الطبعة الأولى ، الرباط ١٩٨٤ م ، ص ٣٧٨ .

(١٦) زياد بن أنعم المعافرى السفيانى وقيل الشعبانى والافريقى روى عنه جماعة منهم ابن عمر وابن ايوب الانصارى سكن القيروان واختط بها دار فى ناحية باب نافع ابو العرب : طبقة علماء افريقية ص ٨٧ هامش ٤) .

وابن فروخ[١٧] باقيين لم تكن أنت قاضيا ولكل زمان رجال وعلى الأمير أن يختار فقال له أبو محرز متمثلا :

خـلت الديـار فسـدت غير مسـود

ومن الشـفاء تفـردى بالسـؤود

فقال له : « قد وليتك القضاء » فأمتنع فأمر ابن الأغلب والى الشرطة عامر بن معمر بالقبض عليه وأخذه الى المسجد وأجلسه وأمره بالنظر بين الخصوم[١٨] .

وفى بعض الأحيان أسند أمر القضاء الى شخصين كما حدث أثناء ولاية زيادة الله (٢٠١ هـ — ٨١٦ م / ٢٢٣ هـ — ٨٣٧ م) حيث أسند الى أسد بن الفرات ولاية القضاء سـنة ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م الى جانب أبى محرز ولأول مرة فى تاريخ أفريقية منذ دخول العرب يشترك قاضيان معا فى وقت واحد[١٩] .

وكذلك فى ولاية القاضى سحنون بن سعيد عندما تشـدد فى تطبيق أحكامه على رجال البلاط وأفراد البيت الأغلبى فدبروا مكائدهم له[٢٠] ولم يكن بوسع الأمير أبو العباس محمد بن الأغلب (٢٢٦ هـ —

---

(١٧) عبد الله بن فروخ الفارسى كان من شيوخ اهل افريقية وكان ممن رحل فى طلب العلم ولقى بالمشرق مالك بن أنس وسفيان الثورى (انظر ابو العرب : طبقات علماء افريقية ، ص ١٠٧) .

(١٨) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٩٢ ، ابن الدباغ : معالم الايمان ، جـ ٢ ، تونس ١٣٢٠ هـ ، ص ١٩ .

(١٩) الخشنى : قضاة قرطبة وعلماء أفريقية وتونس ، الـدار المصرية للتأليـف والترجمـة ، القـاهرة ١٩٦٦ م ، ص ٣٠٥ . — المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٧٣ — ابن عذارى : البيان المغرب ، الجزء الأول ، تحقيق ليفى بروفنسال وآخرين ، ليدن ١٩٤٨ ، ص ٩٧ — دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثانى ، ص ١٠٥ .

(٢٠) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٩٢ .

٢٤٢ هـ) عزل سحنون لكى لا يجلب على نفسه سخط فقهاء القيروان والرعية وكل ما فعله عين الطنبى على القضاء[٢١] الى جانب سحنون .

وأيضا فى ولاية حماس بن مروان عندما حدث خلاف بين حماس وابن الصائغ صاحب البريد بدولة زيادة الله (٢٩٠ — ٢٩٦ هـ) وكان حماس لم يخوله أدنى اهتمام الأمر الذى آثار حفيظة ابن الصائغ فألح على زيادة الله بتعيين ابن جيمال فى القضاء الى جانب حماس فلم يلبث أن طلب اعفائه فى جمادى سنة ٢٩٤ هـ/٩٠٦ م[٢٢] .

وفى هذا الصدد يقول الماوردى[٢٣] : « واذا قلد قاضيان على بلد لم يخل حال تقليدهما من ثلاثة أقسام . أحدها أن يرد أحدهما موضعا منه والى الآخر غيره فيصح ويقتصر كل واحد منهم على النظر فى موضعه والقسم الثانى أن يرد أحدهما نوع من الأحكام والى الآخر غيره كرد المداينات الى أحدهما والمناكح — المناكحات — الى الآخر فيجوز ذلك ويقتصر كل واحد منهما على النظر فى ذلك الحكم الخاص فى البلد كله والقسم الثالث أن يرد الى كل واحد منهما جميع الأحكام فى جميع البلد فقد اختلف أصحابنا فى جوازه فمنعت منه طائفة لما يقضى اليه أمرهما من التشاجر فى تجاذب الخصوم اليهما وتبطل ولايتهما ان أجتمعت وتصبح ولاية الأول منهما أن أفترقت وأجازته طائفة أخرى وهم الأكثرون لأنها استنابة كالوكالة ويكون القول عند تجاذب الخصوم قول الطالب دون المطلوب فان تساويا أعتبر أقرب الحاكمين اليهما فان أستويا فقد قيل يقرع بينهما وقيل يمنعان من التحاكم حتى تفقا على أحدهما » .

وأستمر أبو محرز فى ولاة القضاء الى جانب أسد بن الفرات

---

(٢١) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٩٢ .

(٢٢) عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٥ ، ص ٧٢ — ٧٣ .

(٢٣) الأحكام السلطانية ، ص ٦١ .

(١٤٢ — ٢٢٣ هـ / ٧٥٩ — ٨٢٨ م)[٢٤] الذى خرج على رأس حملة من أفريقية متوجها الى صقلية للجهاد ضد الروم الذين شنوا هجوما بحريا على السواحل الافريقية وعاثوا فى الأرض فسادا فنهبوا التجار مما أدى الى زعزعة الأوضاع الاقتصادية بالبلاد فى الوقت الذى يحاول الأغالبة اعادة الاستقرار وتأمين طرق التجارة والتخلص من كابوس الأزمة الاقتصادية التى أحاقت بالبلاد أبان عصر الولاة .

ولذلك كان رد الفعل قويا وعنيفا من جانب الأغالبة فشرعوا فى تجهيز حملة بقيادة أسد بن الفرات واكتسبت صبغة دينية لتأجج شعور الأهالى للانضمام للحملة الجهاد فى سبيل الله .

وعلى الرغم من خروج أسد بن الفرات بحملته الى صقلية فانه ظل يشغل القضاء الى جانب أبى محرز كما ذكرنا حيث قال الأمير زيادة الله الى ابن الفرات : « أنى لم أعزلك عن القضاء بل وليتك الأمارة وهى أشرف من القضاء وأبقيت لك اسم القضاة فأنت قاضى أمير »[٢٥] .

وأنتهى أمر أسد بن الفرات بوفاته سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ — ٨٢٩ م وهو محاضر لسرقوسة[٢٦] بعد أن أبلى بلاء حسنا فى جهاده ضد الروم .

---

(٢٤) ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ١٠٤ .

(٢٥) المالكى : رياض النفوس ، ج ١ ، ص ١٨٨ — أحمد بن ابى الضياف : اتحاف أهل الزمان ، الجزء الأول ، تونس ١٩٦٣ م ، ص ١٠٦ .

(٢٦) عياض : ترتيب المدارك ، ج ٣ ، ص ٣٠٤ — ابن الدباغ : معالم الايمان ، ج ٢ ، ص ١٤ — اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، الجزء الثانى ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٠ م ، ص ٥٦ — الصفدى : الوافى بالوافيات ، ج ٩ ، ط ٢ ، بأعتناء يوسف فان اس فيسبان ١٩٨١ م ص ٦ — ابن العماد : شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، الجزء =

وعندما أراد زيادة الله أن يعين قاضيا للقيروان عندما خلت البلاد من قاض بوفاة أبى محرز سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م واستشهاد أسد بن الفرات وهو محاصر لسرقوسة سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م فعرض القضاء على جماعة من العلماء فأمتنعوا فأجبر زيادة الله أحمد بن ابى محرز على القضاء .

وكان زيادة الله يفخر بتوليته أحمد بن أبى محرز للقضاء ويعتبره من أهم انجازاته التى تحققت فى مدة ولايته على أفريقية[٢٧] .

ومما يذكر عن زيادة الله مناشدة أياه لأهل القيروان بقوله « يا أهل القيروان لو أراد الله بكم خيرا لم يزل أحمد بن أبى محرز بين أظهركم »[٢٨] .

ولم تشر المصادر الى من شغل منصب القضاء فى الفترة من سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م عقب وفاة أبى محرز حتى سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م تولية أحمد بن أبى محرز .

وأغلب الظن أن الأمير زيادة الله (٢٠١ — ٢٢٣ هـ) ثالث حكام الأغالبة هو الذى أشرف عليها أو ربما يكون استعان ببعض فقهاء القيروان للنظر فيما ينشب بين الرعية من خلافات لأنه من

=

الثانى ، بيروت ، ص ٢٨ — ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ، الطبعة الثانية ، تعليق محمد شمام ، تونس ١٩٧٦ م ، ص ٤٩ — الزركلى : الاعلام ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٥٤ م ، ص ٢٩١ — عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين العرب ، المجلد الاول ، مكتبة المثنى ، بيروت ، ص ٢٤١ دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثانى ، ص ١٠٥ .

(٢٧) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٣٠٨ — ابن الدباغ : معالم الايمان ، جـ ٢ ، ص ٢٦ .

(٢٨) ابن الدباغ : معالم الايمان ، جـ ٢ ، ص ٣١ .

المستبعد أن تخلو القيروان من قاض رسمى خلال تلك السنوات المذكورة سابقا وليس من السهل تأجيل قضايا الرعية لمدة ست سنوات ليتم البت فيها بعد ذلك .

وكان من حق امراء الأغالبة عزل القضاة لأى سبب فعزل الأمير محمد بن اغلب (٢٢٦ هـ / ٨٤٠ — ٨٤١ — ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ — ٨٥٧ م) القاضى عبد الله أبى الجواد[٢٩] .

كما أسند الأمير محمد بن الأغلب قضاة القيروان الى فقيه أفريقية المشهور سحنون بن سعيد بعد أن تردد لمدة عام ولم يوافق سحنون على شغل وظيفة القضاء الا بعد أن حصل على ضمانات الأمير محمد بن الأغلب بتنفيذ أحكامه على أهل بيته ورجال البلاط الأغلبى[٣٠] .

وفى ولاية ابراهيم بن الأغلب (٢٦١ — ٢٨٩ هـ) عزل سليمان ابن عمران الذى عينه زيادة الله (٢٤٦ — ٢٥٠ هـ) على قضاء القيروان[٣١] وعين ابراهيم بن الأغلب عبد الله بن أبى طالب وعظمت منزلته عنده ولما شعر ابراهيم بن الأغلب ميل الناس الى ابن أبى طالب لعدله وسماحته أبان موجة الرخاء وانخفاض الأسعار فخشى

---

(٢٩) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٣٠٥ — ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

(٣٠) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٣٠٥ — ٣٠٦ — عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٣ ، ص ٥٦ — ابن الدباغ : معالم الايمان ، جـ ٢ ، ص ٥٣ — ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ، ص ١٠٩ — المالقى : تاريخ قضاة الاندلس ، ص ٢٨ — ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، الجزء الثالث ، تحقيق أحمد مختار العبادى وآخرين ، الدار البيضاء ١٩٦٤ م ، ص ٢٢ ، هامش ٢ — حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، تونس ، ص ٨٦ .

(٣١) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٢٣٦ — المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .

ابراهيم على ملكه لكونه ابن عمه فعزله ورد سليمان بن عمران الى القضاء ولكن تقدم السن بسليمان جعل ابراهيم بن الأغلب يعيد النظر مرة أخرى فى عزل سليمان وأشار أهل الرأى على ابراهيم بن الأغلب بتولية ابن أبى طالب الذى رفض شغل ذلك المنصب بعد عزله فمد ابراهيم يده الى السيف وقال : ان شئت القضاء وان شئت هذا فقبل ابن أبى طالب ولاية القضاء تحت التهديد بالسيف(٣٢) .

وصفوة القول كان تعيين قضاة القيروان وعزلهم يتم من قبل أمراء الأغالبة فيمن تتوفر فيه شروط شغل منصب القضاء ومما يسترعى الانتباه ان بعضهم رفض العمل فى سلك القضاء فأجبروا من أمراء الأغالبة تحت التهديد بالسيف على توليه .

٤ — علاقة القاضى بدار الخلافة :

ارتبط قضاة القيروان بعلاقات وطيدة مع خلفاء الدولة العباسية فكان الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) يرسل كتابا الى ابن الأغلب ومعه كتابا آخر الى القاضى ابن غانم ويذكر الخليفة هارون الرشيد فى كتابه لابن الأغلب بقوله « وأنا أعلمك انى لا أمسك — أخط — لك كتابا حتى يكون مع كتابك الى كتاب الى ابن غانم »(٣٣) .

وكان الخليفة هارون يكتب فى عنوان الكتاب « من هارون أمير المؤمنين الى قاضى أفريقية عبد الله بن عمر بن غانم »(٣٤) .

وكانت رسائل الرشيد الى ابن غانم تحوى قضايا فى غاية السرية ويتضح ذلك عندما وفد الى أفريقية صاحب البريد يحمل كتابين من الخليفة الرشيد احداهما الى ابن الأغلب والآخر الى ابن

---

(٣٢) عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٣١٠ — ٣١٢ .

(٣٣) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٥٢ — عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٣ ، ص ٦٩ .

(٣٤) ابن الرقيق : تاريخ افريقيا والمغرب ، ص ٢٢٩ .

غانم وعندما فرغ ابراهيم من قراءة كتابه دفعه الى ابن غانم فقرأه وطلب ابن الأغلب منه أن يعطيه كتابه المرسل اليه من قبل الخليفة فرفض ابن غانم فقال له ابراهيم « هات كتابك أقرأه ... » فقال له « فلم قرأت كتابى » قال « أنت دفعته الى ... » ومددت به يدك وكرهت أن أردها وأما أنا فلست أطلعك عليه فان أمير المؤمنين أسر الى فيه شىء لا أطلع عليه أحد »(٣٥) .

٥ ــ علاقة القاضى بالــوالى :

كان تعيين قضاة القيروان فى عصر الأغالبة من قبل الأمراء كما ذكرنا وعزل من لا تتوفر فيه شروط أداء تلك الوظيفة وكانت العلاقة بين الأمراء والقضاة طيبة تقوم على التعاون والتفاهم وعلى الرغم من ذلك كان للقضاة مواقف قوية من الولاة لم يتخلوا عن مكانتهم وهيبتهم فى اقرار الاصلاح الاجتماعى فاذكر منها نماذج على سبيل المثال ففى ذات مرة نظر القاضى ابن غانم الى ابراهيم ابن الأغلب فوجده يحمل قارورة مليئة بالسم فأخذها منه وضربها على عمود وأراق ما فيها فدهش ابراهيم قائــلا « هاه ! مــاذا صنعت ؟ » قال « أفأترك معك ما يقتل الناس »(٣٦) .

وهناك موقف آخر : بعث ابن الأغلب الى القاضى ابن غانم وكان الوقت متأخرا فلما دخل عليه القاضى قال : « يا أبا عبد الرحمن أنى لم أبعث أليك ألا لخير ، أنى لمــا دخلت المسجد أشتغل قلبى من حفظ نفسى فعثرت على حصير فسقطت فظننت بالناس أنهــم

---

(٣٥) ابن الرقيق : تاريخ افريقيا والمغرب ، ص ٢٢٦ ــ عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٣ ، ص ٧٢ .

(٣٦) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٥٠ ــ ابن الرقيق : تاريخ افريقيا والمغرب ، ص ٢٢٦ ــ عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٣ ، ص ٧٢ ــ السراج : الحلل السندسية ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٧٣٦ ــ محمد محمد زيتون : القيروان ودورها فى الحضارة الاسلامية ، الطبعة الأولى ، دار المنار ، القاهرة ١٩٨٨ م ، ص ٢١٢ .

حسبونى منتبذ فأحببت أن تكون براءتى عندك ولا أبالى بغــيرك فاستكهنى » فوجده ابن غانم بريئا[٣٧] .

وكان زيادة الله الأول يكن كل التقدير والاحترام الى القاضى أسد بن الفرات فعندما خرج على رأس حملته الى صقلية لم يعزله عن القضاء قائلا : « أنى لم أعزلك عن القضاء بل وليتك الامارة وهى أشرف من القضاء وأبقيت لك اسم القضاة فأنت قاضى أمير »[٣٨] .

ونسوق دليل آخر أكثر حساسية الأمراء الأغالبة وافق عليه الامير محمد بن الأغلب حيث عرض ولاية القضاء على سحنون فرفض ولم يوافق على ولايته للقضاء الا بعد أن أعطاه الأمير الأغلبى العهــود وكافة الضمانات لممارسة عمله حتى على رجال البلاط الأغلبى لدرجة أنه خوله النظر على أهل بيته وخدمه وحاشيته وينفذ عليهم الحق أن أحبوا أو كرهوا[٣٩] .

مما سبق يتضح أن قضاة القيروان حظوا بمكانة مرموقة من قبل الخلافة العباسية فى بغداد وأمراء الأغالبة .

٦ ــ أعــوان القــاضى :

أعتمد القاضى على مجموعة من الأعوان والموظفين فى أداء واجباته لمساعدته فى انجاز القضايا المعروضة عليه ، وكان القاضى يدقق فى اختيار أعوانه حتى يتسنى له القيام بهذه المهمة على أكمل وجه ، فعندما

---

(٣٧) المالكى : رياض النفوس ، ج ١ ، ص ١٥٠ .

(٣٨) المالكى : رياض النفوس ، ج ١ ، ص ١٨٨ .

(٣٩) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٣٠٥ ــ ٣٠٦ ــ عيــاض : ترتيب المدارك ، ج ٣ ، ص ٥٦ .

أسند الى سحنون قضاء القيروان عكف عدة أيام يلتمس فيها اختيار الأعــوان[(٤٠)] .

وكانت هيئة المحكمة تتشــكل من الآتى :

١ — كاتب القــاضى :

كان القاضى يختار كاتبه ممن له معرفة بمدلولات الألفاظ اللغوية والعرفية وحسن الفطنة[(٤١)] .

ومن كتبة القضاة بالقيروان الذين وصلتنا عنهم اشـــــارات فى المصادر العربية :

(أ) سليمان بن عمران استعان به سحنون فى معاونته على قضاء بجاية وباجة والأربس[(٤٢)] قبل أن يشغل هذا المنصب .

(ب) عبد الله بن هارون السوذانى فى قضاء ســـليمان بن عمــران[(٤٣)] .

(جـ) حسن بن البناء فى قضاء عيسى بن مسكين[(٤٤)] .

---

(٤٠) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٧٣ — عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٥٦ — ابن الدباغ : معالم الايمان ، جـ ٢ ، ص ٥٣ — السيد محمد ابو العزم داود : بنو باديس وحضارتهم بالقيروان والمهدية ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية دار العلوم — جامعـــة القاهرة ١٩٧٨ م ص ٢٧٤ .

(٤١) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٥ م ، ص ٦٠ — ٦١ .

(٤٢) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٢٣٦ — المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٧٥ — ابن الدباغ : معالم الايمان ، جـ ٢ ، ص ٩٩ .

(٤٣) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١٩٣ — ١٩٤ ، بينما ذكر المالقى : تاريخ قضاة الاندلس ، ص ٣١ . ان عيسى بن مسكين عين عبد الله بن محمد بن مفرج كاتبا له .

(٤٤) السبكى : معيد النعم ، ص ٦٢ .

٢ ــ حاجب القــــاضى :

يختص برفع الأمور الى القاضى ٠

٣ ــ نقيب القــــاضى :

وكانت وظيفته تنبيه القاضى على الشهود وتنبيه الشهود على القــــاضى ٠

٤ ــ أمنـــاء القـــاضى :

يقومون بالتحفظ على أموال الأيتام والغائبين[٤٥] وجعــــل سحنون الودائع عند الأمناء وكانت قبل ذلك فى بيوت القضاة[٤٦] ٠

٥ ــ وكــلاء دار القـــاضى :

يؤدون دور المحامين فى الوقت الحاضر[٤٦] ٠

٦ ــ الشـــــهود :

وهم الذين يحضرون مع الخصوم للادلاء بشهادتهم فى الواقعة محــل الخــلاف[٤٧] ٠

٧ ــ مجلس القضـــاء والاجراءات القضـــائية :

كانت تنعقد هيئة المحكمة فى مسجد القيروان فعندما عين أبــو محرز جلس فى المسجد للنظر فى شكاوى الناس[٤٨] ٠

وفى أثناء ولاية القاضى سحنون كثر ازدحام الناس وارتفعت

(٤٥) عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٦٠ ٠

(٤٦) السبكى : معيد النعم ، ص ٦٢ ٠

(٤٧) ابن فرحون : الدباج المذهب ، ص ١٦٤ ٠

(٤٨) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٩٢ ٠

أصواتهم مما يتنافى مع قدسية المسجد فشيد مكانا مستقلا للقضاء ملحقا بالجامع[٤٩] .

وبالنسبة لزى القضاة فوصلتنا أشارات عابرة فى المصادر وهى أنهم كانوا يرتدون القلنسوة فوق رؤوسهم[٥٠] والبعض منهم كأبن غانم ارتدى الملابس الرفعية[٥١] وعندما يذهب للفصل فى المنازعات بين النساء كان يلبس الفرو الخشن وخلق الثياب[٥٢] . أما القاضى حماس بن مروان فلبس الصوف أو قميصا وغلالة[٥٣] ومنديلا وفى وسطه المئزر[٥٤] .

وفيما يختص بطريقة التقاضى فكان الخصوم يدونون مشاكلهم — قضاياهم — على الشفاف فيها قصصهم مكتوب[٥٥] . أما توقيع العقوبة فكان يتم بواسطة القاضى فكان سحنون يضرب بالدرة وما خف من الأدب احتراما لقدسية المسجد وعند اقامة الحدود على المتخاصمين يخرجهم من المسجد و فى أغلب الأحيان كان يؤدب بلطم القفا[٥٦] وكان يضرب الخصوم اذا أذى بعضهم بعضا بكلام أو تعرضوا للشهود بعيب أو تجريح .

---

(٤٩) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٦٤ .

(٥٠) المالكى : رياض النفوس ، ج ١ ، ص ١٥١ — ابن الرقيق : تاريخ أفريقيا والمغرب ، ص ٢٢٦ — لباس للرأس متعدد الانواع والأشكال انظر المعجم الوجيز ، القاهرة ١٩٩٢ م ، ص ٥١٢ .

(٥١) ابن الرقيق : تاريخ أفريقيا والمغرب ، ص ٢٣٠ .

(٥٢) عياض : ترتيب المدارك ، ج ٣ ،ص ٦٩ . — السراج : الحلل السندسية ، ج ١ ، ق ٤ ، ص ٦٧٤ — محمد محمد زيتون : القيروان ودورها فى الحضارة الاسلامية ، ص ٢١٠ .

(٥٣) ثوب رقيق يلبس تحت الدثار ، المعجم الوجيز ، ص ٤٥٤ .

(٥٤) عياض : ترتيب المدارك ، ج ٥ ، ص ٦٩ .

(٥٥) المالكى : رياض النفوس ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(٥٦) عياض : ترتيب المدارك ، ج ٤ ، ص ٦١ .

وكان يؤدب الناس على الايمان التى لا تجوز من الطـلاق والعتق حتى لا يحلفوا بغير الله عز وجل[٥٧] ، كما جعل سـحنون للقضاء سجنا خاصـا[٥٨] .

٨ — محـكمة المظـالم :

كانت ولاية المظالم تدخل بحسب أصولها فى نطاق القضاء ، وكان لوالى المظالم سلطات أوسع من القاضى وقد عبر الماوردى[٥٩] عن نظر المظالم بقوله « هو قود المتظلمين الى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة ظاهر العفة قليل الطمع كثير الورع لأنه يحتاج فى نظره الى سطوة الحماة وثبت القضاة فيحتاج الى الجمع بين صفات الفريقين وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمـر فى الجهـتين » .

ويذكر الماوردى أن هيئة محكمة المظالم تتألـف من خمس جمـاعات هم :

١ — الحمـاة والأعـوان .

٢ — القضـاة والحكام .

٣ — الفقهـاء .

٤ — الكتـاب .

٥ — الشـهود .

أما عن اختصاصات قاضى المظالم فهى :

---

(٥٧) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٧٦ — ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٢٦٣ .

(٥٨) السيد محمد أبو العزم داود : بنو باديس وحضارتهم بالقيروان والمهدية ، ص ٢٧٤ .

(٥٩) الأحكام السلطانية ، ص ٦٤ .

١ — النظر فى تعدى الولاة على الرعية .

٢ — تعسف العمال فى جبـــاية الضرائب .

٣ — كتاب الدواوين الأنهم أمناء المسلمين على ثبوت أموالهم .

٤ — تظلم المسترزقة من نقص أرزاقهم .

٥ — رد الغصـــوب .

٦ — تنفيذ ما عجز عنه القضاة .

٧ — الاشراف على الأوقـــاف .

٨ — النظر فيما عجز عنه المحتسب .

٩ — مراعاة العبادات الظاهرة .

١٠— الفصـــل بـ ين المنازعات التى تنشب بين الأفراد(٦٠) .

وفيما يختص بولاية المظالم بالقيروان فى عصر الأغالبة فالمعلومات التى وصلتنا غير كافية فهى عبارة عن شذرات مندثرة فى بطـــون المصادر وهى أنه فى ولاية القاضى سحنون أسندت ولاية المظـــالم بالقيروان فى سنة ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م الى حبيب بن نصر التميمى(٦١) وهو من أبناء الجند القادمين من أفريقية تنقه على سحنون وكان فقيها ثقة وله كتاب سماه « الأقضية » وتوفى سنة ٢٨٧هـ / ٩٠٠ م(٦٢) .

وفى قضاء عيسى بن مسكين أسندت ولاية المظالم الى ســـليمان

---

(٦٠) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ٦٧ — ٧٠ — عطيـــة مصطفى مشرفة : القضاء فى الاسلام ، ص ١٨٢ — صابر محمد دياب : ولاية المظالم ومجالسها ، مطبعة الامانة ، القاهرة ١٩٨٤ م ، ص ٧٥ — ٨٦ .

(٦١) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١٩٢ — ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ، ص ١١١ .

(٦٢) أبو العرب : طبقات علماء افريقية ، ص ٤٣ هامش ٢ .

ابن عمران ومنحه راتبا حوالى مائة دينار ثم عزله وعـــين مكانه ابراهيم بن الخشاب[٦٣] •

٩ ــ نمــاذج لبعض الأقضية والأحكام :

ومن أهم القضـــايا التى شهدتها ساحة محكمة القيروان فى عصر الأغالبة هى الأولى قضايا خاصة بالمرأة والثانية خاصة بشهادة زور والثالثة تأخير مستحقات مالية •

أولا ــ قضـــية المــرأة :

اهتم قضاة القيروان بشئون المرأة اهتماما بالغا الأمر الذى جعل القاضى أبا محرز يخصص يوما للنظر فى أحوال المرأة عند بابه الذى يوجد فى رقاق ابن أبى دينـــار[٦٤] •

كذلك لم يتهاون القاضى سحنون فى ردع المخالفات منهن حتى تثبت براءتهن كما رفض سحنون طلب المرأة التى تعمل بالقصـــر عندما حاولت أن تقطع بشرطها (تطلب الطلاق) بعد ما طـــال غياب زوجهـــا • فحذرها سحنون بلهجة الواثق من نفسه بقوله : « أياك أن تشهدى أحدا من أهل القصر لا أقبل شهادتهم »[٦٥] •

ثانيـــا : قضـــية شهادة زور :

وقد حدث فى ولاية القاضى أبى محرز أن رجلين تعدى أحدهما على الآخر وأحضر شاهدين بعد أن تحرى أبو محرز عن الشاهدين ، وعندما أراد أن ينطق بالحكم جاء الرجل المشهود عليه بعد صـــلاة المغرب وقال لأبى محرز : « أيها القاضى ! عزمت على أن تحكم على ؟

---

(٦٣) عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٣٤٢ •

(٦٤) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٨٩ •

(٦٥) عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٦١ •

قال القاضى نعم ! » قال المشهود عليه « أمرأته — أمراتى — طالق ثلاثا وكل ملوك له — لى — حر أن كان شهدعلى هذا ألا يزور » فقال أبو محرز : « ليس هذا على وأنا قد كشفت عنهما فلم يبلغنى عنها الا خيرا » فلما أصبح أبو محرز توجه الى مجلس قضاته فجلس فأقبل المشهود له فقال له : « أحكم لى أصلحك الله » فقال « نعم لكن تأتى معك بالشاهدين اللذين شهدوا لك فأنى أريد أن أسألهما عن شىء بقى على لم أسالهما عنه » .

فمضى الرجل وأحضرهما فلما جلسا فى مجلس القاضى أبو محرز قال القاضى بأعلى صوته : « يا شكريد ! ان فى حلقتى شاهدى زور فامضى الى باب سلم فجئنى بجملين حتى تحملهما عليهما » .

وهنا هرب الشاهدان ثم قال أبو محرز للمشهود له « أين شاهداك » فقال « ها هنا كانا الساعة ولا أدرى أين توجها » فقال له أبو محرز « يا عدو الله ! تجترى على بشهود الزور »(٦٦) .

ثالثا — قضية تأخير مستحقات مالية :

كانت فى ولاية القاضى ابن غانم ففى احدى جلساته فى المجلس القضائى تقدم نخاسو البغال بشكوى فحواها « أشترى منا أبو هارون مولى موسى مولى ابراهيم بن الأغلب بغالا بخمسمائة دينار ولم يدفع الينا شيئا فضم ديوانه وأسرع الى ابن الأغلب وذكر له أمر المتظلمين من أبى هارون فأستدعاه وأعترف بالمبلغ وقال : « أنما أخرته لتجبى خراج قسطيلية فاذا جاء دفعت اليهم فقال ابن الأغلب أنما ظننت أنه يجحد فأوقفه معهم موقف الخصوم — فقال القاضى : فأما اذ أقر فأنى لا أبرح حتى تدفع اليهم أموالهم »(٦٧) .

---

(٦٦) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٨٩ — ١٩١ .

(٦٧) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٤٨ — ١٤٩ .
— عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٣ ، ص ٧٠ .

وهكذا كان قضاة القيروان يقومون بالفصل فى كافة القضايا من وازع ضميرهم لاعطاء كل ذى حق حقه بحرية مطلقة دون تدخل من قبل امراء الأغالبة .

١٠ — أشهر قضاة القيروان فى عصر الأغالبة :

١ — أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن غانم بن شرحبيل ابن ثوبان الرعينى (١٧١ هـ / ٧٨٦ م — ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م) .

قدم أبو عبد الرحمن عبد الله بن غانم مع والده فى جيش بنى أمية المتجه الى بلاد المغرب ، وأبلى والده بلاء حسنا فى موقعة القرن والأصنام التى أعلنها حنظلة بن صفوان (١٢٤ هـ / ٧٤١ م — ١٢٧ هـ / ٧٤٤ — ٧٤٥ م) أمير أفريقية على الخوارج أثناء محاولتهم الاستيلاء على القيروان(٦٨) .

وكانت نشأة ابن غانم علمية فلزم مالك بن أنس(٦٩) رضى الله عنهما وسمع من ابراهيم بن أنعم وخالد بن عمران ثم رحل الى الحجاز والشام والعراق فسمع من مالك ومن سفيان الثورى(٧٠) وعثمان بن الضحاك(٧١) . وقد عين على قضاء أفريقية سنة

---

(٦٨) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٤٣ .

(٦٩) ولد الامام مالك بن انس رضى الله عنه فى سنة ٩٣ هـ/٧١١ م فى خلافة الوليد بن عبد الملك وهو أحد ائمة علماء الحديث — ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٨ .

(٧٠) أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثورى الكوفى أمير المؤمنين فى الحديث وأية فى الحفظ سمع من كبار التابعين وغيرهم اتفق العلماء على وصفه بالبراعة فى العلم والحديث وفى منزلته بين العلماء اوفى علمه وفضله توفى بالبصرة سنة ١٦١ هـ انظر ابو العرب : طبقات علماء افريقية ، ص ٩٥ حاشية ٦ — ابن سعد : الطبقات الكبرى ، المجلد السادس ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٧ م ، ص ٣٧١ — ٣٧٣ .

(٧١) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٤٣ — ١٤٤ . — عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٣ ، ص ٦٦ .

١٧١ هـ / ٧٨٦ — ٧٨٧ محتى وافته النيه سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٥ — ٨٠٦ م[٧٢] .

٢ — أسد بن الفرات بن سنان مولى بنى سليم بن قيس (كنيته أبو عبد الله) :

ولد أسد سنة ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م بحران من ديار بكر وأصله من مدينة نيسابور حاضرة خراسان وفد أبوه مع جيش محمد بن الأشعث[٧٣] سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م ومكث بالقيروان خمس سنوات ثم رحل الى تونس حيث مكث هناك تسع سنوات وتلقى تعليم القرآن باحدى قرى وادى بجردة[٧٤] .

وتتلمذ أسد على يد على بن زياد فسمع منه الموطأ ثم رحل الى المشرق ولقى مالك بن أنس رضى الله عنه فسمع منه ولزم محاضراته فى المؤطا .

ثم رحل الى العراق فلقى أصحاب أبى حنيفة أبى يوسف وأسد بن عمر وكتب أسد الحديث أثناء وجوده بالعراق وعاد الى

---

(٧٢) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٣٤ — المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ص ١٤٣ — ابن الرقيق : تاريخ أفريقيا والمغرب ، ص ٢٢٨ .

(٧٣) كان محمد بن الأشعث واليا على مصرمن قبل الخليفة ابو جعفر المنصور وعندما عاث وربجومة فسادا بالقيروان وفر منها جماعة من العرب الى أبو جعفر المنصور يستنجد ربه لنصرتهم فأمر ابو جعفر المنصور بن الاشعث بالمسير الى المغرب بقوة مكونة من أربعين الفا فالتقى مع أبا الخطاب بسرت وهزمه سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م — النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ، ص ٧٤ — ٧٥ — السلاوى : الاستقصاء ، جـ ١ ، ص ٥٧ .

(٧٤) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٧٢ — الزركلى : الاعلام ، جـ ١ ، ط ٢ ، ص ٢٩١ — عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، جـ ١ ، ص ٢٤٠ .

مصر فلقى ابن القاسم[٧٥] واستفاد من علمه الغزير وأخذ عنه « الأسدية » وعاد بها الى القيروان وسمعها أهل المغرب[٧٦] .

وكان أسد بن الفرات يحدثنا عن نفسه بقوله « أنا أسد وهو خير الوحوش وأبى الفرات هو خير المياه وجدى سنان وهو خير السلاح »[٧٧] .

أسند اليه زيادة الله (٢٠١ — ٢٢٣ ه / ٨١٦ — ٨٢٨ م) قضاء القيروان سنة ٢١٣ ه / ٨٢٨ م[٧٨] الى جانب أبى محرز فكان يقضيان جميعا وهما أول قاضيان يعينان على القيروان فى وقت واحد[٧٩] .

٣ — عبد السلام سحنون[٨٠] بن سعيد بن حبيب التنوخى :

---

(٧٥) أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم المعتقى ١٢٨ — ١٩١ ه فقيه مالكى مصرى أصله من الشام روى عن ابن عينية والليث بن سعد وابن الماجشون واخذ عنه اهل المغرب . أبو العرب : طبقات علماء افريقية ، ص ١٥١ ، احشية ٥ .

(٧٦) أبو العرب : طبقات علماء أفريقية وتونس ، ج ٢ ، ص ١٦٣ — ٦٤ ، عياض : ترتيب المدارك ، ج ٣ ، ص ٢٩١ — ٢٩٧ — المالكى : رياض النفوس ، ج ١ ، ص ١٧٣ — ابن الدباغ : معالم الايمان ، ج ٢ ، ص ٣ — دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

(٧٧) ابن فرحون : الديباج ، ص ٩٨ .

(٧٨) المالكى : رايض النفوس ، ج ١ ، ص ١٧٣ — أحمد عطية الله : القاموس الاسلامى ، المجلد الأول ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٣ م ، ص ٩٢ .

(٧٩) أبو العرب : طبقات علماء افريقية وتونس ، ص ١٦٦ . — الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٣٠٥ — المالكى : رياض النفوس ، ج ١ ، ص ١٨٥ — ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٩٧ — دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

(٨٠) سمى سحنون لحدة ذكائه — ابن خلكان : وفيات الاعيان ، الجزء الثالث ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٧ م ص ١٨٢ — ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

ولد بالقيروان سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م[٨١] وأصله شـامى من حمص[٨٢] تلقى العلم بافريقية على يد علمائها أبى خارجة وبهلول وعلى بن زايد وابن غانم ورحل الى المشرق طلبا للعلم سـنة ١٨٨ هـ / ٨٠٣ م .

وسمع فى رحلته الى مصر والحجاز من ابن القاسم وابن وهب وأشهب وعاد الى أفريقية سنة ١٩١ هـ / ٨٠٦ م[٨٣] وصنف سحنون « المدونة » على مذهب الامام مالك ويعزى له الفضل بنشر مذهب مالك بالمغـرب[٨٤] .

ثم ولى قضاء أفريقية سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م وأستمر فى القضاء حتى توفى سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م[٨٥] ولم يتقاضى سحنون أجرا على مدة قضائه[٨٦] .

---

(٨١) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٤٩ — ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، جـ ٣ ، ص ٢٢ ، ص ٢ — حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص ٨٥ .

(٨٢) أبو العرب : طبقات علماء أفريقية ، ص ١٨٤ — المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٤٩ — عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٤٥ — ابن خاكان : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٤٩ — ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٦٠ — الزركلى : وفيات الايمان ، جـ ٣ ، ص ١٨١ .

(٨٣) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٥٠ — عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٤٦ — ٤٧ — ابن فرحون : الديبـاج المذهب ، ص ١٦٠ .

(٨٤) ابن لخكان : وفيات الايمان ، جـ ٣ ، ص ١٨١ — ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٦١ .

(٨٥) أبو العرب : طبقات علماء أفريقية ، ص ١٨٥ — عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٥٥ — اليافعى : مرآة الجنان ، جـ ٢ ، ص ١٣١ — ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

(٨٦) المالقى : تاريخ قضاة الاندلس ، ص ٣٠ .

وامتدحه أبو العرب[٨٧] بقوله « كان جامعا للعلم فقيه البدن اجتمعت فيه خلال قلما اجتمعت فى غيره الفقه البارع والورع والصادق — والصدق — والصراحة فى الحق والزهادة فى الدنيا والتخشن فى الملبس والمطعم والسماحة .

٤ — عيسى بن مسكين بن منصور بن جريح بن محمد الافريقى :

ولد عيسى بن مسكين سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م وأصله من العجم من أهل الساحل سمع من سحنون وابنه محمد[٨٨] جميع كتبه وسمع بالمغرب من غيرهما ورحل الى مصر فالتقى بجماعة من علمائها منهم يونس[٨٩] بن عبد الأعلى وسمع بالشام من أبى جعفر الأيلى[٩٠] .

وكان عيسى بن مسكين فقيها عالما فصيحا ورعا مهيبا وقورا ثقة مأمونا صالحا[٩١] ، وعين واليا للقضاء لمدة ثمان سنين وأحد عشر

---

(٨٧) طبقات علماء افريقية ، ص ١٨٤ .

(٨٨) كان محمد بن سحنون غزير العلم وله مؤلفات فى كافة فنون العلم ومن أشهرها كتاب الجامع والمسند فى الحديث وتفسير الموطأ وآداب المعلمين .. الخ — ابن سحنون : آداب المعلمين ، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ، دار الكتب الشرقية ، تونس ١٩٧٢ م ، ص ٢٥ (مقدمة المحقق) .

(٨٩) ولد فى ذى الحجة سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م وتوفى فى ربيع الآخر سنة ٢٦٤ هـ وكانت وفاته بمصر ودفن بمقابر الصدف وقبره مشهور بالقرافة — ابن خلكان : وفيات الايمان ، جـ ٧ ، ص ٢٥٢—٢٥٣ .

(٩٠) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١٩٣ — عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٣٣١ — ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٧٩ .

(٩١) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٧٩ .

شــهرا[٩٢] ولم يتقاضى على مدة قضائه أجرا[٩٣] وتوفى ســنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م[٩٤] .

٥ ـ حماس بن مروان بن سماك الهمدانى (كنيته أبو القاسم القــاضى) :

ولد حماس سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م ومنذ طفولته حرص على السماع لسحنون فسمع عنه « المدونة » وتردد على علماء افريقية فسمع من حماد السجلماسى[٩٥] وابن عبدوس[٩٦] .

أسند زيادة الله (٢٩٠ هـ ـ ٢٩٦ هـ) ولاية القضاء الى حماس سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م[٩٧] .

وحدث خلاف بن حماس وابن الصائغ صاحب البريد كبير دولة زيادة الله وكان حماس لم يخوله أدنى اهتمام الأمر الذى أثار حفيظة ابن الصائغ فألح على زيادة الله بتعيين ابن جيمــال فى القضاء وبدأ يدبر المكايد الى حماس فرفع ديوانه ومضى الى

---

(٩٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٨١ .

(٩٣) عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٣٤١ .

(٩٤) عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٣٥٠ .

ـ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٨١ .

(٩٥) وضع فى عداد أهل القيروان سمع من عبد الله بن بكر السهمى وابن الماجشون وهو أول من قدم بفقه ابن الماجشون القيروان وسمع من سحنون وكان شيخا صالحا تاجرا وكان فى كتبه بصحيف كثيرة لم يكن يقوم بها . انظر عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٣ ، ص ٩ .

(٩٦) عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٥ ، ص ٦٦ ـ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٠٨ .

رقادة وطلب اعفائه من القضاء فأعفى فى جمادى سنة ٢٩٤ هـ / ٩٠٦ م[٩٨] وتوفى سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م ٩١٥ م[٩٩] .

* * *

(٩٧) عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٥ ، ص ٧٠ — ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٠٩ .

(٩٨) عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٥ ، ص ٧٢ — ٧٣ .

(٩٩) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٠٩

الخاتمـــــة

لقد سجل قضاة القيروان صفحة رائعـــة ومشرقة فى تاريخ القضاء فى الاسلام فكانوا لا يخشون فى اقامة العدل بين الرعيـــة على كافة مستوياتهم لومة لائم .

وساهموا بدور فعال فى غرس القيم الاسلامية والصـــفات الحميدة فى كيان المجتمع الأغلبى ووقف قضاة القيروان بالمرصـــاد للعادات الشاذة التى طرأت على المجتمع آنذاك فى بعض الأحيان .

فليس من المستبعد أن يكون الانتعاش الاقتصادى بأفريقية فى عصر الأغالبة من أهم أسبابه استقرار الأوضاع الأمنيـــة على الصعيد الداخلي بفضل قوة القضاة وهيبتهم وردع العابثين والمخالفين الخارجين عن القانون والفصل فى قضاياهم على وجه السرعة لإعطاء كل ذى حق حقه .

ويمكننى أن أستخلص من خلال البحث النتائج الآتية :

١ ــ كانت الخلافة العباسية تنظر الى قضاة القيروان باحترام وتقدير ، وكانت الرسائل المتبادلة بين الخليفة الرشيد والقاضى ابن غانم خير دليل على ذلك .

٢ ــ على الرغم من أهمية ومكانة القاضى فى الدولة الاسلامية ، فاننا نجد أن كثيرا من قضاة القيروان كانوا يعزفون عن شـــغل خطة القضاء ومرجع ذلك لخطورتها حسبما ورد فى تعاليم الشريعة الاسلامية الغراء ، حتى أن بعضهم قبلها تحت التهديد بالسيف .

٣ ــ كان قضاة القيروان أول من أشرفوا على الأســـواق وأدخلوا الحسبة ضمن خطة القضاء وفرضوا رقابتهم الشديدة على مراقبة الأسعار والموازين والمكايل .

٤ ــ بلغ عدد قضاة القيروان فى عصر الأغالبة ستة عشر قاضيا كانوا من خارج البيت الأغلبى فيما عدا قاض واحد هو عبد الله بن أحمد بن أبى طالب .

ويمكننى أن أفند قضاة القيروان على النحو التالى :

(أ) قضاة شغلوا خطة القضاء حتى وفاتهم هم ابن غانم وأبو محرز وأسد بن الفرات الذى نال الشهادة فى حربه ضد الروم بجزيرة صقلية ثم أحمد بن أبى محرز وسحنون بن سعيد وعيسى ابن مسكين .

(ب) تعيين قاضيان فى آن واحد حدثت فى القيروان فى عصر الأغالبة ثلاث مرات :

الأولى : فى قضاء أبى محرز فعين على القضاء الى جانبه أسد بن الفرات .

الثانية : فى قضاء سحنون عندما تشدد فى تطبيق الأحكام على أفراد البيت الأغلبى فشاركه الطبنى .

الثالثة : فى قضاء حماس بن مروان فعين الى جانبه محمد ابن أحمد بن جيمال نظرا للخلاف الشخصى بين حماس وصاحب البريد ولكن حماس طلب أن يعفى من هذا المنصب وتم له ذلك فى سنة ٢٩٠ هـ .

(جـ) قضاة عزلوا وتتفاوت أسباب العز ل من قاض لآخر وهم عبد الله بن أبى الجواد وسليمان بن عمران وعبد الله بن أحمد ابن أبى طالب ومحمد بن الأسود وحماس بن مروان وابراهيم بن الخشاب آخ رقضاة القيروان الذى عزل على يد عبيد الله الشيعى عندما دخل القيروان وأعلن قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب .

ثبت بقضاة القيروان فى عصر الأغالبة

القـــاضى	التولية	العزل	الوفاة	ملاحظـــات
١ ــ أبو عبد الرحمـــن عبد الله بن عمر بن غانم ابن شرحبيل بن ثوبان الرعينى	١٧١ هـ		١٩٠ هـ	كان على قضاء القيروان قبل قيام دولة الأغالبة .
٢ ــ أبو محرز محمـــد ابن عبد الله قيـــس بن يسار بن سليم الكنانى	١٩١ هـ		٢١٤ هـ	لأول مـــــرة فى تاريخ المغرب يعين قاضيان فى وقت واحد أبو محـــرز وأسد بن الفرات .
٣ ــ اسد بن الفـــرات بن سنان مولى بن سليم ابن قيس	٢٠٣ هـ		٢١٣ هـ	استشهد أسد ســـــنة ٢١٣ هـ وهـــو محاصر لسرقوسة .
٤ ــ احمد بن ابى محرز	٢٢٠ هـ		٢٢١ هـ . ٧٢ ه	لا تشير المصادر الى من شغل منصب القضاء منذ سنة ٢١٤ هـ حتى تولية احمد بن ابى محرز سنة ٢٢٠ هـ .
٥ ــ عبد الله بن أبى الجـــواد		٢٣٢ هـ		
٦ ــ سحنون بن سعيد	٢٣٤ هـ		٢٤٠ هـ	لم يتقاضى سحنون اجرا على القضاء .
٧ ــ الطبنى				عندما تشدد سحنون فى تطبيق احكامه على رجال البلا ط والبيت الأغلبى فدبروا مكائدهم له فعين ابو العباس محمـــد بن الأغاب الطبنى الى جانب سحنون .

٨ ـ سليمان بن عمران	٢٤٢ هـ	٢٥٧ هـ		
٩ ـ عبد الله بن احمد	٢٥٧ هـ	٢٥٩ هـ		
	٢٥٩ هـ	٢٦٧ هـ		
	٢٦٧ هـ	٢٧٥ هـ		
١٢ ـ ابو العباس محمد ابن عبدون				مدة قضائه ثلاثين شهرا
١٣ ـ عبد الله بن هارون السوذانى				مكث فى القضاء لمدة عامين
١٤ ـ عيسى بن مسكين			٢٩٥ هـ	استمر فى القضاء ثمان سنين واحدى عشر شهرا .
١٥ ـ محمد بن الأسود الصدينى		٢٩٠ هـ		
١٦ ـ حماس بن مروان	٢٧٠ هـ	٢٩٤ هـ		طلب اعفائه من القضاء ولم يتقاضى اجرا .
١٧ ـ محمد بن احمد بن جيمال				عين فى القضاء الى جانب حماس للخلاف الشخصى بين حماس وصاحب البريد .
١٨ ـ ابراهيم بن الخشاب		٣٠٣ هـ		آخر قضاة الأغالبة وعزله عبد الله الشيعى عندما دخل القيروان .

جـــدول يمثل تسلسل الأغالبة

الأغلب بن ســـالم

↓

(١) ابراهيم (١٨٤ ــ ١٩٦ هـ)

↓

(٢) عبـد اللـه الأول (١٩٦ ــ ٢٠١ هـ) — (٣) زيادة الله (٢٠١ ــ ٢٢٣ هـ) — (٤) ابو عقـال الأغلب (٢٢٣ ــ ٢٢٦ هـ)

- (٢) عبد الله الأول ↓ محمـد
- (٤) ابو عقال الأغلب ↓ احمـد — (٥) محمـد الأول ابو العبـاس (٢٢٦ ــ ٢٤٢ هـ)

(٥) محمد الأول ابو العباس ↓

(٦) احمـد (٢٤٢ ــ ٢٤٦ هـ) — (٧) زيادة الله الثـانى (٢٤٦ ــ ٢٥٠ هـ)

(٦) احمد ↓

(٨) محمـد الثـانى (٢٥٠ ــ ٢٦١ هـ) — (٩) ابراهيـم الثـانى (٢٦١ ــ ٢٨٩ هـ)

- (٨) محمد الثانى ↓ ابو عقـال
- (٩) ابراهيم الثانى ↓ (١٠) عبد الله الثـانى (٢٨٩ ــ ٢٩٠ هـ) ↓ (١١) زيادة الله الثالث

ــ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢١٢ .

ــ زامبـاور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الأسلامى ، الجزء الاول أخرجه زكى محمد حسن وحسن احمد محمود ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١ ، ص ١٠٦ .

المصـــادر والمراجـــع

أولا ــ المصـــادر :

١ ــ ابن أبى دينـــار : (أبى عبد الله حمد بن أبى القاســم الرعينى القيروانى)
« المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس » ، الطبعة الثانية ، تحقيق وتقديم محمد شمام ، تونس ١٩٧٦ م •

٢ ــ ابن الأثـــــير : (على بن أحمد بن أبى الكرم ت ٦٣٠ هـ)
« الكامل فى التاريخ » ، الجزء الخامس ، دار الفكر ، بيروت (د• ت) •

٣ ــ أبو العـــرب : (محمد ابن أحمد بن تميم التميمى ت ٣٣٣ هـ)
« طبقات علماء أفريقية وتونس » ، تحقيق على الشـابى وآخـرين ، الدار التونسـية للنشر ١٩٦٨ م •

٤ ــ الخشـــنى : (أبى عبد الله حمد بن حارث بن أســـد القيروانى ت ٣٦١ هـ)
« قضاة قرطبة وعلماء أفريقيـة وتونس » ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القـــاهرة ١٩٦٦ م •

٥ ــ ابن الخطيـب : (الوزير الغرناطى لسان الدين)
« أعمال الاعلام » ، الجزء الثالث ، المنشـور باسم « تاريخ المغرب فى العصر الوسـيط » ،

تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادى وآخرين ، الدار البيضاء ١٩٦٤ م •

٦ — ابن خلدون : (عبد الرمحن بن ممحد بن جابر ت ٨٠٨ هـ)
« العبروديوان المبتدأ والخبر » ، الجزء الرابع ، دار الفكر ، بيروت •

٧ — ابن خلكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم ت ٦٨١ هـ)
« وفيات الأعيان » ، الجزء الثالث، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٧ م •

٨ — ابن الدباغ : (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الانصارى ٦٠٥ — ٦٩٦ هـ)
« معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان » ، الجزء الثانى، تونس ١٣٢٠ هـ •

٩ — ابن الرقيق : (ابراهيم بن القاسم توفى بعدسنة ٤١٧ هـ)
« تاريخ أفريقيا والمغرب » ، تحقيق المنجى الكعبى ، تونس ١٩٦٧ م •

١٠ — السبكى : (تاج الدين بن عبد الوهاب ت ٧٧١ هـ)
« معيد النعم ومبيد النقم » ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٥ م •

١١ — ابن سحنون : (محمد بن سحنون ت ٢٥٦ هـ)
« آداب المعلمين » ، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٩٧٢ م •

١٢ ـ الســـــراج : (أبو عبد الله محمــد)
« الحلل الســندسية فى الأخبار التونســية » ،
الجزء الأول ، القسم الأول ، تونس ١٩٧٠ م .

١٣ ـ ابن ســـعد : (محمد بن مسعد كاتب الواقدى ت ٢٣٠ هـ)
« الطبقات الكبرى » ، الجزء السادس ، دار
صـــادر ، بيروت ١٩٥٧ م .

١٤ ـ الســـــلاوى : (أحمد بن خالد الناصرى)
« الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى » ،
الجزء الأول ، القاهرة ١٣١٢ هـ .

١٥ ـ الصـــــــفدى : (صلاح الدين خليل بن أبيك)
« الوافى بالوافيـــات » ، الجزء الثانى ، الطبعة
الثانية ، باعتنـــاء يوسف فان اس فيســـبادن
١٩٨١ م ، الجزء السادس ، الطبعة الثانية ،
باعتناء مس ديد رنيغ فيسبان ١٩٨١ م .

١٦ ـ ابن عـــذارى : (أبو عبد الله محمد توفى فى أواخر القرن
السابع الهجـرى)
« البيـــان المغـــرب فى أخبـــار المغـــرب » ،
نشر وتحقيـــق كولان وبروفنسال ، ليـــون
١٩٤٨ م .

١٧ ـ ابن العمـــاد الحنبلى : (أبو الفلاح عبد الحى ت ١٠٨٩ هـ)
« شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » ، الجزء
الثانى ، بيروت .

١٨ ــ عيـــاض : (القاضى عياض بن موسى بن عياض السبتى ت ٥٤٤ هـ)

« ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مـالك » ، الأجـزاء الثـالث والرابع والخامس ، الرباط

١٩ ــ ابن فرحـــون :) برهان الدين على بن محمد ت ٧٧٩ هـ)
« الديباج المذهب فى أعيان المذهب » ، القاهرة ١٣٢٣ هـ •

٢٠ ــ المـــالقى : (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى)
« تاريخ قضاة الاندلس » ، الطبعة الخامسة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٣ م •

٢١ ــ المـــالكى : (أبى بكر عبد الله بن أبى عبد الله توفى حوالى منتصف الخامس الهجرى)

« رياض النفوس فى طبقات علماء القـيروان وأفريقية » ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، تحقيـق حسـين مؤنس ، النهضـة المصرية ، القاهرة ١٩٥١ م •

٢٢ ــ المـــاوردى : (أبو الحسن بن على بن محمـد البصرى ت ٤٥٠ هـ)

« الأحكام السلطانية » ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٠٩ م •

٢٣ ــ النـــويرى : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣ هـ)
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، تحقيـق حسين نصار ، ومراجعة عبد العزيز الأهوانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٣ م •

٢٤ ــ وكيـــــــع : (محمد بن خلف بن حيـــان)
« أخبـــار القضـــاة » ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، تصحيح وتعليق عبد العزيز مصطفى ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٩٤٧ م .

٢٥ ــ اليـــــــافعى : (أبو محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان ت ٧٦٨ هـ)
« مرآة الجنـــان وعبرة اليقظان » ، الجـــزء الثانى ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٠ م .

ثانيــا : المراجــع العربية الحديثــة :

١ ــ أحمد بن أبى الضياف : أتحاف أهل الزمان بأخبار ملـــوك تونس فى عهد الأمان ، الجزء الأول ، تونس ١٩٦٣ م .

٢ ــ أحمد عطيـــة الله : القاموس الاســـلامى ، المجلد الأول ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٣ م .

٣ ــ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، الجزء الثانى ، الطبعة السادسة ، النهضة المصرية ، القـــاهرة ١٩٦٧ م .

٤ ــ حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، تونس .

٥ ــ دائرة المعـــارف الاسلامية :

٦ ــ رشيد عبد الله الجميلى : دراسات فى تاريخ الخلافة العباسية ، الطبعة الأولى ، الرباط ١٩٨٤ م .

٧ — زامبـاور : معجم الأنساب والاسرات الحاكمة فى التـاريخ الاسلامى ، أخرجه زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود ، طبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١ م .

٨ — الزركلى : الاعلام ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٤ م .

٩ — سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، الجـزء الثانى ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٧٩ م .

١٠ — السيد محمد أبو العزم داود : بنو باريس وحضارتهم بالقيروان والمهدية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ١٩٧٨ م .

١١ — صابر محمد دياب : ولاية المظالم ومجالسها منذ فجر الاسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجـرى ، مطبعـة الأمانة ، القاهرة ١٩٨٤ م .

١٢ — عطية مصطفى مشرفة : القضاء فى الاسلام ، الجزء الأول ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ١٩٣٩ م .

١٣ — عمر رضـا كحالة : معجم المؤلفين ، المجلد الأول ، مكتبـة المثنى ، بغداد .

١٤ — مجمع اللغة العربية : المعجم الوجيز ، القاهرة ١٩٩٢ م .

١٥ — محمـد المطلبى : تراجم أغلبية مأخوذة من ترتيب المدارك للقاضى عياض ، تونس ١٩٦٨ م .

١٦ — محد زينهم محد غرب : فقيه أفريقية أبى سعيد عبد السلام ابن سعيد الملقب بسحنون ودوره فى التطـور

الفكرى فى المجتمع الأغلبى ، رسالة دكتوراه
غير منشورة ، آداب القاهرة ١٩٨٦ م .

١٧ ــ محمد محمد زيتون : القيروان ودورها فى الحضارة الاسلامية ،
الطبعة الأولى ، دار المنار ، القاهرة ١٩٨٨ م .

١٨ ــ مصطفى الشكعة : معالم الحضارة الاسلامية ، الطبعة
الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٢ م .

* * *

نشـــأة الـكويت

دكتورة/ فتوح عبد المحسن الخترش
جامعة الكويت ـــ كلية الآداب
قسم التاريخ

نشـــأت الكويت على أرض عربية هى جزء أصـيل جغرافيـا وتاريخيا من شبه الجزيرة العربية ، وهذه الأرض تقع ضمن الامتداد الجغرافى والسياسى للاقليم الذى يمثل الساحل الغربى للخليج والذى عرف قبل الاسلام ولعهود طويلة باقليم البحرين ، وكانت هــذه التسمية تشمل ـــ فضلا عن جزء البحرين الحالية ، كلا من الاحساء وشبه جزيرة قطر ، وأراضى كاظمة (القرين فيما بعد ، والكويت اليــوم) • وحتى حدود البصرة شمالا ، فى حين تمتد جنــوبا الى قرب حدود عمـــان •

وعندما تأسست الكويت كامارة عربية فى مطلع القرن الثـــامن عشر ، لم يكن ثمة خلاف حول انتماء الأراضى التى قامت عليها الى شبه الجزيرة العربية من جميع الجوانب ، فضلا عن هذا المجال القاء نظرة مجملة على تاريخ الأرض التى قامت عليها الكويت • وهذه النظرة تشمل فترة ما قبل الميلاد الى معالم العصر الجاهلى ، ثم فترة العصر الجاهلى والعصور الاسلامية •

أولا ـــ أرض الكويت وخبرها فى التـــاريخ القـــديم والوســـيط :

تناولت الدراسات والأبحاث التى أجـــريت عن تاريخ مملكة دلمـــون ، وجزيرة فيلكا الكثير من الحقائق التاريخية التى تشـــير الى تبعية فيلكا سياسيا الى تلك المملكة ، والى صلتها بالحضارات المجاورة المعاصرة ، كحضارة بين النهرين ، وعمان ووادى السند •

تبدأ أولى ملامح التاريخ القديم المنطقة التى تشغلها دولة الكويت الحديثة من بداية الفترة المقدرة بـ ٣٫٥٠٠ ق٠ م ، وهى الفترة التى أخذت فيها الهجرة السكانية الأولى طريقها من شبه الجزيرة العربية فى اتجاه الشمال نتيجة للجفاف، الذى حل بها منذ العصر الذى تعارف المؤرخون على تسميته بالعصر الحجرى الحديث ، ولقد أخذ التصحر يحول سطح شبه الجزيرة العربية الذى كانت تغطيه الغابات الخضراء والحياة البشرية النامية الى صحارى شاسعة[١] ، مما دفع بالمجموعات البشرية الى الهجرة نحو المناطق المجاورة الأكثر خصبا ونماء وتوجهت أولى هذه الهجرات الى بلاد الرافدين وأقاموا حضارتى البابليين والآشوريين (٣٥٠٠ ق٠ م) وبعد ألف عام ، انطلقت الى سوريا هجرة أخرى أقامت حضارة العمورين والكنعانيين والفينيقيين ، وتوالت الهجرات بعد ذلك ليستقر بعضها حول الرافدين فى العراق ، والبعض فى الشام ، والبعض الآخر فى وادى النيل •

حضارة دلمون :

منذ أوائل الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، بدأ اهتمام المؤرخين بمملكة دلمون والتى رجحت بعض الدراسات التى ظهرت منذ عام ١٨٦١ انها كانت تشمل الاحساء والبحرين والمنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية حتى الكويت وان صلات تجارية — وربما سياسية — قامت بينها وبين السومريين فى بلاد ما بين النهرين وبلاد السند[٢] •

كما تحدث المؤرخون عن أهمية موقع هذه المملكة كهمزة وصل

---

(١) راجع « دراسة جغرافية » ، مجلة الوثيقة ، مركز الوثائق التاريخية ، البحرين ، العدد التاسع ، السنة الخامسة ، ص ١٠٨ .

(٢) د. سليمان سعدون البدر ، منطقة الخليج العربى خلال الالفين الثانية والأولى ق. م ، ص ١١٢ — ١١٤ .

فى انتقال السلع والمتاجر بين بلاد الرافدين وكل من عمان ووادى السـند ..

كذلك أشار الباحثون الى المكانة الخاصة لدلمون لدى سـكان بلاد الرافدين واستمدوا الدليل على هـذه المكانة من الأسـاطير السومرية التى ذكرت دلمون (أو تلمون) بكثير من التسـجيل والتقديس ، ووصفوها بانها أرض الخلود[٣] ، ولم يكن مستغربا أن يشيدوا — أى سكان الرافدين — معبدا خاصا للقادمين من بلاد دلمون الى مدينة أور حيث تقام شعائر عبادة الآلهة انانا عشـتار التى كانت تسبغ حمايتها على الجالية الدلمونية الكبيرة النازلة هناك ، كما لم يكن مستغربا أن يعمد الحكام الاكاديون الى تعزيز علاقاتهم بدلمون بمختلف الوسائل والطرق ..

ويستفاد من المصادر والنصوص التاريخية أن تجـار دلـمون كانوا ينقلون الى أور الفضة واللازورد والعقيق وعيون السـمك (وهو الاسم القديم للؤلؤ) وأنواعا من الحجارة والذهب والعاج والمرجان الأبيض والأوانى المطعمة ..

وفى هذا المجال ، تشير الأدلة أيضا الى وحدة المعالم الحضارية فى منطقة الخليج مما يؤيد القول بوحدة تاريخها القديم ، وارتباط الأرض التى قامت عليها الكويت بهذه الحضارة العريقة ، فضـلا عن حضارتها المحلية فى فيلكا ، والتى أثبتت الحفائر والكشـوف الأثرية العلاقات التاريخية الوثيقة بينها وبين أجزاء أخرى من منطقة الخليـج .

وكان من المحتم أن تتأثر هذه المنطقة الممتدة من موقع الكويت الى مضيق هرمز بحضارات الامم القديمة التى ظهرت فى العـراق

---

(٣) مجلة الثقافة العالمية ، العدد ٢٨ ، السنة الخامسة ، مقال مترجم عن البلغارية بقلم ستيفان ثيكيتوف ، ترجمة د. عبد الله الصوفى ، وراجع مجلة الوثيقة ، عدد شوال ١٤٠٦ هـ ، ص ١٧٢ .

وفارس ، من سومرية ، واكادية وبابلية وآشورية ، وأن تكــون سواحلها مجال نشاط الأساطيل هذه الأمم[٤] ، وأن تقوى الصلات التجارية بين بعضها البعض ..

ومن أهم ما ينبغى تسجيله فى هذا الصدد أن البعثات الأثرية توصلت بعد سنوات طويلة من البحث والتنقيب الى استنتاج يقطع باحتفاظ هذه المنطقة بشخصيتها المتميزة واستقلالها ، منهــا على سبيل المثــال اكتشاف مدفن ومدن ومدن أثرية لحضــارة ظلــت مجهولة تماما ، ترجع الى الألف الثالثة قبل الميلاد ، وليس هنــاك شك فى انتماء آثار تلك الحضارة الى بلاد دلمــون بمراكزها العديدة مثل البحرين ودارين ، والعقير ، وفيلكا ، وان جزيرة فيلكا كانت من أهم المراكز الحضارية لملكة دلــون القوية التى امتد نفوذها الى سائر أنحاء الخليج وفرضت سيادتها على طرق التجارة بين بلاد الرافدين ووادى الســند .

والواقع أن جزيرة فيلكا تمثل وجها تاريخيا له خصــوصيته المتفردة ، وان كانت آثارها لا تحكى الا سطورا لا تكاد تكفى — على كثرتها — لرسم صورة لكافة معالم تلك الحضارة التى مثلتهــا قبل ما يزيد عن خمسة آلاف سنة ، الا أن ما دون عنها يمكن أن يعطى الانطباع الصادق بخصوصيتها واستقلالية وجودها ، وتمثيلها لحضارة الأرض التى قامت عليها الكويت ..

تقع جزيرة فيلكا على بعد ٢٠ كيلو مترا من مدينة الكويت ، ويبلغ طولها ٨ كيلو مترا وعرضها ٦ كيلو مترات ، وهى على شكل مثــلث[٥] .

---

(٤) تؤكد الالواح الفخارية العديدة التى عثر عليها ل. اولى اثناء حفرياته فى أحياء اور السكنية فى عامى ١٩٣٠ — ١٩٣١ قيام هــذه التجارة النشطة بين دلمون واراضى الرافدين .

(٥) تقرير وزارة التربية (بالكويت) قسم الآثار والمتاحــف ١٩٥٨ — ١٩٦٣ .

وتناول بعض الدارسين أصل التسمية الحالية — فيلكا[٦] — فردوها الى ما درج عن ألسنة الأهالى (فيلجه) وقالوا أن التسمية ، بلفظ الكاف جيما معطشة ، مستمدة من طبيعة أرض الجزيرة ، بمعنى أن (فيلجه) مأخوذة من لفظة (فــلج) وهو الماء الجارى والأرض الطينية الصالحة للزراعة[٧] ، وقد ذكر ديكسون أن أرض الجزيرة كانت تقسمها قديما قناة مياه عذبة[٨] ، وهناك قول بأن الجزيرة يقسمها فلج من الماء الجارى ينبع من مرتفعات « شبيجة » ويصب عند قرية « سعيدة » كما ذكر أن العرب فى العصور الاسلامية الأولى كانوا يلفظون الاسم « فليجة » بتقديم اللام على اليـــاء

---

(٦) أما تسميتها ، فقد جاءت نقلا عن لفظة يونانية لعلها (فليكس) وهى تعنى الجزيرة السعيدة ولكن هذا القول ليس الا واحدا من أقوال عدة وردت فى هذا الشأن .. فالنبهانى يذكر فى « التحفة النبهانية » أن فيلكا لفظة يونانية تعنى الجزيرة البيضاء بينما يذكر آخرون أن أصل التسمية هو كلمة « فلشا » ، وهى كلمة برتغالية معناها الهواء النقى ، ويذكر الرحالة الانجليزى باكنجهام الذى زارها عام ١٨١٦ م أن الاســم القديم للجزيرة هو « ايكاروس » ، وبذلك تحدثت عنها الكتابات الكلاسيكية اليونانية والرومانية ، وعندما تم اكتشاف حجر ايكاروس ، تبين أن هذا الاسم كان يطلق بالفعل على الجزيرة ، كما يذهب بعض المؤرخين الى أن الاسكندر اطلق عليها هذا الاسم تذكارا بجزيرة يونانية فى بحر ايجه تعرف باسم ايكاروس ، كما يذهب البعض الى أن اسمها القديم كان أغاتا — خالد سالم محمد — جزيرة فيلكا ، مؤسسة دار الكتب — الكويت ص ١٢ — أبو حاكمة ، تاريخ الكويت الجزء الثانى ، القســم الأول ، ص ١٦٤ — دراسة قامت بها بعثة من جامعة الكويت ، مجلة التمدن الاسلامى ، العدد ٣ ، المجلد ٤٤ ، آزار ١٩٧٧ — مصطفى الدباغ ، الجزيرة العربية ، الجزء الثانى ، ص ٢٩٥ .

(٧) خالد سالم محمد ، جزيرة فيلكا : لمحات تاريخية واجتماعية ، ص ١٢ .

(٨) هـ ، ر ، ب ديكسون ، الكويت وجاراتها ، القســم الأول (بالانجليزية) .

فكأن أصل الاسم فليج (تصغير فلج) ، ثم أنثت لأنها جزيرة ولفظ الجزيرة يؤنث[٩] .

أما فى كتب المؤرخين والجغرافيين والكتاب القدامى فورد اسم « فلج » موضع بين البصرة وبرية ، مذكر[١٠] ، كما جاء فى صحيح ياقوت ، فيلجة ، تصغير فليج[١١] .

ــ معالم ومقومات الشخصية المتميزة والمستقلة :

أشار المؤرخون الى العلاقات التجارية لفيلكا سواء بصفتها مركزا حضاريا يتبع مملكة دلمون ، أو كمركز تجارة وميناء ومحطة لها استقلاليتها الخاصة ، فالوثائق والنصوص المنتمية الى الألف الثالثة قبل الميلاد[١٢] ، تتحدث عن دلمون كبلاد بحرية مارست التجارة مع مدن بلاد الرافدين وعما نجم عن ذلك من قيام العلاقات الاقتصادية ، وتأثر هذه العلاقات بالظروف السياسية الى حد كبير ، كما يتضح أن الدلمونيين كانوا يستخدمون سفنهم الخاصة .

وعلى وجه العموم ، يمكننا القول بأن أرض دلمون كانت معروفة بشكل جلى وكامل لدى سكان بلاد الرافدين سواء على المستوى الرسمى أو التجارى أو الأدبى ، وقد أقام حكام بلاد الرافدين علاقات مع الملوك الدلمونيين اتسمت أحيانا بالطابع العسكرى الحربى وأحيانا بالطابع الدبلوماسى السلمى ، أما تجارها فقد عرفوها ملتقى للتبادل التجارى ومركزا هاما لتصدير مختلف أنواع السلع التجارية ، ويشهد ما حققه المؤرخون من نصوص

---

(٩) خالد سالم محمد ، المرجع السابق .

(١٠) الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية ، الجزء الأول ، تأليف اسماعيل بن حماد الجوهرى ، تحقيق أحمد عبد الغفور ، ص ٣٣٧ .

(١١) المجلد الرابع ، ص ٢٧٦ ، بيروت .

(١٢) د. سليمان سعدون البدر ، مملكة دلمون ، الذكرى والتاريخ ص ١١١ ، جامعة الكويت ١٩٧٨ .

وبوضوح باستقلالية دلـــون التى كانت فيلكا تنضوى تحت لوائها .
وبأن دلـــون كانت منطقة جغرافية محددة ومعروفة لدى ســـكان
بلاد الرافدين ، يعيش على أرضها شعب له عاداته وحضارته ونشاطه
التجارى والسياسى(١٣) ..

وتأتى الاختام الدلمونية المكتشفة والمتميزة لتقدم دليلا ماديا
ملموسا يؤكد الشخصية المستقلة للمنطقة التى ظهرت عليها الكويت
فى اطار المملكة الدلمونية القديمة وحضارتها ، فالاختام الأخرى التى
تنتمى لحضارة وادى السند وحضارة وادى الرافدين تختلف كل
منها عن الأخرى ، وهى بدورها تختلف عن الأختام الدلمونية المكتشفة
فى فيلكا والبحرين ، وقد عثر خبراء الآثار على عدد قليل من الاختام
التى يرجع أصلها الى وادى السند وعلى مجموعة من الأختام الدلمونية ،
كما وجدوا عددا محدودا آخر من الأختام الاسطوانية ، التى تنتمى
لحضارة وادى الرافدين ، وقد استدل خبراء الآثار والمؤرخون من
وجود مثل هذه الأختام على الصلات التجارية التى قامت بين تلك
الحضارات ، وجدير بالذكر أن الأختام الدلمونية تميزت عن غيرها
بشكلها الدائرى الخاص ، كما تميزت بكثرتها نظرا للعثور عليها فى
موطنها الأصـــلى ..

والى جانب ذلك ، توصل خبراء الآثار والمؤرخون الى وجود
عدد من المؤشرات والدلائل التى اختصت بها حضارة دلمون وميزتها
عن غيرها من الحضارات المعاصرة مثل المقابر ذات القباب ، وطرق
صنع الأدوات الفخارية ، ففى حين تتركز المقابر فى وادى الســـند
فى المزارع والحقول خارج المدن حيث يدفن الموتى أو تحـــرق
جثثهم ، ويقوم سكان وادى الرافدين بدفن موتاهم داخل البيوت
فى قبور معدة لذلك ، نجد أن سكان دلمون يتخذون مقابر موتاهم

---

(١٣) أشارت النصوص الى أن ادباء بلاد الرافدين صوروا أرض
دلمون بأنها أرض الفردوس والسلام والأمن ، المرجع السابق ، ص ١١٨ .

تحت التلال المقبية فى فجوات حجرية ذات نمط مميز ، كما تميزت الأوانى الفخارية الدلمونية بالاتقان فى تشكيلها وزخرفتها ، بحيث يمكن للدارس وحتى للشخص العادى ، أن يفرق بينها وبين مثيلاتها من الفخاريات الأخرى التى اكتشفت فى وادى السند أو فى بلاد الرافدين ..

عــروبة الخليـــــج :

عندما يستخدم المؤرخون مصطلح « العصر الجاهلى » أو عصر « ما قبل الاسلام » عند الحديث عن العهود العربية التي سـبقت البعثة النبوية ، فهم لا يحددون بداية لتلك العهود التى تمتـد ، اصطلاحا ، الى زمن سحيق ، وان كان النهج السائد بين دارسى تاريخ الجزيرة العربية قبل الاسلام ، أى فى عصور الميـلاد الأولى ، والألف سنة السابقة على الميلاد ، هو التركيز على دول الجنوب العربى فيما يعرف الآن باليمن ، وحضرموت والتى شهدت قيـام دول مثل معين وسبأ وحمير ، ألا يحق لنا أن نتساءل أين وقفت أرض الكويت فى العصر القديم من هذا التاريخ ؟ والواقع أن آراء مؤرخى الجزيرة العربية تذهب الى أن دولة معين ، ثم سبأ وحمير من بعدها ، كانت لها مراكز تجارية تنتشر على الخليج العــربى وعلى الفرات ، وعلى الطرق المتجهة من معين وصرواح ومأرب وصنعاء فى الجنوب ، الى تيماء فى الحجاز ، والى البتراء وغزة فى الشمال ، وليس من المستبعد ان كان لهذه الدول علاقات بفيلكا أيضا(١٤) ..

والعديد من المصادر تقطع بأن القبائل العربية سكنت الساحل الغربى فى عهود يرجعها البعض الى العصر البطلمى ويحدد أكثرهم مواطنها بالمنطقة الممتدة من البصرة الى عمان(١٥) ، كما وردت أسماء

---

(١٤) د. أ. م. ابو حاكمة ، تاريخ الكويت ، الجزء الأول ، ص ٨٩ .

(١٥) ابن خرداذبة، المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩ ، ص ٦٠ .

بعض القبائل عند عدد من المؤرخين ، ذكروها بمسميات مستمدة من لغاتهم مثل قبيلة « توخيتى » وقبيلة « زورازى » وقبيلة « بورككودى » ثم جاء المؤرخون العرب فربطوا بين قبيلة « زورازى » وسكان « الزاره » قرب القطيف ، كما عدد بطليموس أسماء قبائل كانت تعيش على الساحل الغربى الخليج فى القرن الثانى الميلاد منها « تايماى » و « ثيموى » وقد ربط المؤرخون العرب بينها وبين قبيلة « تيم » العربية التى عاشت فى المنطقة نفسها ، كذلك يذكر المؤرخون القدامى أسماء كانت تطلق على الأراضى العربية المطلة على الخليج مثل البحرين ، والخط ، وخط عبد القيس ، وهجر ، مع تحديد أسماء القبائل العربية التى نزلت هذه المنطقة ، من أقام منهم ومن أرتحل تجد ذلك عند المسعودى[١٦] ، وابن حزم[١٧] ، والبكرى[١٨] ، والهمدانى[١٩] ..

كما تعرض المؤرخون القدامى لذكر سكان منطقة الخليج من القبائل العربية فى العصر الجاهلى الأقرب حداثة ، فذكر الهمدانى بعض منازل عبد القيس[٢٠] ، وذكر البكرى انتشار بكر بن وائل وعنزة باليمامة وفيما بينهاوبين البحرين[٢١] ، والهمدانى يشير أيضا الى

---

(١٦) المسعودى ، مروج الذهب ، الجزء الثانى ، ص ١٣٥ .

(١٧) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، دار المعارف بمصر ، ١٩٤٨ ، ص ٤٥٣ .

(١٨) البكرى ، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز ، معجم ما استعجم ، الجزء الأول ، ص ٢١ تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٤٥ .

(١٩) الهمدانى ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد الأكوع ، بيروت ١٩٤٧ ، ص ٢٧٩ .

(٢٠) الهمدانى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٩ .

(٢١) معجم ما ستعجم ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

نزول بكر بن وائل أيضا فى تلك النواحى ويذكر انهم سكنوا البحرين ، وتتحدث بعض المصادر العربية عن منازل بنى تميم وعبد القيس ، وعن أسواق العرب فى هذه المناطق الخليجية مثل سوق هجر ، وسوق الجرعاء ، كما تناولت هذه المصادر أيضـــا وقائعهم وأيامهم (أى حروبهم فيما بينهم) كيوم أوارة بين المنذر بن ماء الســـماء وبكر بن وائل[٢٢] ، ويوم صفوان بين بنى مازن (وهم من تميم) ، وبنى شيبان (وهم من بكر بن وائل) والذى تغلبت فيه بنـــو تميـــم[٢٣] .

والمراجع العربية تفيض فى ذكر كاظمة وأخبارها ، وهى من المواقع الحضارية فى الأرض الكويتية ، وتضرب بتاريخها الى عهود بعيدة حيث تمتد جذورها الحضارية الى العصر البرونزى[٢٤] ، وان كان المجال لا يسمح هنا بالافاضة فى الحديث عنها الا أننا نرى انه من المناسب ـــ تتمة لهذا التمهيد ـــ أن نذكر بعض ما ورد فى كتابات المؤرخين والجغرافيين العرب حول بعض الأماكن التى كانت على الأرض التى قامت عليها الكويت ..

وابن خرداذبة (ت سنة ٣٠٠ هـ) يذكر أسماء المدن والقـــرى الواقعة على امتداد المسافة من البصرة الى عمان فيقول : « من البصرة ، الى عبادان ، ثم الى الحدوثة ثم الى عرفجا ثم الى الزابوقة ، ثم الى (المقر) ثم الى غضى ، ثم الى المقرس ، ثم الى فليجة ، ثم الى حسان ، ثم الى الفرس ، ثم الى مسيلحة ، ثم الى

---

(٢٢) ابن الأثير ، الكامل ، ص ٥٥٢ .

(٢٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، الجزء السادس ، ص ٥٩ .

(٢٤) راجع تقرير وزارة الاعلام بالكويت (١٩٦٤) عن أعمـــال البعثة الدانماركية للتنقيب من عام ١٩٥٨ حتى عام ١٩٦٣ ، وكتاب « لمـــع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب » ، بيروت ١٩٦٧ ، من ٤٣٠ ـــ ٤٣٤ الملاحق ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١١ كاظمة فى الأدب والتاريخ يعقوب يوسف الغنيم وأحمد البشر الرومى ، مقالات عن الكويت .

جمعن ، ثم الى ساحل هجر ، ثم الى العقير ، ثم الى قطر ، ثم الى سنجة ، ثم الى عمان وهى صحار ودبا(٢٥) .

ــ فى العهـود الاســـلامية :

ورد فى النصوص الأدبية ــ ذكر بعض المواضع فى الأرض التى قامت عليها الكويت ، وخاصة فى العهود الاسلامية ، منهـا السيدان ، وقد وردت فى شعر جرير ، والمخبل السعدى والفرزدق ، كما ورد فى أخبار الفتوح اسم الحفر وكان مقررا أن تلتقى عندها المجموعات الاسلامية الفاتحة بقيادة خالد بن الوليد عام ١٢ هـ (٦٣٣ م) قبل أن يتعدل مكان اللقاء الى كاظمة ..

ويذكر ياقوت الحموى أن « برقان موضع بالبحرين قتل فيه سعود بن أبى زينب الخارجى وكان قد غلب فى البحرين وناحيـة اليمامة بضع عشرة سنة حتى قتله سفيان بن عمر العقيلى(٢٦) كمـا اكتشف علماء الآثار قطعة من النقود مصنوعة من الفضة عليها كتابة تشير الى انها ضربت فى برقان سنة ٣٥٤ هـ(٢٧) .

والشعر الجاهلى معين لا ينضب للتعرف عن أسماء الاماكن التى أهلت بسكانها من الأرض الكويتية فى العصرين الجاهلى والاسلامى ، فقد ذكر الشعراء مواضع الرحا ، والعدان واواره والصليب ، والمقر ، وغضى ، وبرقان ، وكاظمة(٢٨) .

---

(٢٥) ابن خرداذبة ، مرجع سابق ، ص ٦٠ .

(٢٦) معجم البلدان ، الجزء الأول ، ص ٣٨٧ ..

(٢٧) وهى معروضة الآن فى متحف قطر ، ويبلغ وزنها ٣٫٥٣ جراما ، وقطرها ٣٫٢ سم راجع بحث النقود العربية الاسلامية المضروبة فى مدن شرقى الجزيرة العربية جامعة قطر .

(٢٨) يقال للسيدان اليوم : السادة ، للرحا : الرحية ، أو رحية الشمال ورحية الجنوب ويقال للمقر : امقرة ، أو مقرة ، ولمـا كانت =

وقد ذكر اسم كاظمة فى العصر الاسلامى عندما التقت جيوش المسلمين بالفرس عام ٦٣٦ م ، ووقعت بين الفريقين معركة عظيمة عرفت بذات السلاسل ويقال انها كانت بالقرب من كاظمة ، وكان النصر حليفا المسلمين . واستتقام الأمر فيها لهم الى نهاية الدولة العباسية ، وكانت منطقة الكويت ابان تلك العصور تعد من المناطق التابعة للبحرين وكانت تعرف باسم كاظمة البحور(٢٩) .

* * *

=

بعض أحياء الكويت تلفظ القاف غينا ، فهى تقول : امغرة ، ويقال للصليب اليوم الصليبية ، وجاء ذكر « العدان » عند ياقوت فيقول « عدان » ، بالفتح وآخره نون ز موضع فى ديار بنى تميم بسيف كاظمة ، كما ذكر النبهانى (التحفة النبهانية) ان قبر الصحابى العلاء بن الحضرمى يقع فى العراق .

(٢٩) راجع : حسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسى جـ ١ ، ص ١٢ .

ثانيـا ــ بداية تاريخ الكويت الحـديث

لعل أشـق المشكلات التى تواجه من يتصـدى لكتابة تاريخ الخليج ، ومن ثم الكويت ، فى مطلع العصر الحديث ، هو عدم توفر المادة المستندة الى مصادر محلية وليست هناك ، فى حالة الكويت على وجه التحديد ، أى مصادر وثائقية محلية قديمة يمكن التعويل عليها ، ولذلك كان من العسير أن نتوصل الى تاريخ محدد لتأسيس مدينة الكويت ..

وفى غيبة المصدر الوثائقى ــ أى الدليل المادى الذى لا يدحض ــ والذى يفرض نفسه فرضا على الباحثين ــ يفتح الباب أمـام الخلط بين الاعتبارات التاريخية وغيرها من الاعتبارات ، وفى مقدمتها الاعتبارات السياسية بطبيعة الحال وسوف نتناول هذه القضـية فيما بعـد .

ومن الملاحظ أن جمهرة المؤرخين العرب يتناولون مسألة تأسيس الكويت ــ الكويت المدينة أو الكويت الامارة ــ على السواء وكأنها ظاهرة تحددت معالمها واكتملت دفعة واحدة أو بين عشية وضحاها ، ومن ثم يتحدد تاريخ التأسيس من وجهة نظر كل منهم وفقا للحدث أو الواقعة أو التطور الذى يراه دليلا على ما يذهب اليه وهذا فى رأينا نهج علمى وغير تاريخى ، والأصح أن نتناول أى ظاهرة تاريخية من خلال حركتها وتطورها ، فهى تولد ، ثم تأخذ فى النمو ، وتتلاحم عناصرها ومكوناتها لتشب عن الطوق بعد حين ، واضحة الشخصية محددة المعالم ومتكاملة السمات ، وهى ــ بعد ذلك كله ــ لا تكف أبدا عن التطور ، ازدهارا أو اضمحلالا .. ولعل خير مصداق لقولنا هذا هو العبارة الرصينة التى نلتقى بها عند عبد الكريم بن عبد الله المنيف ، والتى يقول فيهـا : (ويعزو الشيخ خزعل هذا الاختلاف

الى مراحل تطور الكويت ونموها ، بحيث اعتبر كل مؤرخ من هذا التطور هى نقطة التأسيس الرئيسية فأرخ بها)[٣٠] •

ولعل من المناسب قبل الخوض فى هذه القضية أن نشير الى أن الفرق بين القول بنشأة الكويت والقول بتأسيسها ، و « النشأة » و « التأسيس » كلمتان تختلفان فى جوهر الدلالة وان تشابهتا فى المعنى باطلاقه ، والتأسيس أكثر تحديدا من النشأة ، بينما النشأة أعم وأشمل ، وبناء على ذلك فمن الأنسب أن نقول أن الكويت (نشأت) فى النصف الأول من القرن السابع عشر[٣١] وتأسست فى أوائل القرن الثامن عشر (١٧٠٢) لأن النشوء يستغرق زمنا ، أما التأسيس فيرمز الى نقطة البداية التى أكتمل عندها النشوء أو اكتملت أغلب مقوماته وعناصره ، وبناء على ذلك فثمة فارق كبير بين نشأة الكويت المدينة ونشأة الكويت الامارة (أو الدولة) •

ومدينة الكويت لم تتأسس دفعة واحدة أو بين عشية وضحاها ، وانما نشأت نشوءا متدرجا ثم تأسست فيها الامارة بعد ذلك بقدوم جماعات العشائر النجدية ، العتوب ، الذين نزلوا بها ، وسكنوها ، وشيدوا دورهم لها ، وعمروها ، وجعلوا من بينهم رئيسا عليهم وعليها ••

ويرى بعض المؤرخين[٣٢] أن الكويت كانت فيما سبق ضمن أراضى امارة بنى خالد التى امتدت من جنوب البصرة الى الاحساء ، وعندما استخلص الأمير براك بن غرير آل حميد امارة الحسا من أيدى الأتراك فى عام ١٦٦٩ م (١٠٨١ هـ) أمر بتشييد قصر كبير —

---

(٣٠) عبد الكريم بن عبد الله المنيف ، بنو خالد وعلاقتهم بنجد ، ص ١٥٣ •

(٣١) أحمد أبو حاكمه : تاريخ شرقى بلاد العرب (١٧٥٠ — ١٨٠٠) بيروت ١٩٦٥ •

(٣٢) خزعل : تاريخ الكويت السياسى ج ١ ، ص ٣٦ •

كوت — فى موقع مدينة الكويت الحالية ليتخذ منه ملجأ لقواته التى تحمى حدوده الشمالية ، وليودع فيه الذخيرة والزاد ليتمون منه اذا قدم الى تلك المنطقة للصيد أو لأى غرض آخر ، وبعد تشـييد القصر — الحصن — أخذت بعض القبائل العربية المتنقلة وبعض صيادى الأسماك النازلين على السواحل الغربية للخليج يتوافدون الى أطراف ذلك الحصن ويقيمون حوله لفترة ثم يرتحلون •• ثم ظهرت حوله بعض الدور الصغيرة أقام بها بعض منهم ، ثم شادوا وأقاموا حولها الأسواق ، ولا جدال فى أن طبيعة هذه العملية نفسها تنتهى بنا الى التسليم بأن فترة النشوء هذه استغرقت زمنا ، بينما جاء التأسيس عندما استقرت جماعات العشائر النجدية ، ويرجع اختلاف المؤرخين فى تحديد سنة التأسيس الى نظرة كل منهم الى ماهيـة النشأة ومظاهرها السكانية ، ولعل تأسيس مدينة الكويت كان يتمثل فى بادىء الأمر باقامة أكواخ صغيرة ، ثم ما لبثت أن شـيدت البيوت ،ثم تدرجت بالعمران رويدا رويدا واقيمت فيها الأسواق فأصبحت مدينة • كما يرجع اختلاف الآراء حول سنة التأسيس الى أن هناك من اعتبر اقامة الأكواخ هو البداية ، فى حين رأى البعض الآخر أن اقامة الدور الصغيرة هو النشأة كذلك اتخذ آخرون من تشييد الدور الكبيرة أساسا للتاريخ ، ويرى حسين الشيخ خزعل أن هذا الاختلاف فى الرؤية هو الذى أدى الى تباين الروايات حول سـنة التأسيس(٣٣) •

ولم يقتصر الأمر على صعوبة تحديد زمن النشأة ، بل وأحاط الغموض أمورا أخرى تتصل بالظروف التى واكبت تلك النشـأة وما طرأ عليها من ملابسات تاريخية طرحت للدراسة والبحث ، وهذا فى رأينا أمر يثرى المادة التاريخية لمـا يتيحه الدارسين من فرصة مناسبة لتمحيص الروايات والرؤى ، والقاء المزيد من الضوء على ماوراءها من خلفيات من أجل الوصول الى الحقيقة التاريخية ••

---

(٣٣) خزعل ، المرجع السابق ، ص ٣٧ •

ولقد سبق أن أشرنا الى أنه فى غيبة المصدر الوثائقى المعتمد الذى يفرض نفسه على الباحثين ، فيفتح الباب أمام الخلط بين العديد من الاعتبارات التى قد يكون بعضها سياسيا ، وهنا نرى من المناسب أن نورد بعض الأمثلة على ذلك ، فالاعتبار السياسى يتجـلى بكل وضوح فى القول بأن زمن نشوء الكويت كان فى عـام ١٦١٣ م (١٠٢٢ هـ) استنادا الى ما ورد على لسان الشيخ مبارك الصباح عندما سأله والى البصرة ، محسن باشا ، أن يخبره عن زمن تأسيس الكويت فأجابه الشيخ مبارك بكتا بـذكر فيه ذلك التاريخ[٣٤] ، وأما رأى مدحت باشا حول هذا الموضوع نفسه فيعلق عليه بعض المؤرخين بقوله : « أما قول مدحت باشا فسياسى أكثر مما هو تاريخى ، هذا وتبدو الاعتبارات السياسية جلية حول هذا القول ، فمدحت باشا ، أو من هو فى مثل منصبه ، يرى أن من مصلحة بلاده أن يكون تاريخ تأسيس الكويت قبل ٥٠٠ عام أو أقل أو أكثر ، فالمصالح السياسية لها المقام الأعلى فى نظر رجال السياسة[٣٥] ، ويعلل الكاتب نفسه ما روى عن الشيخ مبارك فى هذا الصدد بقوله :

(أما قول الشـيخ مبـارك فلا يخـرج عن كونه دحضـا لقول مدحت باشـا آنف الذكـر ، وخـلق نـوع من البلبـلة السياسية حول تاريخ الكويت)[٣٦] ..

ومهما يكن من أمر هذه المصاعب التى تعترض سبيل الباحث من أجل تحديد التوقيت الدقيق لنشأة الكويت ، ففى رأينا أنه يمكن تذليل هذه المصاعب من خلال دراسة الأوضاع السياسية فى المنطقة الخليجية وما حولها ، والتعرف على طبيعة العصر الذى ولدت فى

---

(٣٤) خزعل ، المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(٣٥) عبد الله الحاتم : من هنا بدأت الكويت ، ص ١١ .

(٣٦) المرجع السابق : ص ١١ .

اطاره هذه الظاهرة ، وحقيقة القوى الفاعلة ، والمؤثرة وما يدور بينها من صراعات أو تحالفات فى تلك الحقبة ، ثم الاستفادة مما يمكن توثيقه وتحقيقه من معلومات ، كالخرائط ، فاذا تم لنا ذلك ، قمنا بتحليل الروايات والآراء المختلفة التى اقترنت بتحديد زمن النشأة فى محاولة للوصول الى الحقيقة ..

* * *

ثالثــا ــ الأوضــاع السياسية فى منطقة الخليج

فى مطــلع العصــر الحــديث

عاشت منطقة الكويت ، باعتبارها جزءا من اقليم البحرين ، عند مطلع العصر الحديث أحداث الصراع الذى نشب بين القــوى السياسية التى برزت على الساحة آنذاك ، وتمثلت فى البرتغاليين والصفويين والعثمانيين :

١ ــ البرتغاليــون :

كانوا يمثلون احدى القوى الاستعمارية الجديدة بعد النهضة الملاحية التى شهدتها بلادهم منذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، ووصلوا من خلال نشاطهم البحرى الى الخليج بهدف الوصول الى مناطق انتــاج التوابل عبر طريق جديد ، بعيــدا عن أرض مصر والشام ، وبعد نجاح فاسكو دى جاما ، فى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، انفتح الطريق أمام البرتغاليين لتحقيق أملهم فى تكوين امبراطورية لهم فى الشرق ، ومن ثم بذلوا كل مسعى من أجل السيطرة على مياه الهند ، ودفع العرب الى أراضيهم الداخليــة بعيدا عن ساحل الخليج ، كما سعوا الى اغلاق المداخل البحرية أمام العرب بالاستيلاء عليها ، مستغلين حالة التفكك التى سادت المناطق العربية نتيجة لعنف القوى السياسية المسيطرة عليها وانشــغالها بخلافاتها المذهبية والسياسية وخاصة تلك التى نشبت بين الصفويين والعثمانيين .

٢ ــ الصــفويون :

وكانوا يشكلون فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى قوة

اسلامية صاعدة ، امتدت أراضيها لتشمل بلاد فارس ، وما جاورها ، وأصبحت لها حدود متاخمة للدولة العثمانية ، من ناحية الغرب[٣٧] ••

٣ ــ العثمانيــون :

برزت الدولة العثمانية مع مطلع القرن السادس عشر الميلادى كدولة كبرى امتدت بأملاكها من الأناضول الى جنوب شرقى أوروبا ، وذلك بعد نجاحها فى اســقاط الدولة البيزنطية والاســتيلاء على عاصمتها القسطنطينية عام ١٤٥٣ م •• ورفعها راية الاسلام فى مناطق لم يسبق للمسلمين أن وصلوا اليها من قبل فى بلاد البلقان وجنوب شرقى أوروبا •

* * *

وبينمــا الدولة العثمانية تواصــل انتصاراتها على الجبهــة الاوروبية ، كانت الدولة الصفوية تتطلع الى نشر مذهبها بين القبائل التركمانية المقيمة فى شرق الأناضول •• وهى قبائل سبق لها أن أثارت القلاقل فى وجه الدولة العثمانية[٣٨] ••

وازاء تهديد الصفويين للعثمانيين فى الأناضول شبت الحرب بين الجانبين فى « شالديران » فى ٢٣ أغسطس ١٥١٤ م ، وفى « تبريز » فى ٥ سبتمبر من نفس العام وعلى الرغــم مما حققه السلطان العثمانى سليم الأول من انتصارات على الشــاه اسماعيل الصفوى فقد عزف عن مواصلة حروبه على تلك الجبهة ، وفضــل العودة الى بلاده بعد أن نجح فى تأمين حدوده وجبهته القتالية مع

---

(٣٧) د• بدر الدين الخصوصى : الدولة الصفوية فى مواجهــة التحديات ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٤٤ ، اكتوبر ١٩٨٥ ، ص ١٤٤ •

(٣٨) المصدر السابق ، ص ١٤٤ •

الصفويين بالاستيلاء على الموصل وشمال العراق وديار بكر(٣٩) ، وكان ذلك بمثابة نقطة البداية لاستكمال العثمانيين فتحهم للعــراق والذى اكتمل فيما بعد على يد السلطان سليمان القانونى الذى أقبل على رأس حملة عسكرية تمكنت من دخول بغداد فى ٣١ ديسمبر عام ١٥٣٤ م ، وهنا أخذ زعماء القبائل يتوافدون الى بغداد لتقديم الولاء واعلان التبعية للدولة العثمانية(٤٠) .

وكان من بين الوافدين « مانع بن راشد بن مقامس » على رأس فريق من طرف الشيخ راشد(*) احملا مفاتيح البصرة ، ومعها تعهدات بالولاء والاخلاص للدولة العثمانية ، كما قدم اليه الرؤساء المحليون فى اهواز الجزاير ولورستان والحويزة وغيرها ، معلنين ولاءهم للسلطان العثمانى ، بالاضافة الى من توجه الى بغداد من وفود من شيوخ القطيف والبحرين حاملين معهم رسائل الترحيب الى الســلطان العثمانى(٤١) .

وتذهب بعض المصادر الى أنه على الرغم من قدوم وفود تمثل قبائل البصرة الى بغداد معلنة ولاءها للدولة العثمانية ، الا أن النفوذ الفعلى للاتراك العثمانيين لم يمتد الى هناك الا فى ٢٦ ديســمبر ١٥٤٦ م على يد « اياس باشا » أمير امراء بغداد الذى نصــب « بلال باشــا » حاكما على البصرة فى عام ١٥٤٧ وتحت امرته ٢١٠٠

---

(٣٩) المصدر السابق ، ١٤٦ — ١٤٧ .

(٤٠) المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

(٤١) صالح اوزيران ، الأتراك العثمانيون والبرتغاليون فى الخليج العربى ١٥٣٤ — ١٥٨١ ترجمة وتعليق د. عبد الجبار ناجى ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٧٩ — ص ٢٩ .

(*) اسس الشيخ راشد بن مقامس بن صقر بن محمد بن فضــل دولة آل مقامس ، الذى حكم البصرة والهفوف والقطيف بعد قضــائه على دولة الجبور .

جندى من حملة السلاح النارى ، بالاضافة الى ١٠٠٠ من الفرسان الأتــراك[٤٢] ..

ويستفاد من المصادر أن الأوضاع لم تكد تستقر للعثمانيين فى البصرة حتى تطلعوا بأنظارهم الى اقليم البحرين ، وخاصــة المنطقة الممتدة من البصرة الى قطر ، وذلك من أجل كبح جمــاح القبائل العربية فى المنطقة ، والتى كانت تشكل مصدر قلق للسلطات العثمانية فى جنوب العراق[٤٣] ، وتمكن العثمانيون من تحقيق هدفهم فدخلوا القطيف سلما عندما أعلن أهلها (١٥٥٠ م) رغبتهم فى الخضوع للعثمانيين والخروج عن طوع مملكة هرمز الخاضعة وقتذاك للبرتغاليين ..

وتذكر المصادر البرتغالية أن الأتراك العثمانيين قدموا من القطيف الى البصرة على أربع سفن من طراز (فسطاط) تحمل ما لا يزيد عن ٢٠٠ مقاتل ، وأن أمير القطيف سلم المدينة ومفاتيح حصنها للعثمانيين دونما قتال أو مقاومة[٤٤] ، مما دفع حاكم هرمز الى طلب المساعدة من البرتغاليين لاستعادة نفوذه على القطيف ، فأمده البرتغاليون بحملة عسكرية من ١٩ سفينة قدمت من الهند وعلى متنها ١٢٠٠ جندى بقيادة البرتغالى انطونيو دى نورنها ، وتوجهت هذه القوة الى القطيف وتمكنت من استعادة القطيف سيطرت هرمز مؤقتا عليها ، فاضطر العثمانيون الى توجيه حمله عسكرية حررت القطيف واتجهت الى مسقط وتمكنت من اجلاء الحامية البرتغالية عنها ، كما توجهت الى جزيرة قشم وهى فى طريقها الى هرمز وقام جنودها بأعمال السلب والنهب ، مما دفع السلطات العثمانية الى معاقبة قائدها

---

(٤٢) المصدر السابق ، ص ٣٢ — ٣٥ .

(٤٣) عبد الفتاح ابو عليه ، دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر دار المريخ ، الرياض ، ١٩٨٤ ، ص ٣٤٧ .

(٤٤) صالح اوزيران ، المرجع السابق ، ص ٩٢ — ٩٣ .

لخروجه على نصوص الأوامر الصادرة اليه وعلى الخطة المرسومة ، وخلفه فى قيادة القوة البحرية العثمانية مراد بك الذى ظل يمارس عملياته فى المنطقة حتى عام ١٥٥٣ م ، عندما خلفه على شلبى(٤٥) ..

وهناك من المصادر ما يفيد أن نفوذ العثمانيين امتد الى الاحساء بعد اخضاعهم للبصرة ، وعلى الرغم من خضوع القطيف للعثمانيين فى عام ١٥٥٠ م ، فالمصادر تختلف فى تحديد السنة التى اخضعوا فيها الاحساء ، وان كنا نميل الى القول أن ذلك تحقق فى تاريخ قريب لخضوع القطيف .. ولعله عام ١٥٥٥ م .

ولم تكد الأوضاع تستقر للعثمانيين فى منطقة الاحساء حتى جعلوا منها سنجقية فى بادىء الأمر ، ثم ما لبثوا أن رفعوا من شأنها فجعلوا ايالة يتولى حكمها بيلربى بك Beylerby برتبة مير ميران Mir - Miran أى أمير أمراء وكانت تمتد فى ذلك الوقت ما بين البصرة وقطر عددا من السنجقيات هى القطيف وحما ، والمبرز ، وجيشه والصفا ، وجبرين ، وقوبان ، والتهامية ، والعيون(٤٦) .

وقام العثمانيون بتعيين حكام من طرفهم على منطقة الاحساء ، فوليها : على بن أحمد بن ولاند البريكى خلفا لمحمد باشا فروخ الذى بنى مسجدا فى الهفوف عام ١٥٥٥ م كان أو مسجد يقيمه العثمانيون فى تلك المنطقة ، وبنى على بن أحمد البريكى مسجدا عثمانيا آخر فى « كوت » الهفوف عام ١٥٦٦ م، وعندما خلفه ابنه محمد بن على ، قام هو الآخر ببناء مسجد جديد بالقرب من قصر الحكم عام ١٦٦٩ — ١٦٧٠(٤٧) .

وكان هؤلاء الحكام ملزمين بدفع مبالغ مالية سنوية يرسلونها

---

(٤٥) عبد الفتاح أبو عليه ، المصدر السابق ، ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

(٤٦) صالح اوزيران ، المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٤٧) عبد الفتاح أبو عليه ، المرجع السابق ، ص ٣٥٢ — ٣٥٨ .

الى الباب العالى فى الاستانة ، الى جانب تقديم العطايا والمنح لأمراء الجند وقادتهم عند اقامتهم فى المنطقة مع جنودهم لتشكيل حاميات عسكرية فى الهفوف ، والمبرز والقطيف وغيرها ، ونظرا لأهمية منطقة الاحساء ، باعتبارها خط الدفاع الأول للوجود العثمانى فى العراق ضد البرتغاليين المتمركزين فى ذلك الوقت فى هرمز ، كانت هذه الحاميات تلقى اهتماما كبيرا من جانب السلطات التركية ، فكانت تمدها من حين لآخر بالجنود النظاميين وغير النظاميين فضلا عن رجال القبائل الموالية ..

وعلى الرغم من تلك الأهمية التى كانت للاحساء ، فان هناك من يذهب الى أن الوجود العثمانى بها كان هشا واسميا ، نظرا لتناسب اهتمام السلطات التركية بالمناطق المختلفة مع حجم ما تقدمه تلك المناطق من التزامات مادية كل سنة ، ونظرا لتعرض الوجود العثمانى بها لحركات التمرد من جانب القبائل العربية المنتشرة فى المنطقة (٤٨) .

وازاء ذلك كله ، وجد بنو خالد الفرصة سانحة للاطاحة بالوجود العثمانى المتهاوى فى الاحساء ، وتمكن شيخهم براك بن غرير بن عثمان آل حميد ، من أن يحشد قواته وان يحاصر الحامية العثمانية فى الهفوف ويجبرها على التسليم والرحيل الى البصرة ، ثم ما لبث أن ضبط ثغور الاحساء ودعم حصونها ، وأصبح حاكما على المنطقة منذ عام ١٧٦٠ م .

---

(٤٨) جمال زكريا قاسم ، الخليج العربى : دراسة لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الاوربى الأول ١٥٠٧ — ١٨٤٠ دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٣٦١ .

وعندما استقر الأمر لبراك ، اتخذ من المبرز محلا لاقامته ، وبنى قصرا منيفا يعرف موقعه الآن بالقلعة ، وشيد الى جانبه مسجدا يعرف بمسجد براك(٤٩) .

* * *

(٤٩) عبد الفتاح أبو عليه ، المصدر السابق ، ص ٣٥٨ — ٣٥٩ ، ٣٦٢ .

رابعـا ـ وصـول العتـوب ـ استقرارهم ـ

تأسـيس الامارة ، مقومات الاستقلال

عند هذا الموقع من دراستنا نتوقف قليلا لنسلط الضوء على عدد من النقاط التفصيلية التى يتعين تحديد حقيقتها كخلفية طبيعية للبحث ..

* وأولى هذه النقاط ما تعلق بتسمية الكويت .
* والثانية ما يتعلق بتسمية العتوب .
* وأما الثالثة فتدور حول التركيب السكانى للكويت قبيل أن تصلها جماعات العتوب .

* والنقطة الرابعة ، عن دور الخرائط الاوربية فى التعرف على المعالم التى تشكلت منها الكويت ، ومجمل القول فى النقطة الأولى هى أن كلمة الكويت انما هى تصغير لكلمة الكوت ، والكوت هو القلعة أو الحصن ، وهناك العديد من البلدان العربية المسماة بالكوت(٥٠) ، وجمع الكوت أكوات ، ويطلق مؤرخو الجزيرة العربية هذه التسمية على الحصون المتعددة ذات القلاع والأسوار ، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : ابن بشر فى كتاب « عنوان المجد فى تاريخ نجد » .. وابن غنام فى كتاب « الغزوات البيانية »(٥١) ، والمصادر تكاد تجمع على أن براك ، شيخ بنى خالد ، أنشأ كوتا أو كويتا بالموقع المسمى بالقرين ، ثم غلب اسم الكويت على اسم الموقع ، فصارت البلدة تعرف باسم الكويت ، بدلا من القرين وبذلك تصبح الرواية المحلية الكويتية التى تذكر أن براكا ، قد بنى

---

(٥٠) ابو حاكمة ، تاريخ الكويت الحديث ، ص ١٨ .

(٥١) ابو حاكمة ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

الكوت قبل بداية القرن ١٨ الميلادى (١٢ هـ) ، وأنه تولى زعامة بنى خالد من عام ١٦٦٩ م حتى عام ١٦٨٢ م[٥٢] رواية مقبولة .

ويقول الأب انستاس الكرملى فى مقال له عن تسمية « مدينة الكويت »[٥٣] أن الكويت مشتقة من الكوت ، والكوت فى لغة جنوبى العراق وما جاوره من البلدان فى بلاد العرب وفارس هو البيت الذى يبنى على شكل قلعة حتى يسهل الدفاع عنه .

وأما بالنسبة لتسمية العتوب ، فاذا امعنا النظر فى المصادر ، التى تتحدث عنهم نجد أنها تتفاوت فى التسمية ، فالبعض يشير اليهم باسم بنى عتبة[٥٤] ، بينما يسميهم آخرون بالعتـوب[٥٥] ، وآخرون بالعتوبيين[٥٦] ، ومهما يكن من أمر الاختلاف فى الاسم ، فكأن التسميات ترجع الى الأصل الثلاثى « عتب » وهو فعل يعنى معنى الترحال من مكان الى آخر ، ويذكر الكولونيل ديكسون[٥٧] ، الذى عاش فى الكويت منذ عام ١٩٣٩ حتى وفاته بها عام ١٩٦٠ ، وكان يشغل منصب المعتمد البريطانى بالكويت ، أن الاسم « عتوب » مشتق من الفعل « عتب » ويضيف أن الشـيخ عبد الله السـالم الصباح ، أمير الكويت المعاصر له ، أخبره أن أجداده انما سموا بهذا الاسم بعد ارتحالهم من الجنوب الى الكويت شمالا ، بمعنى أنهم « عتبوا » الى الشمال ، وأما اشتقاق أسماء القبائل من معـانى

---

(٥٢) أبو حاكمة ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٥٣) مجلة الشرق البيروتية ، العدد العـاشر ، ١٩٠٤ ، ص ٤٤٩ — ٤٥٨ .

(٥٤) عثمان بن سند ، سبائك العسجد ، ص ١٨ .

(٥٥) لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب ، ص ١١٠ — ١١٢ .

(٥٦) مختـارات بومهـاى ، الجـزء ٢٦ ، ص ٣٦٢ — ٣٧٢ (بالانجلزية) .

(٥٧) ديكسون ، الكويت وجاراتها ، ص ٢٦ — ٢٧ (بالانجليزية) .

الأفعال التى تقوم بها أو تشتهر فشائع معروف فى شرقى الجزيرة العربية فقد سميت : قبائل الظفير أو الضفير وهى مجموعات من القبائل بهذا الاسم لأنها تضافرت فيما بينها ، وكذلك الحال مع عرب المنتفق ، واسمهم مشتق من الاتفاق ، وهم بدورهم قبائل عديدة شتى مختلفة الأصل والنسب(٥٨) .

واذا انتقلنا الى محاولة البحث فى سكان الكويت قبيـل أن تصلها جماعات العتوب لوجدنا أنها ــ أى الكويت ــ تقع فى ركن يرجع سكانه فى أصولهم الى عرب الشمال أو العدنانيين ، وتنزل قبائلهم فى ديار نجد وساحل العدان الممتد من قطر جنوبا الى أطراف الكويت الشمالية ، وتفيد المصادر ــ ولعل أكثرها دقة هى مدونات شركة الهند الشرقية الانجليزية التى كتبها رجالهـا العاملون فى منطقـة الخليج ــ أن حكام هذه المنطقة فى القرن الثامن عشر كانوا من بنى خالد(٥٩) ، وهم من العدنانية ، وقد استمر حكمهم فى شرق جزيرة العرب منذ القرن السابع عشر ، عندما انتزعوا السلطة من الولاة العثمانيين حتى نهاية القرن الثامن عشر ، عندما اسـتولى الوهابيون على ديارهم .

ونظرا لنشأة الكويت فى ظل حكم بنى خالد ، ونظرا لأهميتهم فى تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، نرى من المناسب أن نتوقف قليلا لنلقى نظرة على تاريخهم السابق لنشأة الكويت .

تشير الكتابات التاريخية الموثوقة الى أنه كان بمقدور شيوخ بنى خالد مواجهة تحديات أشراف ومكة وتحرشاتهم عام ١٥٨١ م عندما أرادوا منازعة سلطة بنى خالد فى الاحساء(٦٠) ، ومن الثابت تاريخيا أن قبائل بنى خالد كانت لا تكف عن الحركة الدائبة شرقى

---

(٥٨) ابو حاكمه ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .
(٥٩) ابو حاكمه ، المصدر السابق ، ص ١٩ .
(٦٠) ابو حاكمه ، المصدر السابق ، ص ١٩ .

الجزيرة العربية خلال القرن السادس عشر ، ما بين قطر جنـــوبا والبصرة شمالا ، وذلك وفقا لما تحتمه الظروف الجوية ، ويبدو أنهم كانوا على علاقة طيبة فى بادىء الأمر ، بالعثمانيين الذين اخضعوا العراق لنفوذهم فى العقد الرابع من القرن السادس عشر الى أن اخضعوا الاحساء فى عام ١٥٥٥ بمساعدة قبائل المنتفق واقد أقام العثمانيون فى الاحساء بعد أن أزالوا عنها سلطة الجبور ، وهم من قبيلة قيس واستمر حكمهم بها حتى عام ١٦٧٠ م (١٠٨٠ هـ) عندما استولى عليها براك من غرير آل حميد الخالدى ، وكان أربعـــة من الباشوات الأتراك قد تداولوا حكم الاحساء قبل أن يطردهم براك ، وهم فاتح باشا ، ثم على باشا ، فمحمد باشا ، وأخيرا عمر باشا الذى استسلم لبراك الذى ظل يحكم بنى خالد حتى وفاته عام ١٦٨٢ (١٠٩٣ هـ) وانتقل الحكم بعده الى أخيه محمد بن غرير آل حميـــد ..

وأما بالنسبة لطبيعة حكم بنى خالد فى شرقى الجزيرة فيكفى أن نذكر أن وكلاء الشركة الشرقية الهندية الانجليزية كانوا يرددون الحديث فى تقاريرهم المرسلة من الخليج الى بومباى ولندن عن حرص امراء بنى خالد على استتباب الأمن فى ديارهم ، وحماية الطـــرق التجارية على وجه الخصوص[٦١] ، كما ورد فى هذه التقارير أيضا أن مينائى القطيف والعقير كانا نقطة الانطلاق للقوافل المتجهة الى بلدان نجد فى الداخل حاملة المسك والبن والبهارات من الهند واليمن ، وكانت الكويت بالطبع ، فى موقع يتيح لها المشاركة فى هذه التجارة ، ولكنها لم تكن قد استكملت مقومات نموها فى هذه المرحلة .

والجدير بالذكر أن طبيعة التركيب القبلى لبنى خالد كانت ذات شـــــقين :

فبعضهم استقر بالمدن والقرى ، فى حين ظل البعض الآخـــر

---

(٦١) سالدانها : (أبو حاكمه : تاريخ الكويت ، ص / ٢) .

على حياة البداوة ولما كانت المدن فى شتى بقاع الجزيرة العربية تطلب الحماية من بعض القبائل النازلة فى جيرتها أصبح بمقدور القبائل المتنقلة من بنى خالد أن تمنح تلك الحماية لسائر المدن فى منطقة نفوذهم ، أما مقر تلك القبائل المتنقلة فكان فيما يبدو منطقة الاحساء فى الهفوف والمبرز ، ومن ذلك المقر كانت تتوجه غزواتهم الى نجد غربا[٦٣] ، وكذلك الى البصرة شمالا ..

وفى ظل هذا الاستقرار والمناخ الأمنى الذى أقامته بنو خالد ، نشأت الكويت وترعرعت ، بعد أن بنى فيها براك بن غرير كويته الذى اتخذه ، كما تفيد أغلب المصادر مصيفا له .. وتشير الرواية المحلية الى أن الأمير براك كان يأتى منطقة الكوت أو الكويت ، طلبا لصيد النعام الذى كان يكثر فى هذه المنطقة نظرا لصلابة أرضها واختلافها عن أراضى الحساء الرخوة[٦٢] .

الخرائط الأوربية :

وأما فيما يتعلق بالخرائط الأوربية ودورها فى الاستدلال على المعالم البارزة التى تفيد فى دراسة نشأة الكويت أو تأسيسها ، فانه على رغم ما يمكن أن ينسب اليها من سلبيات ، تفيد الباحث بلا جدال ، ولعل أكثر الأمثلة وضوحا فى هذا الصدد ، هو ظهور القرين على الخرائط الأوربية فى موقع الكويت الحديثة اليوم .

وليست هناك فى المصادر التاريخية المكتوبة قبل عام ١٦٤٥ م أى اشارة على الاطلاق الى منطقة الكويت الا ما يظهر من أسماء قليلة على الخرائط القديمة[٦٤] ..

---

(٦٢) المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٦٣) مقابلة معسيف مرزوق الشملان .

(٦٤) ب. ج. سلوت ، نشأة الكويت ، ا. ج. بريل ، ليدن ، نيويورك ، كوبنهاجن ، كولن ١٩٩١ ص ١١ (بالانجليزية) .

أما أول الخرائط التى تقدم لنا شيئا حقيقيا فهى الخـــرائط المرسومة باليد التى ظهرت فى البرتغال ، وكانت أقدمها هى الخريطة الملاحية التى رســمها « لازارو لويس » عــام ١٥٦٣ وتســتخدم الخرائط البرتغالية تسميتين فيما يتعلق بالكويت : فهناك فى مواجهة الســاحل جزيرة تسمى « ايلهادى اجوادا » أى جزيرة البئــر ، وجزيرة صغيرة أو جزيرتين أشبه ما تكونان بالصــخرتين الناتئتين تسميان « دوس يورسوس » ــ أى « الخنريرين » وهناك علامات ملاحية على بعض الخرائط بالقرب من الجزيرتين الأمر الذى يؤكد وصول السفن الأوربية الى هذا الموقع فى ذلك الوقت(٦٥) ، وكل الدلائل تؤكد أن « ايلها دى اجوادا » هى جزيرة فيلكا ، وبالتالى فهــذه الخرائط هى أقدم الوثائق التاريخية التى تتضمن اشارات لأجــزاء من أرض الكويت الحديثة ، ومن العسير تحديد الموقع الذى أطلقت علية تسمية « دوس يورسوس » وان كان الأرجح أن عوهة هى المقصودة فهناك بالقرب منها نتوءا صخريا بارتفاع قدمين فوق سطح المياه أشبه ما يكون بالجزيرة الصغيرة ، ويمكن أن يكون هــو ثانى الخنريرين ..

ثم يظهر اسمان آخران على بعض الخرائط البرتغالية وبعــض الخرائط التى تستند اليها فى تاريخ لاحق وهما : « صارا » ويبدو موقعها عادة على البر فى مواجهة « ايلهادى اجوادا » والحادفيضة Hadaviza السهل تحديد المقصود بهاتين التسميتين ، وان هنــاك ما يدفعنا الى الربط بين صارا وموقع مثل « رأس الزور » بل وحتى « الجهرة » ، ولكن هذه استنتاجات لا ترقى الى درجة اليقين ، وعلى نفس النحو يتعذر تحديد المقصود بالموقع المسمى الحافضية ، والذى يتوالى ظهوره على الخرائط اللاحقة(٦٦) .

---

(٦٥) سلوت ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٦٦) سلوت ، المرجع السابق ، ص ١١ .

وهناك خريطة ملاحية فرنسية[٦٧] ، تقدم صورة غير مسبوقة لمنطقة الخليج حيث تظهر عليها الحدود التقليدية للولايات العثمانية باعتبار منطقة البحرين هى المنطقة الشرقية اشبه الجزيرة العربية وفقا للتقسيم الادارى فى الستينات من القرن السادس عشر ، وتبين هذه الخريطة ، من ناحية أخرى ، أن هذه المنطقة كانت تحت سيطرة أمير القطيف ، وهى حقيقة تاريخية تتمشى مع ما كان سائدا فى السبعينات من القرن السابع عشر ، ومما له دلالته فى هذا الصدد ، أن هذه هى أول خريطة يظهر عليها خليج الكويت بوضوح ، دون تحديد تسميته له ، ومن الملفت للنظر أنها لا تستخدم الا الأسماء البرتغالية التقليدية عن الحديث عن أراضى الكويت ، ومن هذه الخريطة أيضا يزداد يقيننا بأن موقع جزيرة « ايلهادى اجوادا » هو على وجه التحديد موقع جزيرة فيلكا عند مدخل خليج الكويت .

وخريطة افريقيا التى يرجع تاريخها الى عام ١٧٣٢ م هى أقدم خريطة تظهر عليها كاظمة على ساحل الخليج ، وفى موقع الكويت الحديثة تقريبا[٦٨] ..

وعلى امتداد القرن الثامن عشر توارى الاسم البرتغالى « ايلهادى اجوادا » من على بعض الخرائط والرسوم البيانية الملاحية لتحل محل تسمية « بيلوتش » وتحديد بعض الخرائط التى ظهرت بعد ذلك موقع فيلكا ، فى مواجهة كاظمة ..

وان كان البرتغاليون قد أطلقوا تسمية « ايلهادى اجوادا » على الجزيرة التى تقع أمام مدخل خليج الكويت ، وهى تسمية تعنى جزيرة البئر فى اللغة البرتغالية ، فلا شك أن ذلك كان مطابقا لواقع الحال الأن فيلكا تتميز بالفعل بتوفير المياه .. والأرجح أن

---

(٦٧) سلوت ، المرجع السابق ، اللوحة رقم ١١ .

(٦٨) تولى ، دليل جامع الخرائط (اللوحة رقم ٥٢ ، فى سلوت) .

أول ظهور لهذه التسمية هو ما تسجله الخرائط الثلاث التى يضمها أطلس يدوى لجزر الهند الشرقية الهولندية وضعه « ليبيولتاف » الفترة من عام ١٧٢٨ م حتى ١٧٤٠ وما زال محفوظا ضمن مجموعة الخدمات التاريخية للبحرية بمدينة بريست ، بفرنسا ..

* * *

وصـــول العتوب واستقرارهم

تأســيس الامــارة

سبق أن تحدثنا عن أهمية الموقع الذى قامت عليه الكويت ، ومقدم الامير براك وبنائه الكويت ليتخذ منه مصيفا .

وتجمع الروايات المحلية المتواترة ، على النحو الوارد فى كتابات أبو حاكمة وبعض المؤرخين الكويتيين السابقين عليه على أن العتوب ، كانوا فرعا من قبيلة عنزة الكبرى فى نجد ، وانها بدأت الهجــرة فى النصف الثانى من القرن السابع عشر تحت حماية بنى خالــد الذين يسيطرون على المنطقة الممتدة من الاحساء الى العـــراق وهناك فى هذا الصدد عدة روايات مختلفة ، وقد توجه العتــوب فى بادىء الأمر الى منطقة قطر ، ثم عاشوا بعد ذلك ، وفقا لاحدى الروايات ، حول البصرة لبعض الوقت أو فى فارس وفقا لرواية أخرى ، وأخيرا هاجروا الى منطقة الكويت[٦٩] ..

وهناك وثيقة عثمانية يرجع تاريخها الى عام ١٧٠١ تؤكد دقة هذه الروايات الكويتية المحلية ، وكانت هذه الوثيقة فى متناول الباحثين لبعض الوقت ولكنها لم تفسر التفسير الصحيح حتى الآن[٧٠] ،

---

(٦٩) أبو حاكمه ، المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٧٠) دراسة فى تاريخ العقوب ، الوثيقة العدد الأول (١٩٨٢)

وهذه الوثيقة هى تقرير رسمى رفعه على باشا ، والى البصرة ، الى الحكومة المركزية العثمانية ، يذكر فيه أن قبيلتى العتوب والخليفات عاشتا فى منطقة البحرين فى وقت من الأوقات ، وكانت آنذاك تحت سيطرة الأعاجم (أى المتكلمين بغير العربية) اذ ظلت الجزيرة تحت النفوذ الفارسى الى أن استولت عليها القوات العمانية فى عام ١٧١٧ م ، على يد سلطان بن سيف اليعربى سلطان مسقط •

وتبدو كلمة « الأعاجم » فى هذه الوثيقة كصفة مستهجنة وغير ودية يستخدمها العثمانيون للدلالة على الفرس •

والواقع أن الوثيقة العثمانية تقدم تأكيدا له وزنه الكبير للروايات المنتشرة بين العتوب فى الكويت ، فهى تقرر أنهم — أى العتوب — طردوا والخليفات فى بندر فريحة ، فى قطر من منطقة البحرين على أيدى الهولة(*) الذين كانوا يعيشون فى بندر كنج (بالقرب من بندر لنجة الحالية) فريمه ولقد تحالف الهولة مع « الأعاجم » وعندما توالت الضربات على العتوب والخليفات راحوا يعيثون فسادا فى البحرين وينهبونها ، وقتلوا عددا كبيرا من الهولة(*) ، ثم خافوا من ردود الفعل التى كان من المتوقع أن تثور ضدهم ، فهاجر كثير منهم الى البصرة ، وكان لهم بها ٢٠٠٠ بيتا (البيت هنا بمعنى الاسرة وليس المسكن) وشكلوا جماعة لها ثقلها وقوتها تملك ١٥٠ سفينة مسلحة ببعض المدافع الخفيفة كانوا يستخدمونها كسفن تجارية لنقل البضائع الى تجار البصرة ، ولم يكن من الواضح ما استقرت عليه خططهم النهائية ، ولكن على باشا فكر فى منحهم حق الاقامة الدائمة بالبصرة ، وليس من الصعب ادراك

ص ٢٥ — ٤٢ ، النسخة العربية ٩٤ — ١٠٧ ، على أبا حسين : رداسة فى تاريخ العتوب ، الوثيقة ، العدد الاول ، ص ٨٣ — ٨٦ •

(*) أصل التسمية الحولة ، لانهم تحولوا من شاطىء الخليج العربى ليسكنوا على شاطئه الشرقى •

الدوافع التى حدت بعلى باشا لاتخاذ هذا الموقف فتجارة القوافل يمكن أن تزيد من عائدات الجمارك وبالتالى من دخله ، ومن المحتمل أنه كان يبالغ أيضا فى تصوير القوات العسكرية للقبائل حتى يبين للسلطات المركزية أن استقرار هذه القبائل وتدعيمها يمكن أن يفيد الوضع الاستراتيجى للبصرة(٧١) ••

وهذه الوثيقة العثمانية تؤكد ، بما لا يدع مجالا للشـــك ، الروايتين المتواترتين بين العتوب واللتين تقولان انهم جاءوا عن طريق البصرة أو جنوبى ايران : فكلا الروايتان صحيحتان ••

ومن أجل الفهم العام لهذه الوثيقة الهامة ، من المفيد أن نضعها فى موقعها من سياق تاريخ المنطقة •

لقد أشارت الوثيقة الى الخلفية لهجرة العتوب ومن جاء معهم من قطر الى الشواطىء العليا للخليج ، واستقرارهم فى الكويت بعد ذلك • ونعنى بهذه الخلفية الأحداث الدامية التى سبقت انتقالهم باسطولهم ، والتى وقعت بينهم وبين عرب الهواة ، اذ أغارت عشيرة الهولة هذه على العتوب حين كانوا مقيمين فى قطر فى بندر فريحة ، وأخذوهم على حين غفلة فقتلوا منهم حوالى أربعمائة شـــخص ، ونهبوا أموالهم ، فأتفق العتوب مع حلفائهم (آل مسلم) ، على التوجه الى جزر البحرين حيث كان الهولة ، فثأروا لقتلاهم ، وأحرقوا البيوت التى كانت قائمة خارج قلعة المدينة واستولوا على الغنائم والأمـــوال •

---

(٧١) الوثيقة ، العدد الأول ، ص ١٠٤ .

(*) تعتبر الفترة ما بين ١٦٤٨ — ١٦٨٧ فترة الاحتلال الفارسى الأول للبصرة ويعلل لوريمر بأن هذه الفترة التى دخلت فيها القـــوات الفارسية البصرة وظلت فيها فترة من الزمن الى أن انسحبت نتيجة انتشار وباء الطاعون وبعده ظلت المدينة شاغرة سياسيا ، وقد هجرها كثير من أهلها حتى ١٦٩٥ حين عادت الحكومة العثمانية للسيطرة عليها . راجع : لوريمر : ج ٤ ، ص ١٧٧٥ .

وعلى رغم تحقيق العتوب لهذه الغلبة على أعدائهم فانهم لم يأمنوا أن ينقلبوا عليهم تارة أخرى ، وخافوا من ردود الفعـل المعتادة للهولة فأزمعوا ترك قطر وتوجهوا شمالا الى أن توقفوا عند حدود البصرة .

ولو نظرنا فى توقيت هذا التوجه الى منطقة البصرة حيث الجبهة الجنوبية للنفوذ العثمانى ، نجد أن وصول جماعات العتوب ومن جاء معهم من الخليفات كان فى السنة نفسها التى اسـترد العثمانيون سيطرتهم عليها سنة ١٦٨٧(*) ثم توالت على البصرة بعد ذلك أحداث جسام أخرى ، فاجتاحها وباء الطاعون عام ١٦٨٩ ، ونهبها وأعمل فيها السلب عرب المنتفق ، لذلك كانت فكرة استقرار هؤلاء الوافدين لدى السلطة العثمانية الى تلك الجبهة أمرا يحتـاج الى الكثير من التحسب ، فلم يشأ على باشا متصرف البصرة آنذاك أن يبت فى هذا الأمر فكتب الى باشا بغداد يعرض عليه ذلك مبينا له كل ما يتصل بالوافدين الجدد — على رغم ما كان على باشـا عليه من سطوة فقد عرف أنه مستبد ، وفقا لمـا ورد عنه فى تقارير شركة الهند الشرقية الهولندية . غير أنه لم يفعل شيئا فى أمـر استقرار العتوب حول البصرة ، منتظرا رد والى بغداد على تقريره الذى بعثه الى الباشا هنا ، ومن الواضح أن تقرير على باشـا لم يتمخض عن اتخاذ أى خطوات عملية ، ولو أن ذلك حـدث ، لعثرنا على اشـارات لذلك فى الوثائق المودعة بدار المحفـوظات العثمانية ، وليست هناك أى اشارات لاحقة للعتوب وخليفـات كجماعتين مقيمتين بالبصرة ، ولابد أن الخليفات عادوا ادراجهم الى بندر ديلم ووفقا للروايات المتواترة بين العتوب ، قامت الحكومة العثمانية بطردهم من البصرة لمـا كانوا يثيرونه من متاعب أمـام حركة الملاحة فى شط العرب ، وبشكل ما وفى وقت ما وصلوا الى الكويت ، وهى على بعد بضعة أيام من الترحال من البصرة ، وحدث أن نزلوا فى منطقة تقع لكاملها خارج سيطرة حكومة البصرة ، وكانت

هذه الرقعة تحت سيطرة بنى خالد الذين لم يكونوا على مودة مع العثمانيين[٧٢] .

وهكذا لم تسمح السلطات العثمانية لجماعات العتوب ومن جاء معهم من الخليفات بالاقامة والاستقرار ، داخل ممتلكاتهم ، لذا أقاموا واستقروا فى أرض أخرى لا تخضع للعثمانيين ، وهى الأرض التى كانت فى سلطة بنى خالد ونفوذهم ، والتى حملت فيما بعد اسم الكويت .

وأما بالنسبة لحكام الكويت ، فآل صباح وخليفة وغيرهم من الاسر العتبية ينسبون أنفسهم الى بطون عنزة : فآل صباح ينتمون الى جميلة ، وهى فخذ من عنزة ، وكانوا فى الأصل ينزلون الهدار من الأفلاج فى جنوب شرقى نجد[٧٣] ، ومن هناك هاجروا مع سائر العتوب الى قطر ومنها الى الكويت ، وعلى الرغم من أن هذه الرواية لا تحدد على وجه الدقة ، حتى تمت هذه الهجرة ، الا انه يمكن القول انه ربما كانت جزءا من هجرة عنزة الكبرى التى تمت فى أواخر القرن ١٧ الميلادى ، عندما هاجرت عنزة وغيرها من قبائل شرقى الجزيرة العربية بسبب القحط ، واتجهت جماعات العتوب فى هجرتها شرقا الى الاحساء وقطر ، ومن تلك النواحى هاجرت لتستقر نهائيا فى الكويت[٧٤] فى حين هاجرت جماعات أخرى من عنزة شمالا الى بلاد الشام .

أما البلدان التى طاف بها العتوب قبل حلولهم بالكويت فلا نستطيع أن نحددها على وجه الدقة ، وان كنا نميل الى الاعتقاد بانهم قضوا فترة طويلة فى قطر ، قد لا تقل بحال عن ٥٠ سنة ،

---

(٧٢) سلوت ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٧٣) راجع عبد العزيز الرشيد ، الجزء الاول ، تاريخ الكويت : ص ١٢ .

(٧٤) ابو حاكمه ، المرجع السابق ، ص ٢٣ .

استطاعوا خلالها أن يتعلموا ركوب البحر وأن يصبحوا بالتـالى أمة بحرية ، ولعلنا بذلك نستطيع تفسير الرواية المحليـة القائلة بسفرهم الى الكويت بحرا(٧٥) •• *

والروايات المحلية تفترض ثلاثة مواقع نزلها العتوب بعـد أن غادرت قطر ، ومن احدها توجهوا الى الكويت ، الأول هو خور الصبية الواقع الى الجنوب الى البصرة •• والثانى يفترض انهم أتوا الى الكويت عبر الخليج بعد طردهم من الشاطىء الشرقى ، بينمـا يميل البعض الى القول بانهم أبحروا من قطر الى الكويت بعد أن اختلفوا مع آل مسلم ومن قطر تفرقت الاسر العتبية ، الى سـائر موانىء الشاطىء الشرقى للخليج ، ثم عادت تتجمع فى الكويت من جديـد ••

وعلينا فى هذا الصدد أن نميز بين أمرين : الأول هو وصـول آل صباح الى الكويت والذين أصبح رئيسهم شيخا عليها حوالى عام ١٧٥٠ م ، والثانى هو وصول باقى الاسر العتبية ، وعلى الرغم من أن مستر واردن وغيره من موظفى حكومة بومباى الانجليز يزعمـون أن آل صباح ومعهم آل خليفة وآل جلاهمة ، وغيرهم من العتوب وصلوا الكويت حوالى ١٧١٦ م(٧٦) ، احتلوا البلدة وبدأوا فى ادارة شئونها ، فنحن نرى فى هذا القول شيئا من المغالاة لأنه من الثابت أن العتوب لم ينزلوا الكويت دفعة واحدة ، وثانيا لأن عبارة المستر واردن تتضمن خطأ فى الترتيب الزمنى الحكام ، فصباح وخليفة لم يكونا قد ظهرا على مسرح الأحداث كزعيمين لجماعتيهما بعد ، على أن هذا لا يعنى بحال أن أسلاف صباح بن جابر لم يكونوا

---

(٧٥) ابو حاكمه ، المرجع السابق ، ص ٢٣ .
(٧٦) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

قد وصلوا الى الكويت فى مثل ذلك الوقت المبكر فى بداية القــرن الثـــامن عشر الميلادى[٧٧] .

* * *

العتـــوب والنزعة الاستقلالية

استقر عزم العتوب منذ وقت مبكر على ايفاد زعيمهم الأول الشيخ صباح الى بغداد ليطلب من الوالى العثمانى بها أن تقرهم الدولة العثمانية فى منطقة استقرارهم وانه نجــح فى مســعاه ، وتتضارب الآراء حول الأسباب التى دفعت العتوب الى ذلك فيعزروه البعض الى سعيهم للمحافظة على التوازن بين نفوذ بنى خالد فى الاحساء والقطيف من ناحية وبين الدولة العثمانية من ناحية أخرى باعترافهم بشىء من الولاء طالما انه لم يترتب عليه أى تأثير على أوضاعهم ، والجدير بالذكر أن الصراع فى تلك الحقبة لم يكن بين بنى خالد والدولة العثمانية ، وانما كان بين بنى خالد والعتوب الذين رأوا اكتساب دور من الشرعية من خلال علاقتهم بدولة الخــلافة الاسلامية سوف يكسبهم قدرا من الحصانة فى مواجهة بنى خالد أو غيرهم[٧٨] . .

أما حسين الشيخ خزعل : يذكر : ((عندما انفرد الشــيخ صباح بحكم الكويت أخذ على عاتقه توطيد الأمن ، فازدهرت الكويت ، ولما شعر زعيم بنى خالد الامير محمد بن غرير ، بما قام به الشيخ صباح فى الكويت أيقن أن اخضاعها بالقوة لطاعته أصبح من الصعب لذلك اتبع اسلوب الدبلوماسية والسياسية ، فطلب من الشــيخ أن

(٧٧) ابو حاكمه ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٧٨) الكويت وجودا وحدودا مؤسسة الكويت للتقدم العلمى — الطبعة الأولى ص ٥١ .

يرسل اليه أحد الكويتين ليتفاوض معه ، فأرسل الشيخ ولده عبد الله للتفاوض ، واتفق الطرفان على :

ــ أن يعترف زعيم بنى خالد باستقلال الشيخ صباح فى حكم الكويت •

ــ يعقد بين الطرفين اتفاقية حسن جوار •

ــ وأن لا تنضم الكويت الى خصوم بنى خالد •

ــ أن ينفذ من سيخلفه فى حكم الاحساء ، فى شأن القبائل العربية المنتشرة بين القطرين[٧٩] •

وليس من شك فى أن تدعيم العتوب لوضعهم فى الكويت قد ساعد آل صباح على الابقاء على علاقتهم مع الدولة العثمانية فى اطار الجانب الدينى ، ولم يسمحوا أبدا لأى من ممثلى الدولة وخاصة فى الولايات العراقية ، بأن يربطوا بين نفوذ الدولة الدينى وسلطتها السياسية ••

وهناك حقائق يجمع عليها جمهرة الباحثين والمؤرخين والتى تؤكد نجاح عتوب الكويت فى الابقاء على علاقاتهم بالدولة العثمانية فى الاطار الدينى ، شهدتها المنطقة على امتداد القرنين ١٨ ، ١٩ م •

أولا : اعتماد أهالى الكويت على أنفسهم فى الحماية ضد الهجمات التى تعرضوا لها خاصة من قبائل بنى كعب والمنتفق دون تلقى أى مساعدة من جانب السلطات العثمانية فى البصرة •

ثانيا : ان الكويت كانت ملجأ للثائرين على السلطات العثمانية فى بغداد ، ومن أمثلة ذلك لجوء الشيخ ثوينى شيخ المنتفق ومصطفى

---

(٧٩) راجع حسين الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسى ، الجزء الأول ، ص ٤٣ ــ ٤٤ .

آغا لتسليم الديرة الى الشيخ عبد الله الصباح (١٧٦٢ — ١٨١٥) ورفض شيخ الكويت تسليمها لوالى بغداد •

ثالثـا : وثمة واقعة شهيرة أخرى تؤكد هذا المفهوم الكويتى للعلاقة مع دول الخلافة ، وهى انتقال الوكالة البريطانية الثالثة لشركة الهند الشرقية البريطانية من البصرة الكويت ، وقد ذكرت المصـــادر البريطانية أن هذا الانتقال جرى بعد خلاف وقع مع الســلطات العثمانية ، ولا جدال فيما يؤكده من أن الكويتيين لم يعولوا فى أى وقت على السيادة السياسية العثمانية على بلادهم(٨٠) •

وهكذا نجد أن الكويت ترتبط ارتبـــاطا وثيقا بالحضـــارات البحرية والصحراوية ، ومستقلة عن الحضارات النهرية والزراعية •

* * *

---

(٨٠) المرجع السابق

أهـم المراجـــــع

أولا ـ الكتب العربيـــة :

١ ـ أحمـد البشر الرومى :مقـالات عن الكويت ـ مكتبة الأمل ، الكويت •

٢ ـ أحمد مصطفى أبو حاكمـة :

١ ـ تاريخ الكويت ، الجزء الثانى ، القسم الأول •

٢ ـ تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، مكتبـة دار الحياة ـ ١٩٦٥ ، بيروت •

٣ ـ تاريخ الكويت الحديث ، الناشر : دار ذات السلاسل ، ١٩٨٤ •

٤ ـ لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق مؤلفه مجهول ، طبع فى بيروت ١٩٦٧ •

٣ ـ ابن الأثـــير : الكامل فى التاريخ ، دار الكتاب العـربى ، بيروت •

٤ ـ ابن حـزم : جمهرة أنساب العرب ، دار المعارف ١٩٤٨ ، القـــاهرة •

٥ ـ ابن خـرداذبة « أبو القاسـم عبيد الله ابن عبد الله » : المسالك والممالك ، طبع فى ليدن ١٨٨٩ •

٦ ـ البـكرى « أبو عبيـد الله عبد الله بن عبد العـزيز » : معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة •

٧ — جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ، « دراسات لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الاوربى الأول ، دار الفكر العربى القاهرة ١٩٨٥ .

٨ — حسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسى ، الجزء الأول ، دار مكتبة الهلال ، ١٩٦٢ .

٩ — حسن سليمان داوود : الكويت ماضيها وحاضرها ، من منشورات المكتبة الأهلية ، بغداد .

١٠ — خالد سالم محمد : جزيرة فيلكا ، مؤسسة دار الكتب ، الكويت .

١١ — ديسكون ، هـ. ر. ب. : الكويت وجاراتها ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ .

١٢ — سليمان سعدون البدر :

١ — منطقة الخليج العربى خلال الألفين الثانية والأولى ق. م .

٢ — مملكة ديلمون : جامعة الكويت ، ١٩٧٨ .

١٣ — سيف مرزوق الشملان : من تاريخ الكويت ، الطبعة الأولى ، مطبعة نهضة مصر .

١٤ — صالح أوزيران : الأتراك العثمانيون والبرتغاليون من الخليج ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة ، مطبعة الارشاد ١٩٧٩ .

١٥ — عثمان بن سند البصرى : سبائك العسجد فى أخبار أحمد ... نجل رزق الأسعد ، مطبعة البيان ، بومباى ... ١٨٩٦ م — ١٣١٥ هـ ...

١٦ — عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

١٧ — عبد الفتاح أبو علية : دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية الحديث المعاصر ، دار المريخ ، الرياض ، ١٩٨٤ .

١٨ — عبد الله الحاتم : من هنا بدأت الكويت ، المطبعة العمومية ، دمشق .

١٩ — عبد الكريم بن عبد الله المنيف الوهيبى : بنو خالد بنجد ، الناشر ، دار ثقيف للنشر والتأليف ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٩ .

٢٠ — ابن بشر عثمان بن عبد الله : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، مكة ١٣٤٩ هـ — ١٩٣٠ م .

٢١ — ابن غنام : الغزوات البيانية والفتوحات الربانية وذكر السبب الذى حمل على ذلك . بومباى ١٩١٩ .

٢١ — لوريمر : دليل الخليج : الجزء الثالث (القسم التاريخى) ، طبع على نفقة الديوان الأميرى بقطر .

٢٢ — مؤسسة الكويت للتقدم العلمى :

مجموعة من الكتاب ، الكويت وجودا وحدودا ، الطبعة الأولى ١٩٩١ .

٢٣ — مصطفى الدباغ : الجزيرة العربية ، موطن العرب ومهد الاسلام ، الناشر دار-الطليعة بيروت ١٩٧٣ .

٢٤ — السعودى « أبو الحسن على بن الحسين » : مروج الذهب ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، بيروت .

٢٥ ـ الهمـــدانى : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد الأكوع ، بيروت ١٩٤٧ •

٢٦ ـ يعقوب يوســف الغنيم : كاظمــة فى الأدب والتــاريخ ، القاهرة ١٩٥٨ •

٢٧ ـ يوسف بن عيسى القنــاعى : صفحات من تاريخ الكويت ، القاهرة ١٩٤٦ •

٢٨ ـ ابن عبــد ربــه : العقــد الفرد ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٢٦ •

٢٩ ـ اســماعيل بن حمــاد : الصحاح ، تاج اللغــة ، تحقيــق أحمد عبد الغفــور •

ثانيــا : الكتب الأجنبيــة :

1 — Slot. B. J (91991) The Original of Kuwait.

ثالثــا : المجــلات العلميــة :

١ ـ مجلة الشرق البيرونية ، العدد العاشر ١٩٠٤ •

٢ ـ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٤٤ •

٣ ـ مجلة الوثيقة ، مركز الدراسات التاريخية ، البحرين •

رابعــا : التقــارير :

ـ تقرير وزارة الاعلام ١٩٦٤ عن أعمال البعثة الدنماركية للتنقيب (١٩٥٨ ـ ١٩٦٣) •

خامســا : المقــابلات :

ـ مقابلة مع المؤرخ الكويتى سيف مرزوق الشملان •

قــراءة فى نــص محــاولة للفهــم
(دراســة تحليلية للأيــام الأخــيرة
من عهــد المنصــور بن أبى عامر العامرى الأندلسى)

د. يوسف بن احمد حوالة

الاستاذ المشارك

كلية التربية ـــ جامعة الملك عبد العزيز

بالمدينــة المنــورة

المنصور بن أبى عامر : محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن عامر بن أبى عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى اليمنى[1] ، شخصية سياسية أندلسية مشهورة ، احتل مكانة فى

---

(١) ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) : الحلة السيراء ، حققه وعلق حواشيه ، حسين مؤنس ، منشورات الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٣ م ، جزءان ، الجزء الأول ، ص ٢٦٨ .

والمنصور بن أبى عامر العامرى ، حظى بترجمات تفاوتت طولا وقصرا عند مؤرخى التراجم المشارقة والمغاربة على السواء ، بد أن معظمها قد اسبغت عليه بترجمة مستفيضة . ولعلنا نكتفى هنا باحالة القارىء الى كتاب : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكــر وزيرها لســان الدين بن الخطيب للمقرى (ت ١٤٠١ هـ) ، تحقيق احسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، ٨ مجلدات ، الجزء الأول ، ص : ٩٦ ـــ ٤٢٣ ، ٥٧٨ ـــ ٥٩٦ حيث استقصى هنــا معظم ما جاء فى تراجم من سبقه من المؤرخين . وانظر كذلك ابن بسام الشنترينى (ت ٥٤٢ هـ) : الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس ، ٤ أقسام ، ويقع كل قسم فى مجلدين ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٩٩ هـ ـــ ١٩٧٩ م ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٥٦ ـــ ٨٦ ، وهى على غاية من الاهمية . وتنفرد عن ترجمة المقرى للمنصور بأمر احتوائها على معلومات وحقائق لم يشر لها المقرى ولا من سبقه من أصحاب التراجم .

التاريخ الأندلسى ، تزاوج فيها الاعجاب به فرط التعجب(٢) بالتحامل واتهامه بالوصولية والنفعية(٣) ، ثم الكراهية(٤) حد التجنى .

ولعل السبب فى ذلك يعود الى أن هذا الرجل اســتطاع أن يؤسس له ولأسرته ملكا عريضا ودولة داخل دولة ، هى الدولة العامرية(٥) التى قامت فى قلب الدولة الأموية الأندلسية ، مستغلا

---

(٢) انظر مثلا على ذلك : ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) : أعمــال الأعلام فيمن بوع قبل الاحتلام من ملوك الاســلام ، تحقيق وتعليــق ا. ليفى بروفنسال ، نشر على جزأين فى عدة اقسام ، والاحالة المقصودة وردت فى الجزء الذى نشرته دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٦ م ، ص ٥٨ ، ٦٨ . المقــرى : نفح الطيب ، ص ٣٠٤ — ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ — ٤١١ ، ٥٩٥ — ٥٩٧ . حيث استهوتهما سياسته ، وأعماله الجهادية ضد النصارى .

(٣) انظر مثلا على ذلك : عبد المجد نعنعى : تاريخ الدولة الأموية فى الاندلس — التارخ السياسى — منشورات دار النهضة المصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٦ م ، ص ٤٢٦ . حيث رماه بانه (ارتكب من الجرائم ما لا حصر له ، ومن الموبقات ما لا عدد له ، بعيدا عن التأثر بأية مناقبية او خلق كريم) حسب تعبيره الحرفى .

(٤) من الطبيعى ان تتمثل تلك الكراهية عند بعض المؤرخين الغربيين — وفيهم اسبان — لانزعاجهم من حملات المنصور على ممالك النصــارى .

انظر مثلا ، رجب عبد الحليم : العلاقات بين الممالك الاسلامية والنصرانية فى أسبانيا منذ الفتح وحتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، رسالة دكتوراه ، لم تنشر ، جامعة القاهرة ، كلية الآداب ، قســم التاريخ ، ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م ، ص ١٥٩ — ١٦١ ، ١٧٩ — ١٨٠ .

وانظــر :

DOZY, R : Spanish Islam. History of the Moslems in Spain. London, 1913. Vol. 11, pp. 275.

(٥) النص على انها دولة قائمة الأركان ، اشار اليه ابن حيــان فى كتابه الموسوعى : المقتبس من انباء أو أخبار اهل الاندلس — بحسب

الظروف التاريخية المحيطة وهى : صغر سن الخليفـــة الشرعى : هشام بن الحكم آنذاك (٣٦٦ ــ ٤٠٢ هـ)[٦] ، وتكالب النافذين من

=

الاختلاف فى ذلك ، وقد الف كتابا مستقلا من موسوعته المقتبس : بعنوان الدولة العامرية ، ثم اخذ عنه معظم المؤرخين القدامى والمحدثين الذين ارخوا للدولة الأموية هذا الوصف فى الفترة التى انتصبت فيها الدولة العامرية (٣٦٦ ــ ٣٩٩ هـ) .

انظر ابن حيان (ت ٤٦٩ هـ) : المقتبس من انباء أهل الاندلس ــ تؤرخ للسنوات الخمس الممتدة من : ٢٣٢ ــ ٢٦٧ هـ ، حققه وقدم له وعلق حواشيه محمود على مكى ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٧٣ م ، ومكان الشاهد يقع فى الصفحات : ٧٦ ــ ٨٠ من مقدمة المحقق .

(٦) الخليفة الأموى : هشام بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر ، هو ثالث خلفاء الدولة الأموية الاندلسية ، وقد ولد ســـنة ٣٥٤ هـ ، وتولى الخلافة سنة ٣٦٦ هـ ، ومعنى هذا أنه تولى الخلافة صبيا لما يبلغ الحلم بعد . وهذا ما ادى الى ان تتضافر اطماع الطامعين بالسلطة من رجال الدولة ــ وفيهم محمد بن أبى عامر كما قلنا فى المتن ــ وكذلك موظفى البلاط الى الانفراد بالأمر دونه ، وهو ما تمكن محمد بن أبى عامر من فعله حقيقة ، حتى غدا المؤيدهشام ، صورة بلا معنى . والحق ان المؤيد لم يجرب حتى يمكن الحكم فيه : له أو عليه . نقول ذلك لأن اكثر المؤرخين القدامى تبنوا قضية لم يتبين لهم الدليل عليها ، وهى أن المؤيد كان ضعيفا ، اخرقا أبلها ، فالحقيقة أن تسلط ابن أبى عامر عليه ، لم يتح الفرصة لأن يجرب الرجل ولا سيما بعد ان تجاوز سن الطفولة . وعلى كل حال ظل الخليفة المؤيد يتولى الخلافة اسميا من عام ٣٦٦ ــ ٤٠٢ هـ ، فى ظل الدولة العامرية ، ثم فى ظل الخلفـــاء الأمويين أبناء عمومته الذين أسقطوا الدولة العامرية . ولقد ترجـــم له كثير من أصحاب التراجم الأندلسية ، وكذلك مؤرخو التواريخ العامة . الا أن ابن عذارى (ت ٦٩٥ هـ) : البيان المغرب فى أخبـــار الاندلس والمغرب ، ٤ أجزاء ، حقق الأجزاء الثلاثة الأولى ، ج. س . كولان وليفى بروفنسال ، وحقق الجزء ارابع احسان عباس ، منشورات دار الثقافة ، بيروت ، دون سنة للطبع ، يظل افضل من تقصى أخبار دولة هشام المؤيد ، بفضل غنى مصادره وتعددها ، حتى أنها ــ أى ترجمة

=

رجال الدولة والبلاط ـــ وهو منهم ـــ على الاستئثار بالحكم والسلطة دون الخليفة الطفل الذى لم يتعد الحادية عشرة من عمره ، ثم اشتداد المقاومة النصرانية • فكان أن نجح ـــ أى المنصور ـــ فى الوصول الى ذروة السلطة ، متمسكا بها فترة طويلة (من ٣٦٦ ـــ ٣٩٢ هـ) ، مبقيا على النفوذ الاسمى الروحى للخليفة ، فى خطوات محسوبة بدأت بالاطاحة بالخصوم من رجالات الدولة والبـــلاط ، وثنت بإخماد ذكر بنى أمية وقطع كل أمل لهم فى استعادة سلطانهم ، ثم توجت بانتهاج سياسة الهجوم المتواصل سنويا على ممـــالك النصارى فى الاندلس آنذاك(٧) •

والنص الذى استهدفته القراءة مستل من كتاب ابن بسام الشنتريني : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة(٨) ، والذى احتفظ لنا بشذرات واسعة من موسوعة شيخ مؤرخى الاندلس : ابن حيـــان القرطبى (ت ٤٦٩ هـ) ، صاحب كتاب المقتبس من أنباء أهل الاندلس ، الذى تحدث فيه المؤلف عن أحداث قيام الدولة العامرية التى عاصرها بنفسه • وأفردها بجزء مستقل من كتابه أو موسوعته القيمة : المقتبس ،

=

ابن عذارى ـــ أوسع وأتم بكثير من تتبع المقرى فى نفح الطيب لأخبار وترجمة المؤيد .

انظر الجزء الثانى من البيان المغرب ، ص ٢٥١ ـــ ٢٩٤ ، الجزء الثالث ، ص ١ ـــ ١٢٠ .

(٧) عن هذه الأحداث والمزيد من تفصيلاتها ، انظر ابن خلدون (ت ٧٣٢ هـ) : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ، ضبط المتن ووضع الحواشى والفهارس خليل شحادة ، وراجعه سهيل ذكار ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ ـــ ١٩٨١ م ، ٨ مجلدات ، ج ٤ ، ص ١٨٨ ـــ ١٩٠ . المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٣٩٩ ـــ ٤٠٢ ، ٤٠٣ ـــ ٤٠٧ ، ٤١٣ ـــ ٤١٦ .

(٨) القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٧٣ ـــ ٧٦ .

تحت عنوان : الدولة العامرية . ومن المعروف أن جزءا كبيرا من كتاب المقتبس — وغيره من مؤلفات ابن حيان ، ما زال مفقودا[٩] ، رغم العثور على خمس قطع منه حتى الآن —[١٠] . ولقد بات واضحا لدى الباحثين أن مقتطفات منه ، قد حوتها كتب بعض مؤرخى الأندلس ، ومنهم ابن بسام فى الذخيرة ، وابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) فى كتابه : أعمال الأعــلام فيمن بويع قبل الإحتــلام من ملوك الإســلام[١١] .

هذا النص الذى استل من كتاب الذخيرة لابن بسام ، نص

---

(٩) أنظر المقدمة الضافية التى قدم بها محمود على مكى للقطعة التى نشرها من كتاب المقتبس لابن حيان ، وهى القطعة الثانية كما ســبق وأشرنا فى الحاشية رقم ٥ ، ص ٦٤ — ١٤٦ .

(١٠) ظهرت من كتاب المقتبس حتى الآن خمس قطع هى :

١ — القطعة الأولى وتؤرخ للسنوات الممتدة من ١٨٠ — ٢٣٢ هـ ، مع ضياع أحداث بعض السنوات ، وقد حققها ونشرها المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسـال ، غير أنها ضاعت بعد ذلك .

٢ — القطعة الثانية هى التى حققها وقدم لها وعلق عليها محمود على مكى ، وتتضمن أحداث الفترة الممتدة من ٢٣٢ — ٢٦٧ هـ — كما مر ســابقا .

٣ — القطعة الثالثة ، نشرها الراهب الاسبانى ملتشور انطونيا فى باريس سنة ١٩٣٧ م ، وتتحدث عن الفترة الممتدة من ٢٧٥ — ٣٠٠ هـ .

٤ — القطعة الرابعة ، وقد حققها ونشرها عبد الرحمن على الحجى ، وتتحدث عن أحداث خمس سنوات غير كاملة من عهد الخليفة الأموى المستنصر بالله (٣٦٠ — ٣٦٤ هـ) .

٥ — ثم ظهرت حديثا قطعة خامسة عثر عليها فى خزانة القصر الملكى بالرباط بالمملكة المغربية وتتحدث عن الثلاثين سنة الاولى من عصر عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) وحققها بدرو شلميتا وفيدريكو كوورنيطى ومحمود صبحى .

(١١) انظر مقدمة محمود على مكى لكتاب المقتبس لابن حيــان ، ص ١٤٤ .

تاريخى مهم عن عهد المنصور بن أبى عامر العامرى ، وتحديدا عن الأيام الأخيرة من عهده • ولقد رأى الباحث أن النص خليق من خلال إجراء دراسة تحليلية له ، بالكشف عن جوانب نفسية فى شخصية المنصور بن أبى عامر ، ثم هو خليق بكشف الظروف السياسية المحيطة : زمانا ومكانا وشخوصا ، من خلال التوقف عند تفاصيل اللحظات الأخيرة للمنصور فى الحياة الدنيا ، بعد أن شعر بدنو أجله ، ثم تصرفاته التى توضح معطيات العهد برمته •

هذا شيء ، والشيء الآخر أن الباحث رغب من خلال تأكيده على ان هذه القراءة محاولة للفهم ، أن يجرى مرانا يدرب من خلاله فكره : منهجيا وتاريخيا باعتماد أسلوب الاسقاطات التاريخية أو الارتدادية فى المعالجة التاريخية فى ضوء قواعد نقد الأصل التاريخى المعروفة . الاستنباط أو الاستنتاج ــ المقابلة ــ المقارنة ، التعليل ، مع التأكيد على عدم تحميل النص أكثر مما تحتمله ألفاظه من المعانى والحقائق عند استنطاق النصوص •

ــ النـــص ــ

[•••• وخرج المنصور إلى الغزاة ، وقد وقع فى مرضه الذى مات منه فى صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، واقتحم أرض جليقية من تلقاء مدينة طليطلة ، ومرضه يخف وتتا ، ونفذ الى عمل بنى غومس الى أرض قشتيلة ، بلد شانجة بن غرسية ، وهو كان مطلوبه الذى ألب عليه الجماعة • فأحل الغارات بأقطاره فقويت عليه العلة هناك] •

[•••• وما كان بين نزوله واستغلاله إلا الفترة لقوة الخلفة ، وبذلك قطع أربعة عشر يوما حتى وصل الى مدينة سالم • وكان هجر الأطباء فى علته تلك لاختلافهم فيها ، واقتصر على أوصــاف كاتبه الجزيرى عبد الملك ، وأيقن هنالك بالموت ••• فاشتغل ذهنه يومئذ بقرطبة ، وهو بمدينة سالم ، وقد أيقن بالوفاة ، فأمر ابنه

عبد الملك بالنفوذ لشدها فى طائفة من ثقاة غلمانه بعد أن أوصى كلهم أشتاتا وجماعة ، ثم خلا بولده عبد الملك يوصيه ويودعه ويقبض على يده ، وكلما ذهب عنه استرده مستدركا بوصيته ، وعبد الملك يبكى فينكر ذلك عليه ، ويقول : هذا أول العجز والفشل الى أن قضى وطره مما بينه وبين عبد الملك ، وأمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر الى أن ينفذ حكمه فيه •••• وخرج عبد الملك الى قرطبة ومعه القاضى ابن ذكوان ، فدخلها فى صدر شوال من العام ، فسكن الإرجاف بموت والده ، وعرف الخليفة كيف تركه] •

[قال ابن حيان ، قال لى أبى خلف بن حسين : ووجد المنصور بعض الراحة ، وأمر أن ندخل عليه جماعة ، فدخلت فى جملتهم ، ودنوت منه • وهو كالخيال لا يبين كلاما ، وأكثر عمله بالاشارة كالمسلم المودع ، وخرجنا فكان آخر العهد به • ومات ليلة الاثنين لثلاث بقين لرمضان فى العام المؤرخ ، وعلينا فى العسكر عبد الرحمن ابنه فعزيناه • وكان أوصى أن يدفن حيث يقبض ولا ينقل تابوته ، فدفن فى قصره بمدينة سالم] •

التحليـــــل

فى إطار قراءة النص ومحـــاولة فهمه ، تقتضى الدراســة التحليلية الهادفة التى تتبع الأبعاد النفسية فى شخصية المنصور بن أبى عامر ، ثم الظروف السياسية المحيطة : زمانا ومكانا وشخوصا ، أن نقسمه الى أقسام ثلاثة ، تندرج تحتها فقرات متعددة ، حتى يستقيم أمر إخضاعها للتحليل •

القســم الأول

يتضمن القسم الأول من النص ثلاث فقرات هى :

[••• وخرج المنصور الى الغزاة ، وقد وقع فى مرضه الذى مات منه فى صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة] •

[وأقتحم أرض جليقية من تلقاء مدينة طليطلة ، ومرضـه يخف وقتـا] •

[ونفذ إلى عمل بنى غومس إلى أرض قشتيلة ، بلد شانجة ابن غرسيه ، وهو كان مطلوبه الذى ألب عليه الجماعة • نأحـل الغارات بأقطاره فقويت عليه العلة هناك] •

الفقـرة الأولى :

[•••• وخرج المنصور الى الغزاة ، وقد وقع فى مرضه الذى مات منه فى صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة] •

تستوقفنا بادىء ذى بدء عبارة ابن حيان المتعلقة بخروج المنصور الى الغزوة أو الغزاة كما هو نص عبارته ، فالحق أن المنصور انتهج مذ آل اليه أمر السلطة فى الأندلس ، وغدا هو المهيمن على الأمور كلها ، مهاجمة ممالك النصارى ، وحرص على أن يكون زمام المبادرة بيديه ، ولذلك فقد تعددت غزواته التى كان يخرج فيها كل عام على هذه الممالك التى لم تسلم منه جميعا ، حتى بلغت غزواته ٥٦ غزوة منذ سنة ٣٦٦ حتى هذه السنة التى وقع فيها مرضه الذى مات منه سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة • واقد أصبحت هذه السياسة التى انتهجها المنصور ضد ممالك النصارى(١٢) ، عرضة للتأويلات

---

(١٢) الحديث عن الممالك الاسبانية النصرانية التى ظهرت تباعا فى الاندلس ، والتى رفعت جميعها بعد لأى من تأسيسها شعار الاسترداد ، اى استرداد أراضى الآباء والأجداد كما كانوا يصرحون ، قد لا يعنينا هنا ، ولكن كل الذى يمكن قوله ان هناك خمس ممالك تكونت منذ أن عجز المسلمون عن فتح شبه جزيرة ايبريا كلها فى عهد الفتـح وحتى القرنين الرابع والخامس الهجـريين (العاشر والحـادى عشر الميلاديين) وهذه الممالك هى :

١ ـــ مملكة ليون او استوريش أو جليقية (بحسب النسـبة الى المدينة : ليون أو المنطقة : استوريا او الولاية : جليقية) وتقع فى

. . . .

=

الشمال الغربى من اسبانيا وعاصمتها ليون . وقد تأسست فى عهد الولاة (٩٧ — ١٣٨ هـ) .

٢ — قشتالة : وتقع فى الشمال ، وموقعها بين مملكتى ليون ونافار وعاصمتها برغش ، وتأسست فى منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميـــلادى .

٣ — نبارة نبرة (نافار) وتقع فى الشمال والشمال الشرقى من اسبانيا . وعاصمتها مدينة بنبلونة وتأسست فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى كذلك .

٤ — امار برشلونة (قطلونيا) فى الشمال الشرقى وتأسست فى بداية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

٥ — امارة ارغونة ، آراجون وهى مجاورة لملكتى قشتالة ونافار وهى آخر الممالك تأسيسا . وقد تأسست فى بداية القـــرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

عن هذه الممالك انظر :

محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس — من الفتـــح الى بداية عهد الناصر العصر الاول ، اقسم الاول ، منشورات مكتبة الخانكى ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ، ص ٨٠ — ٢١٢ ، ٣٥٣ — ٣٦١ ، وكذلك دولة الاسلام فى الاندلس — الخلافة الاموية والدولة العامرية ، العصر الاول ، القسم الثانى ، منشورات مكتبـــة الخانكى ، القاهرة ، طبعة ٩ ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ، ص ٥٩٠ — ٥٩٢ ، وكتابه الثالث : دولة الاسلام فى الاندلس — دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى — العصر الثانى ، منشورات مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ، ص ٣٧٧ — ٣٧٨ ، ٤٠٥ — ٤٠٦ ، ٤٠٩ — ٤١٠ . حيث استوعب البدايات التاريخية لنشوء هذه الممالك والتطورات التى مرت بها فى نقص واسع يغنى عن العـــودة لمراجـــع أخرى ، لاعتماده على مصادر اسبانية إصيلة ، وكذلك مصادر اسلامية عرضت لتلك الممالك .

وقد كانت العلاقات بين الاندلس والممالك الاسبانية وشـــكلها

=

والتفسيرات المختلفة من قبل نفر من المؤرخين المحدثين الذين شككوا في مرامى المنصور الحقة من هذه السياسة[١٣] .

=

وتطورها ، مجالا لأطروحة علمية ، هى التى تقدم بها : رجب محمد عبد الحليم بعنوان العلاقات بين الممالك الاسلامية والنصرانية فى اسبانيا منذ الفتح وحتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، لنيل درجة الدكتوراه فى الآداب (تاريخ اسلامى) من قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، وقد نال الدرجة فعلا فى عام ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م كما مر فى المعلومة التوثيقية الوارد ذكرها فى حاشية رقم ٤ من هذا البحث .

(١٣) تفاوتت تفسيرات هؤلاء للهدف الاساسى من غزوات المنصور هذه ، فمحمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس — الخلافة الأموية والدولة العامرية ، ص ٥٤٠ — ٥٤١ ، يقول : ان المنصور اراد بذلك سحق الممالك الاسبانية سحقا تاما ، واخضاعها لسلطة الخلافة . ومن هنا فقد اختلفت سياسته عن سياسة اسلافه من القادة والأمراء الذين كانوا يحاربون فى معظم الأحيان للدفاع ، ورد عاديات النصارى ، بينما انتهج سياسة الهجوم المتواصل الدائب . اما احمد بدر فى كتابه : تاريخ الاندلس فى القرن الرابع الهجرى — عصر الخلافة ، منشورات مطابع الف باء — الأديب ، دمشق ، ١٩٧٤ م (يشكل الجزء الثانى من كتابه ، اما الجزء الأول ، فقد عنونه بـ : دراسات فى تاريخ الاندلس وحضارتها — من الفتح حتى الخلافة ، ونشرته مكتبة أطلس ، دمشق ، ١٩٦٩ م) ، يقول فى ص ٦٩ ، ان غزوات المنصور هذه ترتبط بالحالة الداخلية فى الاندلس وبغاية كسب ود الناس وبهر انظارهم بالخروج الى الجهاد ، والعودة منه مع الأسرى كبرهان على النصر . ويوافق احمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والاندلس ، منشورات دار النهضة العربية ، بيروت ، طبعة ١٩٧٨ ، ص ٢٢١ ، احمد بدر فى مسالة الرغبة فى الحصول على الشعبية ، ويزيد على ذلك هدفا ثانيا ، هو رغبة المنصور اكساب حكمه صفة الشرعية .

غير أن الواضح فعلا أن المنصور كان يتصرف بحس جهادى ايمانى . ويكفى للدلالة على ذلك ما نسب اليه من حرص شديد على جمع الغبار الذى كان يلتصق بوجهه ، كلما دارت معركة وجعل ذلك فى صرة ، ثم وصيته فى ان تدفن معه هذه الصرة فى قبره .

الفقــرة الثانيــة :

[واقتحم أرض جليقية من تلقاه مدينة طليطلة ، ومرضه يخف وقتــا] •

إذا انتقلنا إلى هذه الفقرة ، فإننا نستطيع القول بصددها إنه على الرغم من أن مملكة جليقية واستورياش أو استورياس التى غدت تعرف فيما بعد بمملكة ليون(١٤) ، وهى أكبر وأجل ممــالك النصارى فى أسبانيا النصرانية ، وكانت مستهدفة من المنصــــور فى غزواته الصيفية والشتوية المتعاقبة والمكثفة ضد النصارى ، حتى لقد باتت معه لحين من الزمن خاضعة لحمايته الشخصية(١٥) • أقول

=

راجع ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٨٨ . وكذلك يكفى للدلالة على هذا الحس الجاهدى الايمانى أن نشير الى ما أورده المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٥٩٥ — ٥٩٧ ، وجـ ٢ ، ص ٢١٦ ، من أن جهاد المنصور ذلك كان ايمانيا حقيقيا ، وعد — اى المقرى — ذلك من مفاخر المنصور . واخيرا نود أن نقول لمن يفسر غزوات المنصور ، بالرغبة فى رضى الناس ، أى غضاضة فى ذلك ؟

راجع كذلك ابراهيم بيضون : الدولة العربية فى اسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة (٩٢ — ٤٢٢ هـ / ٧١١ — ١٠٣١ م) ، منشورات دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٣٥١ — ٥٢٣ ، حث يؤكد على أن سياسة المنصور الجهادية كانت نابعة من خلفية دينية عنــده .

(١٤) مدنة ليــون Leon ، التى أعطت اسمها لملكة جليقية واستورياش أو استورياس ، اتخذت عاصمة لهذه الملكة بعد مدينــة : اوبيط Oveedo ، ثم ما لبثت الملكة أن غدت تعرف بمملكة ليون فى عهد ملكها : غارسيا بن الفونسو الثالث (٢٩٧—٣٠١ هـ / ٩١٠—٩١٤ م) انظر عبد الرحمن على الحجى : التاريخ الاندلسى ، منشورات دار القلم ، بيروت ، دمشق ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م ، ص ٣٨ ، ٢٧١ .

(١٥) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس — الخلافة الأموة والدولة العامرية ، ص ٥٤١ — ٥٤٣ ، ٥٨٩ ، ٥٩٢ — ٥٩٩ .

على الرغم من ذلك ، فإن هذه الغزوة الأخيرة للمنصور التى وقعت سنة ٣٩٢ هـ ، كانت على المملكة النصرانية الثانية التى تأسست فى منتصف القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجـرى ، وهى مملكة قشتالة ، التى أسسها الزعيم الاسبانى : فرنان جونتاليت[١٦] والتى غدت بعد حين من الزمن أقوى ممالك النصارى الأسـبان على الإطـلاق .

ويبدو أن المنصور ، قد سلك طريقه الى قشتالة ، عبر مملكة ليـون ، وتحديدا عبر ولاية جليقية[١٧] من جهة مدينة طليطلة ، وهو تحت وطأة المرض . ولحسن الحظ ، فقد زودتنا بعض المراجع بمعلومة مهمة ، وضحت لنا من خلالها طبيعة المرض ، فقد ذكـر ابن عذارى[١٨] أن المنصور كان مصابا بعلة العصب . أمـا المقرى[١٩] ، فقد أشار نقلا عن مصدره الى طبيعة مرض المنصور ،

---

(١٦) عن مملكة قشتالة وتأسيسها ، ثم تنامى قوتها ، انظر محمد عبد الله عنان ، نفس المرجع السابق ، ص ٥٩٠ — ٥٩٢ . أما قشتالة الاقليم : Castilla فهو الذى عرفته المصادر الاندلسية بألبة والقلاع . انظر ابن حيان : المقتبس — القطعة الثانية ، ص ٢٠٤ . ويضـيف حسين مؤنس فى تحقيقه لكتاب ابن الأبار : الحلة ، جـ ١ ، حاشـية ٢ ، ص ١٣٥ — ١٣٦ أن البة والقلاع هى المعروفة فى الجغرافيا الاسبانية بقشتالة القديمة : Castellaiaviegi .

(١٧) ولاية جليقية : تعنى اكثر مما تعنيه كلمة غاليسيا Galisia الاسبانية ، فكانت جليقية تمتد من نهر دويرة Duereo جنوبا على الساحل الشمالى لشبه اجزيرة الأيبيرية ، ومن الساحل الغربى لهـا حتى قشتالة Castile (Castilla) .

انظر البكرى (ت ٤٨٧ هـ) : جغرافية الاندلس وأوربا — مستلة من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق عبد الرحمن على الحجى ، منشورات دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٨٧—١٩٦٨ م ، حاشية رقم ١ ، ص ٧١ .

(١٨) البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٩٨ .

(١٩) نفح الطيب ، المجلد الأول ، ص ٤٢٠ .

من أنه كان به داء فى رجله ، وكان يحتاج الى الكى دوما . على أن ابن عذارى(٣٠) ما لبث أن عاد ، فصرح بأن المنصور ، كان مصابا بداء النقــرس(٣١) .

الفقــرة الثالثــة :

[ونفذ إلى عمل بنى غومس الى أرض قشتيلة ، بلد شانجة ابن غرسيه ، وهو كان مطلوبه الذى ألب عليه الجماعة . فأحل الغارات بأقطاره فقويت عليه العلة هناك] .

دلتنا المصادر والمراجع على أن العلاقة بين المنصور وملوك قشتالة كانت متوترة للغاية(٣٢) ولم تعرف الصفو إلا لمــاما(٣٣) .

---

(٣٠) نفس المصدر والجزء اعلاه ، ص ٣٠١ .

(٣١) النقرس : مرض مؤلم يحدث فى مفاصل القدم وفى ابهامها أكثر ، وهو ما كان يعرف بداء الملوك .

(ابراهيم مصطفى ، واحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ، ومحمد على النجار : المعجم الوسيط ، منشورات مجمع اللغة العربية بعناية دار احياء التراث العربى ، وأشرف على طبعه عبد الســلام هارون ، المكتبة العلية ، طهران ، دون سنة للطبع ، جزءان ، جـ ٢ ، ص ٩٥٤) .

(٣٢) يراجع فى مظاهر ذلك التوتر وحملات المنصور المتعاقبة على قشتالة ، محمد عبد الله عنان : نفسه ، ص ٥٤٣ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٦٣ ، ٥٩٠ — ٥٩٢ وفيها اشارة مهمة عن اضطلاع قشتالة منذ عهد مؤسسها ، ثم من جاء بعده لبادور الريسى فى محاربة المسلمين .

(٣٣) عن حالات الصفو النادرة ، أنظر احمد بدر : تاريخ الاندلس فى القرن الرابع الهجرى — عصر الخلافة ، ص ٧٣ ، حيث الاشـــارة الى مسالة الملك القشتالى (شانجة بن غرسية [سانشو غرسية] ٣٨٩ — ٤١٢ هـ / ٩٩٥ — ١٠٢١ م) . والحق أن احمد بدر لم يشـــر الى اسم الملك القشتالى ، بل اشار اليه بعبارة ابن الملك المتوفى غرسيه ابن فردناند ، وجهدنا نحن فى معرفة اسمه وسنى حكمه من كتـــاب

وكانت الترجمة العملية لذلك بالطبع ، هى المعارك المتواصلة التى كان يشنها عليهم ، وآخرها هذه التى توفى خلالها فى سنة ٣٩٢ هـ •
وبجانب مملكة قشتالة ، كان بنو غومس ، وهم كونتات ينتسبون الى غومس دياث Gomes - Diaz ، أحد زعماء ليون ، والذى تزوج ابنة الكونت فرنان جونثاليث ، زعيم قشتالة ومؤسسها ، ثم أصبحوا حلفاء له[٢٤] ، وكانت أملاكهم تنتصب فى سالدانيا[٢٥] وكريون[٢٦] وسمورة[٢٧] ، أقول كان بو غومس هؤلاء على علاقة سيئة بالضرورة مع المنصور • ولعل هذا الذى يفسر خروجه إلى عملهم — ولاياتهم —

=

عبد الرحمن على الحجى : التاريخ الاندلسى ، ص ٢٧٥ ، وذلك من خلال الجدول الذى انشأه عن ملوك قشتالة ، كما أن احمد بدر التبس عليه الأمر فذكر أن الملك القشتالى سانشو- غرسيه وهب أخته للمنصور استرضاءا وذلا ، بينما الحقيقة ان الذى وهب ابنته — لا اخته — للمنصور هو الملك النافارى : شانجة بن غرسية حسبما ورد فى المتن .

(٢٤) نقلا عن محمد عبد الله عنان : نفسه ، ص ٥٦٢ : المتن ، ثم الحاشية رقم ٢ من هامش الصفحة نفسها .

(٢٥) سالدانيا التى أوردها محمد عبد الله عنان : نفسه ، حاشية ١ ، ص ٥٦٢ بهذا الاسم ، هى مدينة شلطانية او شلطانيا Saldana ، تقع شرق مدينة ليون من احواز جليقية .

أنظر انبكرى : جغرافة الاندلس واوروبا ، ص ٦١ ، وانظر كذلك الحاشية رقم ١ التى عقدها المحقق فى هامش الصفحة ذاتها .

(٢٦) كريون : حصن فى منطقة جليقية . انظر البكرى : نفس المصدر السابق أعلاه ، ص ٧٣ . وأنظر كذلك الحاشية رقم ١ فى هامش الصفحة ذاتها .

(٢٧) سمورة : قال عنها البكرى : نفسه ، ص ٧٦ ، انها دار مملكة الجلالقة (أصحاب مملكة جليقية ، ثم ليون فيما بعد) ، وحققها محقق الكتاب بقوله سمورة (صمورة) Zamora تقع فى الضفة الخالية ن نهر دويرة Dueseo فى شمال شرق الحدود البرتغالية ، وهى احدى المدن الاسبانية الكبرى . انظر الحاشية رقم ٦ من ذات الصفحة اعـلاه .

فى طريقه لتأديب الكونت شانجة بن غرسـيه : سانشو غرسـية (٣٨٩ — ٤١ ﻫ / ٩٩٥ — ١٠٢١ م) كونت قشتالة .

وإذا كان ابن حيان ، قد ذكر سبب حنق المنصور — وبالتالى سبب الغزوة — على سانشو غرسية — فى شىء من الغموض ، عندما قال فى حقه : وهو الذى ألب عليه الجماعة ، فإن ابن الخطيب ، يشير صراحة الى ذلك السبب ، وهو أن سانشو غرسية كان قد كون حلفا من الملوك والأمراء النصارى ، من حيز بنبلونة(٢٨) الى أرض قشتالة ، ضد المنصور ، وتعاهد الجميع بزعامة سانشو على قتاله ، ومن هنا خرج اليهم فى غزوته سنة ٣٩٠ ﻫ ، وهى الغزوة التى حققت نجاحا كبيرا ، وبثت الرعب فى نفوسهم ، وهو الغزو الذى عرف بنصر جربيرة(٢٩) .

ثم خرج إليه فى عام ٣٩٢ ﻫ فى هذه الغزوة ، زيادة فى التنكيل به ، (فاخترق أراضى قشتالة شمالا ، ثم واصل زحفه فى بلـدة

---

(٢٨) بنبلونة ، قال عنها الحميرى (ت ٩٠٠ ﻫ) : الروض المعطار فى خبر الاقطار — معجم جغرافى — تحقيق احسان عباس ، منشورات مكتبة لبنان ، ط ٢ ، ١٩٨٤ م ، ص ١٠٦ ، ما نصه : بنبلونة مدينة فى الاندلس ، وهى بين جبال شامخة وشعاب غامضة .. الـخ . وذكر محقق القطعة الثانية من المقتبس محمود على مكى فى تحقيقه لهذا العلم الجغرافى ، أن بنبلونة Pamplona هى عاصمة مقاطعة نبرة أو نبارة (نافار) Navarra .

ابن حيان : المقتبس من انباء أهل الاندلس — اقطعة الثانية ، ص ٩ ، التعليق رقم ٥ .

(٢٩) عن هذه الغزوة المشهورة ، والحلف الذى كونه ملك قشتالة ضد المنصور ، أنظر ابن الخطيب : أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، ص ٦٩ — ٧٠ . وجربيرة المنسوب اليها نصر المنصور الكبير هذا ، جهدت فى التعرف عليها وعلى موقعها من أمهات المصادر الجغرافية والتاريخية الاندلسية ، دون جدوى ، ولذلك أنقل ما اشار اليه محمد عبد الله عنان : نفسه ، ص ٥٦٢ ، دون ذكر مصدره ، من أن جربيرة PeNa crrera حاجز جبلى وهى بمثابة صخرة .

قناليش[٣٠] الواقعة جنوبى ناجرة ، ثم سار غربا فى اتجاه مدينة برغش[٣١] — عاصمة المملكة — وعاث فى تلك المنطقة)[٣٢] .

وإثر ذلك قفل المنصور عائدا الى قرطبة ، وقد عاودته العلة التى أصيب بها . والظاهر أنه مرض طارىء ، وليس مرضه المزمن الذى كان يشتكى منه ، وهو النقرس . ولعله من يمن الطالع كذلك ، أننا عرفنا من ابن حان — كما سيرد فى القسم الثانى التالى من النص — أن علة المنصور ، هى الخلفة ، أو البطن[٣٣] .

---

(٣٠) جهدت فى البحث عن هذا العلم الجغرافى فى أمهات المصادر الجغرافية الاندلسية ، مثل كتاب البكرى : جغرافية الاندلس وأوربا ، ومثل معجم الحميرى : الروض المعطار فى خبر الاقطار ، وبالطبع عدت الى ياقوت الحموى فى معجمه للبلدان ، ولكن دون جدوى . ولذلك أنقل ما أشار اليه محمد عبد الله عنان فى تحقيقه كتاب ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ، حقق نصه ووضع مقدمته ووحاشيه محمد عبد الله عنان ، منشورات مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م ، ٤ مجلدات . فقد قال فى مجلد ٢ ، حاشية ٢ ، ص ١٤٥ ، قناليش فى بلاد وادى المنصورة فى شمال ولاية المرية .

(٣١) برغش ، ذكر الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٨ ، انها فى بلاد النصارى الاسبان فى شمالى اسبانيا الاسلامية — بالقرب من مدينة ليـون — ، وانها حصينة منيعة ذات أسوار . واما الاشارة الى انها عاصمة مملكة قشتالة ، فهو ما تبعته المراجع التى عنيت بالحديث عن ممالك النصارى ، وللدليل على ذلك انظر مثلا ، عبد الرحمن على الحجى : التاريخ الاندلسى ، ص ٣٨ ، حيث الاشارة الى أن برغش Burgos ، هى عاصمة دولة قشتالة .

(٣٢) محمد عبد الله عنان : نفسه ، ص ٥٦٣ .

(٣٣) الخلفة : فساد المعدة من الطعام . واختلف فلان : اصابته رقة بطن ، أى الهيضة ، والهيضة : مرض من اعراضه القىء الشديد والاسهال والهزال (الكوليرا) .

(ابراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسـيط ، جـ ١ ، ص ٢٥٠ — ٢٥١ ، جـ ٢ ، ص ١٠١٤ . اما الاشارة الى انه قد توق

=

القسـم الثـانى

نص القسم الثانى من النص على سبع فقرات هى :

(.... وما كان بين نزوله واستقلاله إلا الفترة لقوة الخلفة ، وبذلك قطع أربعة عشر يوما حتى وصل الى مدينة سالم) .

(وكان هجر الأطباء فى علته تلك لاختلافهم فيها واقتصر على أوصاف كاتبه الجزيرى عبد الملك ، وأيقن هنالك بالموت) .

(فاشتعل ذهنه يومئذ بقرطبة ، وهو بمدينة سالم ، وقد أيقن بالوفـاة) .

(فأمر ابنه عبد الملك بالنفوذ لشدها فى طائفة من ثقاة غلمانه بعد أن أوصى كلهم أشتاتا وجماعة) .

(ثم خلا بولده عبد الملك يوصيه ويودعه ويقبض على يده ، وكلما ذهب عنه استرده مستدركا بوصيته ، وعبد الملك يبكى فينكر ذلك عليه ، ويقول : هذا أول العجز والفشل الى أن قضى وطره مما بينه وبين عبد الملك) .

(وأمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر الى أن ينفذ حكمه فيه) .

(وخرج عبد الملك الى قرطبة ومعه القاضى ابن ذكوان ، فدخلها فى صدر شوال من العام ، فسكن الإرجاف بموت والده ، وعرف الخليفة كيف تركه) .

=

مبطونا — اى دار البطن — فقد وجدناها عند عبد الواحد المراكشى (ت ٦٢٠ هـ) : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وانشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى ، تقديم ممدوح حقى ، منشورات دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ط ٧ ، ١٩٧٨ م ، ص ٦١) .

الفقــرة الأولى :

(.... وما كان بين نزوله واستقلاله إلا الفترة لقوة الخلفة . وبذلك قطع أربعة عشر يوما حتى وصل الى مدينة سالم) .

بادىء ذى بدء ، نود أن ننبه الى مسألة هنا ، وهى أننا ضربنا صفحا عما جاء قبل هذه النقطة فى هذه الفقرة الثانية من أخبار ، رواها ابن حيان ، والسبب فى ذلك أنها أخبار وتفصيلات لا تهمنا ، استبعدناها فى هذا التحليل ، وإن كان ذلك ليس بحال مطلقا — كما سيمر بعد قليل .

أما وقد استقام لنا هذا فلننتقل على الفور الى الفقرة الأولى . يبدو أن علة المنصور الطارئة عليه قد بلغت حدا خطيرا ، وهو ما زال يمشى ويتنقل فى ارأضى مملكة قشتالة ، ولقد أثقلت خطاه ، وأبطأت سيره نحو عاصمته ، حتى لقد بلغ به جهد الهيضة — ذرب[٣٤] المعدة — أن ألزمه النزول هو وجيشه فى المنازل كثيرا ، ريثما تتوقف حالات القىء والإسهال ، ولم يكن بين نزوله وارتحاله أو استقلاله[٣٥] كما فصل ابن حيان أن يستخدم إلا وقت يسير ، أو الفترة[٣٦] أى زمن سكوت وخفوت حدة القىء والإسهال ، وبالتالى فقد احتاج ذلك منه

---

(٣٤) الذرب : داء يعرض للمعدة ، فلا تهضم الطعام ويفسد فيها ولا تمسكه (الاسهال) .

(ابراهيم مصطفى وآخرون : نفس المعجم السابق أعلاه ، جـ ١ ، ص ٣١٠) .

(٣٥) استقل : مضى وارتحل . واستقل القوم : مضوا وارتحلوا .

(ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٦٧٢) .

(٣٦) الفترة : الضعف والانكسار . والمدة تقع بين زمنين ،وفترة

(٣٦) الفترة : الضعف والانكسار . والمدة تقع بين زمنين ، وفترة الحمى : زمن سكونها بين نوبتين .

(ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٦٧٩) .

١٤ يوما قضاها منذ مغادرته مدينة برغش ، حتى وصل المدينة الثغرية(٣٧) المشهورة : مدينة سالم(٣٨) .

---

(٣٧) درج المؤرخون والجغرافيون المسلمون على تسمية المناطق التى تماس أو تصاقب ديار أعداء المسلمين بالثغور . والثغر فى اللغة (وجمعها الثغور) : الفرجة او الثلمة ، سواء فى الجبل أو نحوه (أنظر ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ ١ ، ص ٩٧) . ولقد أخذ المعنى الجغرافى منها ، فالثغر فى المصطلحين : الجغرافى والتاريخى : كل موضع قريب من أرض العدو . انظر ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ) : معجم البلدان ، منشورات دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ٥ مجلدات ، المجلد الثانى ، ص ٧٩ .

ولقد استعمل الأندلسيون اصطلاح الثغور للدلالة على حدودهم المجاورة لأسبانيا (المسيحية) كما هو تعبير محقق كتاب المسالك والممالك الخاص بالأندلس واوربا للبكرى : عبد الرحمن على احجى . ولننقل عنه ما قاله عن هذا الموضوع .

قال (.. فكانت فى الاندلس ثلاثة ثغور :

أ ــ الثغر الأعلى : ويشمل : سرقسطة ، عاصمة هذا الثغر ، ولاردة ، وتطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة وغيرها . وكان هذا الثغر يواجه برشلونة ومملكة نافار (نبرة فى الجغرافيا الاسلامية) ، وتمثله اليوم منطقة أراغون Aragon (وهى مملكة من ممالك النصارى كذلك فى اسبانيا النصرانية) .

ب ــ الثغر الأوسط : وكان يواجه مملكتى ليون وقشتالة . وكانت عاصمته أول الأمر ــ مدينة سالم : Medincali ثم استبدلت بطليطلة .

ج ــ الثغر الأدنى : ويشمل المنطقة الواقعة بين نهر دويرة وتاجة (من أكبر الأنهار فى شبه الجزيرة الايبيرية) . ومن مدن هذا الثغر : قورية وقلمرية وشَنترين وماردة) .

(٣٨) مدينة سالم ، يقول ابن غالب الغرناطى (من أهل القرن السادس الهجرى) : فرحة الأنفس فى تاريخ الاندلس قطعة منه ، حققها ونشرها لطفى عبد البديع ، ونشرت فى مجلة معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية ، المجلد الأول ، الجزء الثانى ، ١٩٥٥ م ، يقول ابن غالب : ص ١٩ : مدينة سالم كانت من أعظم المدن ، وفيها

=

الفقــرة الثانيــة :

(وكان هجر الأطباء فى علته تلك لاختلافهم فيها ، واقتصر على أوصاف كاتبه الجزيرى عبد الملك ، وأيقن هنالك بالموت) •

قد لا يكون غريبا أن تختلف تشخيصات الأطباء فى حالة مرضية — وهو شىء طبعى — وقد لا يكون غريبا كذلك أن يستشعر الانسان دنو أجله أو أن يوقن بالموت ، لكن ما ليس مفهوما أن يذكر ابن حيان أن المنصور ، قد ترك أطباءه ، الذين يحيط بهم نفسه — وإن لم تدلنا المصادر على أى منهم — ، ثم يقتصر على كاتبه عبد الملك الجزيرى ؟ إن ما نعرفه عن أبى مروان : عبد الملك بن إدريس الجزيرى الخولانى ، أنه كان كاتبا للمنصور بن أبى عامر ، كما أنه كان أحد وزراء دولته العتيدة • ولقد اشتهر بأنه كان عالما أديبا ، وشاعرا كثير الشعر ، غزير المادة ، معدودا فى أكابر البلغاء(٣٩) • غير أننا لم نعرف من خلال

=

آثار عظيمة ، واعتمرها طارق (يعنى بن زياد) . وعن سالم الذى تنسب له المدينة ، وهو سـالم بن وركمال بن وكتـذات البربدى . انظر ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون ، منشورات دار المعاف بمصر ضمن سلسلة ذخائر العرب (رقم ٢) ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ ، ص ٥٠١ .

(٣٩) له ترجمة تفاوتت : طولا وقصرا عند أصحاب التراجم ومؤرخى الأدب ، وحسبنا أن نشير الى بعضهم هنا ، مثل ابن خاقان (ت ٥٢٩ هـ) : مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الاندلس ، دراسة وتحقيق محمد على شوابكة ، منشورات دار عمار ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ١٧٧ — ١٨٠ . ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، ص ٤٦ — ٥٢ . ابن سعيد المغربى (ت ٦٨٥ هـ) : المغرب فى حلى المغرب ، حققه شوقى ضيف فى جزأين منفصلين ، القسم الثانى تحت عنوان : وشى الطرس فى حلى جزيرة الاندلس ، منشورات دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٤ م ، ج ١ ، ص ٣٢١ . المقرى : نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٢٩ — ٥٣٠ . وقد أشار محققو هذه المصادر الى تفصيلات بشأن تراجم أخرى له فى مصادر مختلفة ، فليتابع هناك .

مصادر ترجمته اشتهاره بالطب ، لذا فان عبارة : واقتصر على أوصاف كاتبه الجزيرى .... الخ ، غير مفهومة لنا ، وإذا كانت كلمتـــه : أوصاف ، مأخوذة من وصف ، التى تعنى : وصف الطبيب الدواء ، أى عينه باسمه ومقداره ، وأن من مشتقاتها — أى كلمة وصف — استوصف ، ومنها : استوصف فلان الطبيب لدائه ، سأله أن يصف له ما يتعالج[٤٠] به . أقول إذا كان الأمر كذلك فهل غفل مترجمو حياة الجزيرى عن هذا الجانب الطبى فى شخصيته ، أمام انبهارهم بشخصيته الأدبية التى انعقد الاجماع حولها ؟ ربما كان الأمر كذلك . على أننا لا يمكن أن نغادر هذه الفقرة ، دون أن نبدى دهشة حول الصياغة الأسلوبية لتعبير ابن حيان : كاتبه الجزيرى عبد الملك ، ذلك أن المألوف عند العرب أن يكون ترتيب الأسماء ، مبتدئا بالكنية أولا ، ثم الاسم ثانيا ، ثم اللقب أو اسم الشهرة آخرا .

الفقـــرة الثالثـــة :

(فاشتعل ذهنه يومئذ بقرطبة ، وهو بمدينة سالم ، وقد أيقن بالوفـــاة) .

يبدو أن حديثنا عن هذه الفقرة سيطول ، فنحن بحاجة معها الى وقفتين . وقفة أولى ، وتتصل بالحالة النفسية التى تنتاب القادة العظام من مؤسسى الدول وسواسها الكبار ، وذوى الهمم العالية الذين لا يشغلهم مرضهم ، بل لا يطيش روى فكرهم ، حلول قارعة الموت فى ساحتهم . من أن ينظروا وهم فى أحرج الساعات لأمتهم وما فيه مصلحتها ، حتى لأن ذلك ليشغلهم عن مرضهم ، فذلك عندهم أهم . وتلك للحق همم هؤلاء الأفذاذ ، التى كانوا بها أهلا للاضطلاع بالمسئوليات الجسام . إن تيقن المنصور بحلول أجله لم يمنعه من أن يتخذ الخطوات السريعة التى يراها كفيلة بأن تضمن استمرارية الأمور

---

(٤٠) ابراهيم مصطفى وآخرون: نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٠٤٨ ، مادة : وصف .

على النحو الذى رسمه لها ، وهذا على المدى القريب ، وقد تمثل فيما أمر به ابنه عبد الملك من الذهاب لقرطبة لضبطها ، أما على المدى البعيد ، فإن الوصية التى حملت سطورها ثقل السنين ، وعظم التجربة ، سيؤدى السير بمقتضاها الى نفس النتيجة • إن انشغال ذهن المنصور بقرطبة ، يذكرنا بحادثة تاريخية مشابهة • فلقد ذكر الطبرى[٤١] أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد أيقن بحلول أجله ، شغله أو أهمه أمر عظيم ، شغله عن أمر النظر الى مرضه ، وهو أن ينظر الى الأمة فيتخير لها من يخلفه فيها ، ولا سيما وقد رأى هو نفسه كيف أن الأمة قد تجاوزت الفتنة التى كادت أن تحدث عندما توفى الرسول صلى الله عليه وسلم بشأن من له أحقية خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم • لولا أن تداركها الله بالرجال الحكماء — وهو فى مقدمتهم[٤٢] — ثم بروح الاسلام السمحة ومن هنا نراه

---

(٤١) تاريخ الامم والملوك ، منشورات دار القاموس الحديث للطباعة والنشر ، بيروت ، دون سنة للطبع ، ٨ مجلدات ، جـ ٤ ، ص ٤٧ ، وفيها خبر مهم يتضمن رفض أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه احضار الطبيب ليراه ، فقد حم القضاء ، ص ٥١ حيث النص على أن أبا بكر عقد فى مرضته التى توفى فيها لعمر بن الخطاب عقد الخلافة من بعده ، ص ٥٣ ، حيث الاشارة الى دخول عبد الرحمن بن أبى بكر على الصديق فى مرضه الذى توفى فيه ، فأصابه مهموما لقضايا عامة ، ومنها مسألة الخلافة .

(٤٢) ان خير ما يعبر عنه هذا الأمر ، مقولة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . الا أن بيعة أبى بكر كانت فلتة . الا ان الله وقى شرها . أنظر ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر ، بيروت ، طبعة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ٨ مجلدات ، ١٤ جزءا ، ثم مجلد للفاهرس ، المجلد الثالث ، جـ ٥ ، ص ٢٤٥ .

وعما جرى فى سقيفة بنى ساعدة من الروايات الثابتة فى كيفية معالجة الأمر بروح الاسلام والتى انتهت بانتخاب ابى بكر ، انظر ابن كثير : المصدر أعلاه ، المجلد الثالث ، جـ ٥ ، ص ٢٤٤ — ٢٥٠ ، وانظر كذلك السيوطى (ت ٩١١ هـ) تاريخ : الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، منشورات المكتبة التجارية الكبرى — مطبعة الفجالة الجديدة ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ، ص ٦٧ — ٧٢ .

يتعالى على مرضه ، بل قل على الضعف البشرى فى مثل هذه الحالات ، وهى حالات توقع الموت بين آونة وأخرى ، فيستشير كبار الصحابة فى شأن العهد لعمر بن الخطاب رضى الله عنه من بعده[٤٣] .

أما الوقفة الثانية مع هذه الفقرة الثانية كـذلك ، فهى خاصة بالمنصور وحده وكيف أن ذهنه قد شغل بأمر العاصمة قرطبة ، وهو فى ذلك المكان القصى : مدينة سالم ، وقد أحاط به الموت ؟ هل يمكن لنا بداية إلا أن نتوقع ذلك ؟ نعم يحق للمنصور أن يشتغل ذهنه ، وحق له أن يخشى على دولته فى ذروة مرضه — وإن لم يفقده هذا اتزانه ورباطة جأشه — كما دلت عليه الوصية[٤٤] — وأن يستشعر القلق عليها .

أنى لرجل محى رسم دولة ، وأقام دولة خاصة به على أسنة الرماح داخل دولة كبيرة ، فسلس له قيادها وقياد المجتمع كله مدة ربع قرن ، أخمد فيها الثورات ، وبث الرعب والخوف منه فى النفوس ، وقهر جميع معارضيه ، حتى افترع ذلك الموت له وحده ؟ أنى لرجل هذا حاله ألا تساوره نوازع القلق على الكيان الكبير الذى أقامه ؟ وكيف لا يقلق وهو يرى دولته التى اجتهد فى إقامتها ، ثم تطلع الى استمرارها فيه وفى بنيه ، يراها عرضة لنفس المصير الذى لقيته دولة هشام المؤيد منه هو ذاته ، فيختل أمرها وينهد ركنها إذا ما غيبه الثرى دون أن يرسم لخليفته السبل الكفيلة بمنع ذلك السقوط ، وإن كان ذلك ما وقع فعلا بعد لأى فى عهـد ابنه الثـانى عبد الرحمـن سنة ٣٩٩ هـ[٤٥] .

---

(٤٣) يراجع فى ذلك الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٤ ، ص ٥١ — ٥٣ .

(٤٤) عن هذه الوصية ، انظر بعد ، حاشية رقم ٥٢ .

(٤٥) عن تلك الأحداث التى أدت الى سقوط الدولة العامرية ، بسبب تنكب الأمير عبد الرحمن توجيهات والده ، ثم بسبب نزقه وتعطشه

الفقـــرة الرابعـــة :

(فأمر ابنه عبد الملك بالنفوذ لشدها فى طائفة من ثقاة غلمانه بعد أن أوصى كلهم أشتاتا وجماعة) •

ظاهر هذه العبارة يوحى بأن هناك قوى تتحرك وتهدأ بحسب الحالة الصحية التى يكون عليها المنصور • وهكذا يبدو أن هناك خصوما أقوياء للمنصور فى مدينة قرطبة ، بل ربما داخل القصر ، ولئن دلتنا بعض المصادر على أن ثمة أعداء ، كانوا يحيكون المكائد ضد المنصور(٤٦) حتى بعد أن تخلص من خصومه السياسيين(٤٧)

=

للسلطة ، حتى اراد ان ينازع الخليفة هشاما المؤيد سلطانه الروحى بأن يعهد له بالخلافة من بعده ، انظر :

ابن عذارى : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٣٨ — ٥٠ . ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ٨٩ — ٩٧ .

(٤٦) انظر مثلا ابن بسام : المصدر السابق والقسم والمجلد ، ص ٧٠ — ٧٢ ، ثم المقرى : نفسه ، جـ ١ ، ص ٦٠٢ ، وكيف ان اعداء المنصور ما زالوا يتربصون به الدوائر ، فغلب سعده الذى هو المثـــل الســـائر .

(٤٧) اشهر هؤلاء الخصوم : خدام القصر من الذين غدا لهم شأن يذكر بسبب صغر سن الخليفة الشرعى وقصوره ، ثم الحاجب الخطير الشأن : جعفر بن عثمان المصحفى الذى كان له النفوذ الأعلى فى أول دولة الخليفة هشام المؤيد ، ثم القائد العسكرى المشهور : غالب بن عبد الرحمن — مولى الخليفة الحكم .

ولابن خلدون (ت ٧٣٢ هـ) : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، ضبط المتن ووضع الحواشى والفهارس خليل شحادة ، وراجعه سهيل ذكار ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ٨ مجلدات ، لابن لخدون تعليق تاريخى عميق ودقيـــق لتخلص المنصور من خصومه السياسيين ووسائله فى ذلك .

انظر الجزء الرابع ، ص ١٨٨ — ١٩٠ .

إلا أنها لم تفصح لنا عن هوية هؤلاء ، وإن كانت — أى المصادر — قد صرحت ، على أن أم الخليفة السيدة صبح[٤٩] — وهى آخر خصم قوى له — ومن معها من حاشـية القصر يأتون على رأس هـؤلاء .

ومن هنا خشى المنصور أن يستغل هؤلاء مرضه ، فيعمدون الى إثارة القلاقل له ، ولذا أسرع وهو واقع تحت وطأة مرضه الشديد فى بعث ابنه عبد الملك لشد مدينة قرطبـة فى طائفـة من الغلمان العامريين[٥٠] ، موصيا إياهم : أشتاتا وجماعة . وبالطبع فأن ما هو مقصود بعبارة شد المدينة : ضبط أمورها . والحق أنه حدث فى سنة ٣٥٦ هـ ، كما يشير ابن بسام فى نقله عن ابن حيان من كتاب الدولة العامرية ، وحشة بين الخليفة المحجور : هشام ، والمنصور . وكان ذلك بتدبير من أم الخليفة ، ومن معها من حاشية القصر ، التى أخفت أموالا عامة كبيرة ، فكان ذلك سبب الصراع . لقد حدث ذلك

---

(٤٨) يأتى على رأسها ذخيرة ابن بسام : نفسه ، أعلاه ، ص ٧٠ — ٧٣ الذى نقلنا عنه موضوع الوحشة على النحو الذى ورد فى المتن .

(٤٩) تجمع المصادر على ان والدة الخليفة هشام المؤيد : صبح ، هى التى كان لها اليد الطولى فى ظهور محمد بن أبى عامر على الساحة السياسية ، ثم فى دعمه ضد خصومه حتى انقلب عليها ، وصبح او Aurora جارية اسبانية وهى زوجة الخليفة الحكم المستنصر وام ولده الوحيد ، هشـام .

(عن صبح واصلها واسمها الاسبانى ودورها السياسى ، انظر ابن عذارى : نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ — ٢٣٧ ، المقرى : نفسه ، ج ١ ، ص ٣٩٩ ، ٦٠٣ ، ج ٣ ، ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٣ . محمد عبد الله عنان : الخلافة الأموية والدولة العامرية ، ص ٥١٩ — ٥٢٤) .

(٥٠) الفتيان العامريون : أى خدام المنصور بن أبى عامر العامرى ، وقد غدا لهم شأن يذكر بعد موته وقد نسبوا اليه برابطة الولاء (ولاء رق وعتاقة) . عن هؤلاء ، انظر ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ١٠٣ وما بعدها .

إبان مرض المنصور ، وقد تفاقمت الأزمة طويلا ، ولا سيما وقد ارجفت البلاد بخبر إشاعة موته ، فكان ذلك أمرا عصيبا على المنصور وابنه عبد الملك ، ولم ينجل الموقف إلا باستبلال[٥١] المنصور •

الفقرة الخامســة :

[ثم خلا بولده عبد الملك يوصيه ويودعه ويقبض على يده ، وكلما ذهب عنه استرده مستدركا بوصيته ، وعبد الملك يبكى ، فينكر ذلك عليه ، ويقول : هذا أول العجز والفشل إلى أن قضى وطره مما بينه وبين عبد الملك] •

يخيل إلى أننا بحاجة إلى عدة وقفات مع هذه الفقرة • وقفة عابرة مع الوصية التى لا تعنينا وإن كنا نكتفى بالقول بأنها وصية سياسية وأسرية معا[٥٢] ، ووقفة ثانية متأنية لبعض الوقت أمام إصرار قاطع من المنصور — موضوع النص ومداره — ، تشف عنه عبارة : ••• ويقبض على يده ، وكلما ذهب عنه استرده مستدركا بوصيته ، على ترسم الوصية : نصا وحرفا ، ثم وقفة ثالثة متأنية مشابهة لسابقتها أمام عواطف بنوة جياشة ، وإن كانت مثالا لمشاعر أسرية معتادة ومألوفة فى مثل هذه الحالات • وهناك أخيرا وقفـــة رابعة متأنية لكل الوقت تحمل من معانى الصلابة والحزم ، وقـــوة

---

(٥١) بل وابل : المريض برا وصح ، وحسنت حاله .

(ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ ١ ، ص ٧٠) .

(٥٢) الوصية التى تركها المنصور لابنه عبد الملك ، وصية على غاية من الأهمية . انظر نصها عند ابن بسام : نفسه ، ص ٧٦ — ٧٨ ، وعند ابن الخطيب ، نفسه ، ص ٨١ — ٨٢ . وقد أخضعتها للبحث ببحث عنوانه : وصية المنصور بن أبى عامر الاندلسى — دراسة وتحليل ، وقد قبل للنشر فى مجلة العلوم التربوية التى تصدر عن كلية التربيـــة — فرع جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة ، وكذلك اخضعت الوصية التى أوصى المنصور بها غلمانه العامريين للدراسة والتحليل فى سياق تحليل وصيته لابنه عبد الملك .

الإرادة ، وثبات العزم ، وشدة الشكيمة ما تحمله ، وما يشف عنه إنكاره على ابنه عبد الملك ، البكاء ، ثم العبارة الجازمة التى تحمل من معانى التقريع ما تحمله : هذا أول العجز والفشل .

لكم تذكرنا هذه الأسطر الواردة فى هذه الفقرة بوقف مشابه ، تمثلت فيه المعانى التى أشرنا إليها قبل قليل ، أى مضاء العزم ، وشدة الشكيمة ، وقوة الإرادة فى وصية واحد من رجالات الدولة الاسلامية ، بل هو فى الذروة منها — أى الدولة — ممن يعتبر مؤسسا لدولة وبناء لصرح . فلقد حفظ لنا التاريخ أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) ، والذى أعتبر المؤسس الثانى للدولة الأموية(٥٣) ، نهر ابنه وولى عهده الوليد ، عندما جعل يبكى ، وهو يرى أباه يحتضر ، فقال له عبد الملك (ما هذا ؟ أتحن حنين الجارية والأمة ؟ إذا أنا مت ، فشمر واتزر ، وألبس جلد النمر — وضع الأمور عند أقرانها ... و ... إذا أنا مت فادع الناس إلى بعتك ، فمن أبى فالسيف ....)(٥٤) .

الفقــرة الســادسة :

[وأمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر إلى أن ينفذ حكمه فيه] .

يقتضى ذكر ولد المنصور : عبد الرحمن هذا أن نشــير إلى أنه كان للمنصور ثلاثة أولاد من أمهات مختلفات . فهنــاك الابن

---

(٥٣) عن عبد الملك وجهوده فى اعادة تأسيس الدولة الاموية ، انظر ضياء الدين الريس : عبد الملك بن مروان — موحد الدولة العربية ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى — المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر — سلسلة اعلام العرب رقم ١٠ ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م . وعن سياسته وحزمه تخصيصا ، انظر الفصل العاشر : شخصية عبد الملك وسياسته ، ص ٢٩٠ — ٣١٢ .

(٥٤) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٦ .

الأكبر ، وهو عبد الله ، وقد قتل على يد أبيه المنصور فى حادثة رصدتها كتب التاريخ وخلاصتها أن هذا الابن نقم على أبيه تقديمه لأخيه الأصغر منه عبد الملك ، والذى يرى فى نفسه أنه أكفأ وأفضل منه ، ومن هنا لم يجد سوى التآمر على أبيه مع نفر من الحاقدين على المنصور ، وتكشفت المؤامرة بعد لآى ، فقبض المنصور على أطرافها وعلى رأسهم ابنه عبد الله • ولم يتردد المنصور البتة فى أن يقتل ابنه ، وكان لهذا الحدث صدى صارخ فى نفوس النـاس (وازداد ابن أبى عامر بما فعله هيبة ، وملئت قلوب الناس منه ذعرا)[٥٥] •

أما الابن الثانى ، فهو عبد الملك وكانت أمه تدعى الذلفاء ، وكان قريبا أثيرا عند والده ، الذى قدمه للمناصب العليا فى الدولة ، فتمرس فى ذلك أحسن التمرس ، وقد حرص المنصور على أن يوليه حجابة الخليفة هشام المؤيد ، ويقتصر هو على لقب المنصـور وفقه الله ، ثم الملك الكريم بعد ذلك[٥٦] •

وآخر هؤلاء الأبناء ، هو عبد الرحمن هذا ، وكان أصغر سنا من أخيه عبد الملك ، وأمه ابنة الملك النافارى ســانشو غرســيه (٣٥٩ — ٣٨٥ هـ / ٩٧٠ — ٩٩٤ م) أحد خصوم المنصور الأسبان الأعداء ، والذى قدم ابنته إبان فترة صــفاء بين الدولتين إلى المنصور ، فتزوجها ، ورزق منها ابنه عبد الرحمن هذا ، وقد أسلمت الأم ، وأطلق عليها اسم : عبدة • ومما يذكر أن عبد الرحمن هذا أطلق عليه كذلك ، اسم آخر ، هو شنجول أو سانشول — اسم تصـغير لشانجة أو سانشـو ، لأنه كان يشبه جده سانشـو غرسيه[٥٧] •

---

(٥٥) عن هذه الحادثة التى سقنا هذا الاقتباس منها ، انظر ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٨٣ — ٢٨٥ .

(٥٦) ابن عذارى : نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ ، ثم ج ٢ ، ص ٣ .

(٥٧) ابن عذارى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٧ — ٣٨ .

هذه نبذة لابد منها فى مقدمة الحديث عن هذه الفقرة السادسة .
أما ما يمكن أن نسوقه من تحليل لسطرها الوحيد ، فلا يزيد عن القول بأن عبد الملك خرج بالفعل نحو قرطبة فى العشر الأواخر من شهر رمضان ، أو لعلنا نقول إن ذلك قد حدث إما قبل السابع والعشرين من رمضان من سنة ٣٩٢ هـ — حيث توفى المنصور — حسبما سيأتى فى الفقرة الثالثة من القسم الثالث من النص — أو فى نفس اليوم ذاته الذى توفى فيه المنصور كأقصى احتمال ، أقول خرج نحو قرطبة ، مستخلفا أخاه عبد الرحمن على العسكر تنفيذا لوصية أبيه ، وأحاط عبد الرحمن (بالعسكر مدة أسبوع وهو ينتظر رأى أخيه عبد الملك فى القفول — نحو قرطبة بالطبع —) . ثم لما وصل عبد الملك قرطبة ، وضبطها ، وردته أخبار وفاة والده المنصور ، أرسل إلى أخيه عبد الرحمن يستدعيه (فجاءه — أى عبد الرحمن — بعد إذن أخيه ، فقدم هو بسائر العسكر)(٥٨) .

الفقــرة الســابعة :

[وخرج عبد الملك الى قرطبة ومعه القاضى ابن ذكــوان ، فدخلها فى صدر شوال من العام ، فسكن الإرجاف بموت والده ، وعرف الخليفة كيف تركه] .

كان لابد لرغبة الأب أن تنفذ حتى ولو لم يطمئن الابن على أبيه ، كان لابد من خروجه حتى وإن كان لا يدرى ، أيقدر له أن يلقى أباه مرة أخرى أم لا ؟ فلا وقت للعواطف — مهما سمت وتعاظمت مع صدقها — فها هى الدولة التى بنيت بالجهد والعرق أمام مهب الريح ، ولذلك كان لابد أن يخرج عبد الملك من فوره الى قرطبة ، فخرج ومعه القاضى ابن ذكوان . والقاضى ، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان المتوفى سنة ٤١٢ هـ ، قدمته لنا المصادر قاضيا للقضاة فى قرطبة للمنصور ابن أبى عامر ، بعد أن غدا سيد

---

(٥٨) ابن بسام : نفسه ، ص ٧٥ .

الأندلس بلا منازع ، وقدمته لنا مخلصا أثيرا قريبا من المنصور ، حتى (أن محله منه كان فوق محل الوزراء ، ويفاوضه فى تدبير الملك وسائر شؤونه) ، وكذلك كان حاله عند ابنه عبد الملك فى دولته[٥٩] ، فحثا الخطى نحو قرطبة ، فدخلها فى (صـــدر شوال من العام) — أى عام ٣٩٢ هـ ، فاستقامت الأمور حالا لعبد الملك ، وسكنت الشائعات التى يبدو من خلال سياق النص أنها كانت تشيع عن موت المنصور ، وهى الشائعة التى كان الناس يرجفون بهـــا . وها نحن أولاء للمرة الثانية أمام حالة إرجاف ، وإن كانت هنـــا لا تخلو من الصـــدق .

وأخيرا تستوقفنا عبارة ابن حيان المهمة : وعرف — أى الحاجب عبد الملك — ، الخليفة بحاله ، أى حال المنصور . لا يبدو إصرار المنصور على المحافظة على الرابطة الشكلية بالخليفة هشام المؤيد بالله ، أقول لا يبدو إصرار المنصور غريبا ، ومن هنا فلابد أن يقدم تقريرا للخليفـــة ، حتى ولو لم يكن لذلك أى فائدة تذكر ينالهـــا الخليفة . وهكذا ، فما أن وصل عبد الملك قرطبة حتى بادر الى لقاء الخليفة كيما يعرفه حالة أبيه الصحية .

* * *

(٥٩) عن القاضى ابن ذكوان وترجمته التى سقنا طرفا منها ، انظر النباهى (أبو الحسن على بن عبد الله بن الحسن النباهى المالقى الاندلسى [كان حيا سنة ٧٩٣ هـ]) : كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضـــاء والفتيا المعروف بتاريخ قضاة الأندلس ، منشورات المكتب النجارى للطباعة والنشر والتوزيع ضمن سلسلة ذخائر التراث العربى ، بيروت ، دون سنة للطبع ، ص ٨٦ — ٨٨ .

القســم الثــــالث

نص القسم الثالث من النص على ثلاث فقرات هى :

— [قال ابن حيــان ، قال لى أبى خلد ، بن حســين : ووجد المنصور بعض الراحة ، وأمر أن ندخل عليه جماعة ، فدخلت فى جملتهم ، ودنوت منه . وهو كالخيال لا يبين كلاما ؟ ، وأكثــر عمله بالإشارة كالمسلم المودع ، وخرجنا فكان آخر العهد به] .

— [ومات ليلة الاثنين لثلاث بقين لرمضان فى العام المؤرخ ، وعلينا فى العسكر عبد الرحمن ابنه فعزيناه] .

— [وكان أوصى أن يدفن حيث يقبض ولا ينقل تابوته ، فدفن فى قصره بمدينة سالم] .

الفقــرة الأولى :

[قال ابن حيــان ، قال لى أبى خلد ، بن حســين : ووجــد المنصور بعض الراحة ، وأمر أن ندخل عليه جماعة ، فدخلت فى جملتهم ، ودنوت منه . وهو كالخيال لا يبين كلاما ؟ وأكثر عمله بالإشارة كالمسلم المودع ، وخرجنا فكان آخر العهد به] .

سبيل الموت نهاية كل حى ، ونبض الحياة دائم لا يتوقف حتى يشاء الله . وبين هاتين الحقيقتين تتحرك طوابير البشر ، وفق منظومات ، أو سنن ربانية تتداعى معها معانى البناء والعمــران والاستخلاف ، والعطاءات المختلفة ، أو لا عطاءات ، ثم النهــاية المحتومة من دون لا .

ولكم كان ابن الخطيب(٦٠) موفقا ، وهو يفلسف لنا هذا الوضع ، عندما ختم حديثه عن الحوار الذى دار بين الأب والابن الذى انتهى

---

(٦٠) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

بالوصية ، ثم يتحرك الابن متوجها الى قرطبة !! فلقد قال تعليقا على هذه الحادثة : (وانصرف المظفر — يعنى عبد الملك — لشأنه ، وضبط سلطانه ، وتخلف المنصور ينازع أمر أجله ، وافراده بعلمه ، وقد قطع الدهر به عن أمله ، فسبحان الحى الباقى لا إله إلا هو) . ترى هل فى وسعنا أن نردد المقولة المطروحة دائما : مات الملك ، عاش الملك ؟ ربمـــا .

الفقــرة الثانيــة :

[ومات ليلة الاثنين لثلاث بقين لرمضان فى العام المؤرخ ، وعلينا فى العسكر عبد الرحمن ابنه فعزيناه] .

إن لنا مع هذه الجزئية لوقفة طويلة بعض الشىء ، فهى من نحو تفيدنا فى تحديد التاريخ الدقيق لوفاة المنصور ، ومن نحو آخر تقودنا الى حل إشكال تارخى نشأ فى ما نراه من تصادم هذه الفقرة مع الفقرة السابعة من القسم الثانى ، وهى التى تشير الى أن عبد الملك ابن المنصور دخل قرطبة فى صدر شوال من سنة ٣٩٢ هـ ، فذهب إلى الخليفة مباشرة وعرفه حالة أبيه ، ومعنى هذا أنه كان لا يدرى أن أباه قد توفى فى اليوم السابع والعشرين من رمضان .

إن ما تطرحه هذه الجزئية يبرز إشكالا تاريخيا نستطيع أن نعبر عنه بالتساؤل التالى : أو لم تعرف دولة المنصور التى تناهت فى التقدم والتطور الحضارى وسائل بث الأخبار المختلفة المناحى : من بريد ، وحمام زاجل ، والنار المشتعلة التى عرفتها الدولة الاسلامية سواء فى المشرق[٦١] أو المغرب ؟[٦٢] إن المسافة مهما تنآءت بين

---

(٦١) عن وسائل الاتصالات هذه التى عرفها المشرق ، انظر آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة فى الاسلام ، تعريب محمد عبد الهادى أبو ريدة ، منشورات دار الكتاب العربى ببيروت ، دار الخانجى ابلقاهرة ، دون سنة للطبع ، جزءان ، الجزء الثانى ، =

=

ص ٤١٠ — ٤٢٥ . وبالطبع فنحن عندما عدنا الى كتاب آدم متز عن هذه الوسائل لا يعنى اننا قد غفلنا عن المصادر الاسلامية التى تحدثت عن نشأة البريد ومصطلحاته ، وفى مقدمتها كتاب القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشاء ، فهذا موضوع آخر . ان آدم متز جمع فى كتابه هذا اخبارا متفرقة عن مدى ما وصلت اليه هذه الوسائل من سرعة قياسية فى نقل الخبر ، فمثلا كانت الرسائل تصل من الاسكندرية الى سبتة فى ليلة واحدة ، والمسافة قد تصل الى ٦٠٠ كيلا كما ذكر عثمان الكعاك فى تعليقه على هذا الخبر فى كتابه : مراكز الثقافة فى المغرب فى القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر ، منشورات معهد الدراسات العربية فى جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٦٢) حسبنا أن نطلع على كتاب المقتبس فى أخبار الاندلس — القطعة الرابعة — تؤرخ لخمس سنوات من عهد الخليفة الحكم المستنصر (٣٦٠ — ٣٦٤ هـ) تحقيق عبد الرحمن على الحجى ، منشورات دار الثقافة ، بيروت ، سلسلة المكتبة الأندلسية (٤) ، طبعة ١٩٨٣ م ، حسبنا أن نفعل لنرى ورود أخبار متناثرة عن البريد وصاحب البريد والسرعة الفائقة فى نقل الأخبار التى قام بها هؤلاء ، الذين يطلق عليهم كذلك : الفرانقون ، واحيانا الركاضون . ومن المعلوم أن دولة المنصور هى وريثة دولة الخليفة الحكم .

انظر على وجه الخصوص الحاشية رقم ٢١ ، ص ٩٠ التى صدر بها احسان عباس ، تحقيق عبد الرحمن على الحجى لهذه القطعة ، وهى : (الفرانقون هنا : القائم بأمر البريد ويستعمل الاندلسون ايضا : الركاض) .

على انه لا احسان عباس ولا عبد الرحمن على الحجى ، فسرا لنا ما الذى يقصد من هذين المصطلحين الاداريين السابقين . وعلى كل حال فالركاض ، مأخوذة من الركض ، وركض الرجل اذا فر وعدا ، والركض : مشى الانسان برجليه معا ، وركض الفرس اذا عدا . انظر ابن منظور (ت ٧٧١ هـ) : لسان العرب ، منشورات دار الفكر — دار صادر ، بيروت ، دون سنة للطبع ، ١٥ مجلدا ، ج ٧ ، ص ١٥٨ — ١٥٩ . أما الفرانقون ، فيبدو أنها مأخوذة من الفعل : افرنقع : عدا عدوا شديدا موليا . انظر ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٩٣ .

مدينة سالم حيث توفى المنصور ، ومدينة قرطبة فى الجنوب لا تبرر تأخر الخبر الى عبد الملك بنبأ موت أبيه مدة قد تصل فى أدنى تقدير : أسـبوع من الزمن ، وهـو ما يمـكن أن نقـدره من زمـن ممتد من السابع والعشرين من رمضان حتى صدر شوال ، تأسيسا على ما تعنيه كلمة صدر فى اللغة ، والتى تعنى : مقدم الشـهر ، فالصدر : مقدم كل شىء ، فيقال : صدر الكتاب ، وصدر النهـار ، وصدر الأمر(٦٣) •

لقد كان الخبر المهم ينتقل فى الدولة الاسلامية على رحابتها فى مدة زمنية قصيرة عبر وسائل الاتصالات تلك ، والتى وإن لم ترق إلى سرعة وسائل الاتصال العصرية الآن بالطبع ، فلا تتخلف عنهـا كثيرا ، فلقد دلتنا المصادر على أن الخبر المهم ، كان يصـل إلى المسئول فى مدة أربع وعشرين ساعة ، أى يوم كامل ، وأحيـانا أقل(٦٤) • فما تفسير ذلك ؟ الحق أننا لم نجد لدى المصادر ما يشفى الغلة ويروى الظمأ حول هذا الموضوع ، ولعل غاية ما نستطيع قوله هنا ، إن عبد الملك ، ربما تعمد إخفاء الخبر الذى ورده ، هو فى طريقه لقرطبة ، حتى يقدم قرطبة ، ويضبط شؤونها ، مكذبا الشائعات التى تعالت عن موت أبيه ، ثم بعد ذلك يعلن وفاة أبيه •

وأخيرا فلا يبقى لنا من أمر هذه الفقرة الثانية ، سوى ما جاء فى شقها الثانى ، والمتعلق بتعزية القوم لعبد الرحمن بن المنصور • وفى تقديرنا أن هذا الشق لا يحتاج إلى كبير وقت للتوقف عنده ، فالتعزية شىء طبيعى ومألوف ، ثم أنها لم ترتبط بموقف أو حدث ما •

---

(٦٣) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ ١ ، ٥١٢ •

(٦٤) انظر آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة فى الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ •

الفقــرة الثالثــة :

[وكان أوصى أن يدفن حث يقبض ولا ينقل تابوته ، فدفن فى قصره بمدينة سالم] .

لعل من الطبيعى ، وقد نقــل المؤرخون التالون لابن بســام صاحب الذخيرة ، عنه خبر موت المنصور ، أو من نقل مباشرة عن كتاب الدولة العامرية لابن حيان هذا الخبر ، أقول لعل من الطبيعى ألا يكون بينهم خلاف فى انه دفن بمدينة سالم ، كما أنه من الطبيعى الا خلاف فى أنه دفن فى صحن قصره . بيد أن ما يستوقفنا من آمر الوفاة هذه ، ذكر أمرين اثنين : أولهما خاص بالمنصور . فعلى الرغم مما ذكر من انفساح الملك والسلطان له ، وعلى الرغم مما أفاء الله له من الأموال والكنوز ، إلا أن الرجل كان فيما يبدو متعففا عن ذلك ، وربما كان يرى أن تلك الأموال متاع زائل . قد نستدرك هنا فنقول إن تعطشه إلى السلطة ونهمه تجاهها قد يقلل من قيمــة ما ذكرناه ، لكن الواقع أن الرغبة فى السلطة وبذل كل لاوســائل المشروعة وغير المشروعة للتمسك بها شىء ، والتعفف عن الأمــوال شىء آخر ، ويكفى دليلا على ذلك ما نورده هنا ، مما له صلة بالوفاة والدفن ــ أى هذه الفقرة الثالثة ــ فقد أوصى بأن يكون كفنــه (من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته)[٦٥] .

هل يمكن القول إذن أن المنصور ، كانت تتجاذبه وتتجاذب شخصيته بل نفسه ، معانى الخير والشر معا ؟ لسنا نميل الى هذا . فالحــق أن شر المنصور وكيدة لم يكن موجها إلا إلى خصــومه السياسيين فحسب ، ثم إلى الأعــداء التقليديين من الأســبان والنصارى . أما عامة الناس ، فقد كانوا فى مأمن منه ، ولــذا فلا نستغرب أن نرى فى ذلك الرجل الذى صورته لنا المصــادر : شخصية مرعبة ، لا نرى فيها إلا تقديرا له ، فقد (كان متسما

---

(٦٥) المقرى : نفسه ، جـ ١ ، ص ٤٠٩ .

بصحة باطنه ، واعترافه بذنبه ، وخوفه من ربه ، وكثرة جهاده ، وإذا ذكر بالله ذكر ، وإذا خوف من عقابه ازدجر ••• وكان عدله فى الخاصة والعامة ، وبسط الحق الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمرا مضروبا به المثل)(٦٦) •

أما الأمر الآخر الذى استوقفنا فى هذه الفقرة الثالثة ، فهو ما يتصل بتوضيح ما تركته وفاة المنصور على الصعيدين النصرانى والاسلامى فى أسبانيا النصرانية والأسلامية ، ثم لدى المؤرخين المسلمين والغربيين • ولنبدأ بالصعيد الأسبانى • ألا ريب ن وفاة المنصور تلك قد تركت رنة فرح لدى ممالك النصارى الأسبان ، الذين تنفسوا الصعداء ، فقد أرهقتهم وإن شئنا الدقة نقول أذلتهم غزوات المنصور الست والخمسين المتعاقبة ولقد كانوا معه فى حالة سيئة(٦٧) • ولعل الطريف فى الأمر أن مظاهر الفرحة والتشفى بموته قد استمرت بعد وفاة المنصور بمدة مديدة • أورد لنا المقرى(٦٨) نصا فاده أن أحد ملوك قشتالة ، وهو الفونس — لعله الفونسو السادس(٦٩) — الذى كان معاصرا لملوك الطوائف(٧٠) ،

---

(٦٦) المقرى : نفسه ، ص ٤٠٩ ، وقد مضى فى هذه الصفحة والصفحات التى تليها فى ضرب الأمثلة التى تدل على عدل المنصور ، واقامته الحق على خاصته وحاشيته . وانظر كذلك صرامته فى تطبيق الحق على آل بيته وخاصته ، ابن الخطيب : اعمال الأعلام ، ص ٦٥ ، ٧٥ .

(٦٧) عن مظاهر ذلك الفزع وذلك الاذلال لممالك النصارى ، انظر ابن عذارى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٩٤ — ٢٩٨ ، ثم المقرى : نفسه ، جـ ١ ، ص ٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٤ ، ٤١٩ ، ٥٤٦ ، جـ ٣ ، ص ٨٥ .

(٦٨) نفسه ، جـ ١ ، ص ٨٥ .

(٦٩) الفونسو السادس (١٠٧٢ م — ٤٦٥ هـ/١١٠٩ م — ٥٠٣ هـ) من أشهر ملوك مملكة قشتالة ، وقد انتهج خلال عصر ملوك الطوائف سياسة

استخفه التشفى ، فأنزله عن وقاره ، وذلك عندما دخل مدينة سالم ، فنصب سريره على قبر المنصور ، وخاطب فى زهو أحد رسل ملوك الطوائف ، واسمه شجاع[٧١] قائلا : (أما ترانى قد ملكت بلاد المسلمين ، وجلست على قبر ملكهم ؟ قال — أى شجاع — فحملتنى

=

الاسترداد الاسبانية المشهورة ، وكان شجا فى حلوق ملوك الطوائف ، وقد لقى هزيمة شنيعة من المسلمين فى المعركة المشهورة : الزلاقة ، وذلك سنة ٤٧٩ هـ . عن الفونسو السادس وسياسة الاسترداد وموقعة الزلاقة ، انظر محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، وهو العصر الثانى من كتاب دولة الاسلام ، منشورات مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ج ٢ ، ط ٢ ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ، ص ٢٩٨ وما بعدها ، ٣٢٠ وما بعدها ، ٣٨٨ وما بعـــدها .

(٧٠) المقصود بعصر ملوك الطوائف : العصر الذى أعقب سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ ، ثم الدولة الأموية سنة ٤٢٢ هـ ، أى من ٤٢٢ — ٤٨٤ هـ ، وهو العهد الذى قامت فيه فى الاندلس دول أو ممالك للطوائف الذين يتشكل منهم أغلب سكان الاندلس : عرب — بربر — صقالبة — ما يصل الى ٢٢ دولة ، وانتهى وجودهم السياسى بالتدخل المرابطى فى الاندلس واسقاط هذه الممالك جملة سنة ٤٨٤ هـ . عن عصر المرابطين ، انظر محمد عبد الله عنان : دول الوطائف ، وقد استوعب فى فصوله السبعة والتى سماها : كتبا ، ثم فى الخاتمة معظم ما جاء فى المصادر الاسلامية والغربية عن هذا العصر .

(٧١) شجاع هذا — ولا يعرف شىء آخر عنه سوى اسمه — هو مولى الملك المستعين بالله سليمان هود الجذامى ، ملك سرقسطة (الثغر الأعلى) ، وقد بعثه المستعين بالله رسولا الى الفونسو السادس . ومملكة بنى هود الجذاميين ، هى احدى ممالك الطوائف التى قامت فى أعقاب سقوط الخلافة الأموية أو قبل ذلك بقليل ، وقد ظلت قائمة حتى سنة ٥٣٤ هـ .

عن شجاع والاشارة الى أنه مولى المستعين ، انظر المقرى ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٩٨ ، وعن مملكة سرقسطة وتأسيسها ، انظر ابن عذارى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢١ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ١٧٠ — ١٧٦ ، ص ١٩٦ — ٢٠١ .

الغيرة أن قلت له : لو تنفس صاحب هذا القبر ، وأنت عليه ما سمع منك ما يكره سماعه ، ولا استقر بك قرار ، فهم بى ، فحالت امرأته بينى وبينه ، وقالت له : صدقك فيما قال ، أيفخر مثلك بمثل هذا ؟) .

حسبنا بهذا دليلا على مدى الضيق الذى كان يشعر به الأسبان آنذاك من المنصور[٧٢] .

أما المؤرخون الأسبان المحدثون ، فلقد تتبع محمد عبد الله عنان[٧٣] إشادتهم بعبقرية المنصور ، فنقل فى هذا الخصوص الذى نتحدث عنه عن المستشرق الأسبانى : بيدال تعليقه على غزوات المنصور ، الذى يقول فيه : (عاش الاسلام فى أسبانيا أروع أيامه وأسطعها ، وانتهى نصارى الشمال الى حالة دفاع كانت دائما مقرونة بالمحن ، ولاح وكأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية الجزية ، والسلاح ، والأسرى ، والمجد للخلافة الأموية) .

أما على الصعيد الاسلامى ، فإننا نلمس رنة أسى شعبية لوفاة المنصور ، فعامة أهل الأندلس الذين ملأ المنصور لهم عهده : غنائما وسبايا من بنات الروم ونسائهم ، والذين تغالوا فيما يجهزون به بناتهم من الثياب ، والحلى ، والدور ، كما يقول عبد الواحد المراكشى[٧٤] (وذلك لرخص أثمان بنات الروم ، فكان الناس يرغبون فى بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا[٧٥] ، ولولا ذلك لم

---

(٧٢) لاتعرف على المزيد من ذلك الضيق ، راجع : رجب محمد عبد الحليم : العلاقات بين الممالك الاسلامية والنصرانية فى اسبانيا منذ الفتح حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٧٣) دولة الاسلام فى الاندلس — الخلافة الاسلامية والدولة العامرية ، ص ٥٨٦ .

(٧٤) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٦٠ — ٦١ .

(٧٥) الضمير يعود الى عبد الواحد المراكشى ، الذى نقلت عنه هذا النص ، والمقصود بذلك : الثياب والحلى والدور .

يتزوج أحد حرة) • عامة أهل الأندلس هؤلاء — ولعل خاصتهم كذلك — عبروا عن أساهم لوفاة المنصور ، بترديد عبارة : مات الجلاب !! مات الجلاب !![٧٦] •

أما المؤرخون المسلمون ، فقد لمسنا عندهم كل معانى الفخر بالمنصور ، وبما فعله ، بل بما تفنن به من وسائل إذلال ممالك وملوك النصارى كما سبق أن ذكرنا • والحق أنه قل من ترجم للمنصور ، من لم تستوقفه حقيقة أنه لم تنتكس له راية ، ولم يفل له جيش ، وما أصيب له بعث ، وما هلكت له سرية[٧٧] • وهذا ما دفعهم الى الاشادة به فى انبهار كبير ، لذا فليس بدعا أن يختتم ابن عذارى[٧٨] ترجمته الواسعة للمنصور بن أبى عامر بالتذكير ببيتى الشعر الذى نقشا فى رخامه على قبره :

آثاره تنبيك عن أخباره
حتى كأنك بالعيون تراه

تا لله ما ملك الجزيرة مثله
حقا ولا قاد الجيوش سواه

* * *

---

(٧٦) ابن عذارى : نفسه ، ج ٣ ، ص ١٣ . والجلاب أو الجالب ، المشتقة من فعل : جلب ، اى ساق الشىء من موضع آخر ، ابراهيم مصطفى وآخرون ، نفسه : ج ١ ، ص ١٢٨ .

اقول عبارة الجلاب هذه ، وان كان نخاس الرقيق فى قرطبة قد اطلقوها تهكما وتعريضا بعبد الملك بن المنصور عندما تولى أمر الاندلس بعد ابيه المنصور ، الا انها اصابت المعنى هنا تماما .

(٧٧) انظر مثلا لذلك ما نقله المقرى : نفسه، ص ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، عن مصادر متعددة .

(٧٨) نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٠١ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا — المصادر :

١ — ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) :

الحلة السيراء ، حققه وعلق حواشيه حسين مؤنس ، منشورات الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٣ م جزءان •

٢ — ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ) :

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، ٤ أقسام ، ويقع فى كل قسم : مجلدان ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م •

٣ — البكرى (ت ٤٨٧ هـ) :

جغرافية الأندلس وأوربا — مستلة من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق عبد الرحمن على الحجى ، منشورات دار الاشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨ م •

٤ — ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) :

جمهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون ، منشورات دار المعارف بمصر ضمن مسلسل ذخائر العرب رقم (٢) ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م •

٥ — الحمـــيرى (ت ٩٠٠ هـ)

الروض المعطـــار فى خبر الأقطـــار — معجـــم جغرافى — تحقيق إحسان عباس ، منشـــورات مكتبة لبنـــان ، ط ٢ ، ١٩٨٤ م .

٦ — ابن حيـــــان (ت ٤٦٩ هـ) :

المقتبس من أنباء الأندلس — القطعة الثانية — تؤرخ للسنوات الممتدة من ٢٣٢ — ٢٦٧ هـ ، حققه وقدم له وعلق حواشيه محمود على مكى ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٧٣ م .

٧ — المقتبس فى أخبار بلد الأندلس — القطعـــة الرابعة — تؤرخ لمخس سنوات من عهد الخليفة الحكم المستنصر (٣٦٠ — ٣٦٤ هـ) ، تحقيـــق عبد الرحمن على الحجى ، منشورات دار الثقافة ، بيروت ، سلسلة المكتبة الأندلسية رقم (٤) ، طبعة ١٩٨٣ م .

٨ — ابن خاقان الأندلسى (ت ٥٢٩ هـ) :

مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهـــــل الأندلس ، دراسة وتحقيق محمد على شوابكة ، منشورات دار عمار ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٩ — ابن الخطـــيب (ت ٧٧٦ هـ) :

الإحاطة فى أخبار غرناطة ، حقق نصه ووضـــع مقدمته وحواشـــيه محمـــد عبد الله عنـــــان ، منشـــورات مكتبة الخانجى بالقاهرة ، ط ٢ ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م ، ٤ مجلدات .

١٠ — أعمال الاعلام فى من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاســـلام ، تحقيــق وتعليق إ. ليــفى بروفنسال ، نشر على جزأين فى عدة أقسام ، وقد نشرت هذا الجزء دار المكشوف ، بيروت ١٩٥٦ م .

١١ — ابن خــلدون (ت ٧٣٢ هـ) :

العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العــرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، ضبط المتن ووضع الحــواشى والفهارس خليــل شحادة ، وراجعه سهيل ذكار ، منشــورات دار الفــكر للطبــاعة والنشر والوتزيع ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ٨ مجلدات .

١٢ — ابن سعيد المغربى (ت ٦٨٥ هـ) :

المغرب فى حلى المغرب ، حققه شوقى ضيف فى جزأين منفصلين ، القسم الثانى تحت عنوان : وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس ، منشورات دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٤ م .

١٣ — الســـيوطى (ت ٩١١ هـ) :

تاريخ الخلفــاء ، تحقيق محمــد محيى الدين عبد الحميد ، منشورات المكتبة التجارية الكبرى ، مكتبــة الفجــالة الجديدة ، القــاهرة ، ط ٤ ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

١٤ — الطبـــرى (ت ٣١٠ هـ) :

تاريخ الأمم والملوك ، منشورات دار القاموس

الحديث للطباعة والنشر ، بيروت ، دون سنة للطبع ، ٨ أجزاء •

١٥ — عبد الواحد المراكشى (ت ٦٢٠ هـ) :

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلى ، تقديم ممدوح حقى ، منشورات دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ط ٧ ، ١٩٧٨ م •

١٦ — ابن عذارى (ت ٦٩٥ هـ) :

البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، ٤ أجزاء ، حقق الأجزاء الثلاثة الأولى : ج• س• كولان وليفى بروفنسال ، وحقق الجزء الرابع إحسان عباس ، منشورات دار الثقافة ، بيروت ، دون سنة للطبع •

١٧ — ابن غالب الغرناطى (من أهل القرن السادس الهجرى) :

فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، تحقيق لطفى عبد البديع ، منشورات مجلة معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية ، المجلد الأول ، الجزء الثانى ، ١٩٥٥ م •

١٨ — ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) :

البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر ، بيروت ، طبعة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ٨ مجلدات ، ١٤ جزءا ، ثم مجلد للفهارس •

١٩ — المقــــرى (ت ١٠٤١ هـ) :

نفح الطيب من غصــن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب ، تحقيق إحسان عبــاس ، منشورات دار صـــادر ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، ٨ مجلدات .

٢٠ — ابن منظـــور (ت ٧١١ هـ) :

لسان العرب ، منشــورات دار الفــكر — دار صادر — بيروت ، دون سنة الطبع ، ١٥ مجلدا .

٢١ — النبــــاهى « أبو الحسن : على بن عبد الله بن الحســن النباهى المالقى الأندلسى » (كان حيا ســنة ٧٩٣ هـ) :

كتاب المرقبه العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا المعروف بتاريخ قضاة الأندلس ، منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ضمن سلسلة ذخائر التراث العربى ، بيروت ، دون سنة للطبع .

٢٢ — ياقوت الحمــوى (ت ٦٢٦ هـ) :

معجم البلدان ، منشورات دار صادر ودار بيروت للطباعة ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ٥ مجلدات .

* * *

ثانيــا ــ المراجــع العربية :

١ ــ ابراهيم بيضـــــون :

الدولة العربية فى أسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة (٩٢ ــ ٤٢٢ ﻫ / ٧١١ ــ ١٠٣١ م) ، منشورات دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٠ م .

٢ ــ ابراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القــادر ومحمد على النجــار :

المعجم الوسيط ، منشورات مجمع اللغة العربية بعناية دار إحياء التراث العربى ، وأشرف على طبعه عبد السلام هارون ــ المكتبة العلمية ــ طهران ، دون سنة للطبع ، جزءان .

٣ ــ احمــد بـــــدر :

تاريخ الأندلس فى القرن الرابع الهجرى ــ عصر الخلافة ، منشورات مطابع ألف باء ــ الأديب ــ دمشق ١٩٧٤ ، وهو يشكل الجزء الثــانى من كتابه . أما الجزء الأول ، فعنوانه : دراسات فى تاريخ الأندلس وحضارتها ــ من الفتــح حتى الخلافة ، منشورات مكتبة أطلس ، دمشـــــق ١٩٦٩ م .

٤ ــ أحمد مختــار العبــادى :

فى تاريخ المغرب والأندلس ، منشـــورات دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٨ م .

٥ — آدم متـــز :

الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجـرى أو عصر النهضة فى الاسلام ، تعريب محمـــد عبد الهادى أبو ريدة ، منشورات دار الكتـاب العربى ، بيروت ودار الخانجى بالقاهرة ، دون سنة للطبع ، جزءان •

٦ — رجب محمـد عبد الحليم :

العلاقة بين الممالك الاسلامة والنصرانية فى أسبانيا منذ الفتح وحتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، جامعة القـاهرة — كلية الآداب ، قسم التاريخ ، ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م •

٧ — ضـياء الدين الريـس :

عبد الملك بن مروان — موحد الدولة العربية ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القـومى — المؤسسة المصرية العـامة للتأليـف والترجمـة والطباعة والنشر — سلسلة علام العرب (١٠) ، القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م •

٨ — عبد الرحمن على الحـجى :

التاريخ الأندلسى ، منشورات دار القـلم ، بيروت ، دمشق ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م •

٩ — عبد المجيـد نعنـعى :

تاريخ الدولة الأموية فى الأندلس — التـاريخ السياسى — منشـورات دار النهضة العربيـة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٦ م •

١٠ ــ عثمــان الكعــــاك :

مراكز الثقافة فى المغرب فى القرن السادس عشر الى القــرن التاسع عشر ، منشــورات معهــد الدراســات العربية بجامعة الدول العربيــة ، القاهرة ١٩٥٨ م ٠

١١ ــ محمد عبد الله عنــــان :

دولة الاسلام فى الأندلس ــ الخلافة الأمــوية والدولة العامرية ــ العصر الأول ، القسم الأول ، منشورات مكتبة الخانجى ، القــاهرة ، ط ٤ ، ١٣٨٩ ﻫ / ١٩٦٩ م ٠

١٢ ــ دولة الاسلام فى الأندلس : دول الطــوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، وهو العصــر الثانى من كتاب دولة الاسلام ، منشورات مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٨٩ ﻫ / ١٩٦٩ م ٠

١٣ ــ دولة الاسلام فى الأندلس : من الفتح الى عهد الناصر ــ العصر الأول ، القسم الأول ، منشورات مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٣٨٩ ﻫ / ١٩٦٩ م ٠

ثالثــا ــ المراجــع الأجنبيــة :

1. Dozy, R. (1913). Spanish Islam : A History of the Moslems in Spain. Translated by F. J. Stokes. London, Frank Cass.

* * *

قراءة فى نص : محاولة للفهـم
(دراسة تحليلية للأيام الأخـيرة
من عهد المنصور بن أبى عامر العامرى الأندلسى)

د. يوسف بن احمد حوالة

الاستاذ المشارك
كلية التربية ـ جامعة الملك عبد العزيز
بالمدينة المنورة
المملكة العربية السعودية

يعرض البحث الى جوانب سياسية ونفسية فى شخصية المنصور ابن أبى عامر العامرى الأندلسى (٣٦٦ ـ ٣٩٢ هـ)الذى أسس له ولأسرته دولة داخل الدولة الأموية الأندلسية ، مستغلا الظروف التاريخية المحيطة المختلفة ، ومنها : صغر سن الخليفة الشرعى هشام ابن الحكم آنذاك والذى امتدت خلافته من ٣٦٦ ـ ٤٠٢ هـ ، فكان أن نجح فى الوصول الى ذروة السلطة مبقيا للخليفة على النفـوذ الاسمى / الروحى .

والنص الذى استهدفته القراءة مستل من كتاب ابن بسـام الشنترينى : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، الذى أخذه بدوره من موسوعة ابن حيان القرطبى : المقتبس من أنباء أهل الأندلس . وقد بات واضحا لدى الباحثين أن مقتطفات واسعة من الموسوعة ـ رغم ما عثر عليه من قطع منها ـ قد حوتها كتب بعـض مؤرخى الأندلس ومنهم ابن بسام فى الذخيرة .

أما القراءة : فهى رؤية تحليلية علمية دقيقة ـ ما وسـع الجهد ـ تقوم على تتبع الأبعاد النفسية فى شخصية المنصور بن أبى عامر ، ثم الظروف السياسية المحيطة : زمانا ومكانا وشخوصا من خلال الوقوف على تفاصيل الأيام الأخيرة له وقد شعر بدنو أجله ، وتصرفاته التى توضح معطيات العهد برمته .

وأما أنها محاولة للفهم ، فقد قصد الباحث بطرقه لهذا اللون من الكتابة التارخية أن يجرى مرانا يدرب من خلال هذه القـــراءة للنص ، فكرة : منهجيا وتاريخيـــا باعتماد أســـلوب الاســـقاطات التاريخية أو الارتدادية فى المعالجة التاريخية فى ضوء قواعد نقد الأصل التاريخى المعروفة : الاستنباط أو الاستنتاج ــ المقابلة ــ المقارنة ــ التحليل • مع التأكيد على عدم تحميل النص أكـــثر مما تحتمله ألفاظه من المعانى والحقائق عند استنطاق النصوص •

* * *

النشـــاط التجـــارى والحيـــاة الاجتماعية فى قـــوص

فى القرنين الثـــالث والرابع الهجريين

دكتور محمد محمود ادريس
أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد
قسم التاريخ ــ كلية الآداب
جامعة المنيـــا

مقـــــــدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين ••• وبعـــــد

فهذا بحث يتناول دراسة تجارة قوص والحياة الاجتماعية فيها خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاســـع والعـــاشر الميلاديين ، فقد كان لقوص كعاصمة لأقليم قوص وكبرى مدنه مكانة سامية تجاريا واجتماعيا فى مصر نظرا لمـــا تمتعت به من موقع هام ربط مصر بالعالم الخارجى تجاريا عن طريق ارتباطها بميناء عيذاب على البحر الأحمر وارتباطها جنوبا بأسوان والنوبة ، وشـــــمالا بالفسطاط والاسكندرية ، كما قامت قوص بدور كبير فى تنشـــــيط تجارة مصر الخارجية ، وغدت قبـــلة التجار والحجـــاج القادمين والذاهبين من مصر واليها فضلا عن حجاج بلاد المغرب والاسكندرية ، واستقبال تجارة جنوب شرق آسيا القادمة من الهند والصين وغيرها بجانب تجارة جدة وعدن والحبشة وغيرها ، فلذلك كانت قوص من أهم مراكز تجارة مصر الخارجية •

على أن هذه الحياة التجارية النشطة انعكست على أســـواق قوص وتجارتها الداخلية حيث كانت أسواقها عامرة بالتجارات ، كثيرة السلع ، تعج بالتجار والباعة والقادمين للشراء من سائر القرى والمـــدن المجاورة لقوص ، وساعدها على ذلك وفرة المحصـــولات

الزراعية وتنوعها ، وازدهار الصناعات والحرف المحلية التى اشتهرت بها مدن الاقليم ، كما اختصت بأنواع من الصناعات الغذائية والأنسجة المختلفة المتميزة والتى كانت من أهم سلع مصر وأجودها ، فضلا عن ذلك عمرت قوص بالمنشآت التجارية كالفنادق والخانات والوكالات مما ساعد على استقرار التجار الذين فضلوا الاقامة بقوص للراحة من عناء السفر الطويل ، وكانت فرصة لعقد الصفقات التجارية .

وبجانب نشاطها التجارى كانت الحياة الاجتماعية فى قوص مرتبطة بتجارتها فالأرباح الناتجة من التجارة انعكست على المجتمع وحياته ، كما كان تنوع السلع ووفرتها قد وفر للمجتمع استقراره ورخاءه فغدت عناصر المجتمع المختلفة التى سكنت قوص من عرب وغيرهم من المصريين والمسلمين وأهل الذمة تعيش حياة الاسرة الواحدة التى ارتبطت بالاقليم وعملت على رخائه . وتميزت قوص بمساكنها ونظام مأكلها وملبسها الذى يتلاءم وطبيعة المجتمع التجارى والزراعى وموقع المدينة فى صعيد مصر فكان نظاما يعبر عن شخصية اقليم قوص وسماته العامة .

ومن أهم ما ميــز مجتمع قوص نظامه الاجتماعى المتمثــل فى احتفالات أهل قوص المسلمين بأعيادهم العامة والخاصة ومشاركة أهل الذمة هذه الأعياد فضلا عن تمتع أهل الذمة بالاحتفال بأعيــادهم الخاصة فى ظل سياسة التسامح الاسلامية التى طبقها ولاة الاقليم . كما عمرت قوص بالمنشآت الاجتماعية كالحمامات والبيمارستانات والمكاتب الخاصة بتحفيظ وتعليم الصبية القرآن والقراءة والكتابة ، كما اتسمت الحياة الاجتماعية بطابع متميز فى احتفال سكانها بالزواج والختان والاحتفال بالمولود والدفن وما كانوا يقومون به من وسائل التسلية وقضاء أوقات فراغهم .

وتتجلى أهمية الموضوع فى أن قوص خــلال القرنين الثــالث والرابع الهجريين ظلت طوال عصر الولاة العباسيين والطولونيين والاخشيديين وصدر العصر الفاطمى تقوم بدورها كمركز لتجــارة مصر الخارجية وتزداد تجارتها اتساعا بفضل سكانها وسـياسة

الولاة القائمة على تنشيط التجارة وتوفير الأمن لها ولسكان قوص ؛ وقد ساعدنى على الكتابة فى هـذا الموضوع ما عمـرت به أوراق البردى العربية من معلومات هامة وأكثرها كتب خلال القـرنين الثالث والرابع الهجريين وصدرت من مدن الأقليم حيث تلقى الضوء على نشاط قوص التجارى والحياة الاجتماعية فيها •

ومكمن الصعوبة فى الكتابة فى هذا الموضوع أن المصـادر لم تمدنا بمعلومات مباشرة عن قوص سواء فيما يختص بالتجارة أو الحياة الاجتماعية ، فما جاء بها متناثر وينطبق على العاصمة الفسطاط أو القطائع • كما أن ما جاءت به أوراق الجنيزة من معلومات يمكن الاستفادة بها فى تجارة قوص أو الحياة الاجتماعية فيها تشير الى العصر الفاطمى والعصور التالية مما زاد الموضوع صعوبة ، كما انه لا توجد دراسات سابقة خاصة بقوص فى تجارتها ودراسة الحيـاة الاجتماعية فيها فكل الدراسات كانت عامة تشمل مصر كلها •

لذلك تتبعت ما حوته المصادر المعاصر ةمن معلومات متناثرة عن التجارة والمجتمع بجانب ما توافر من معلومات فى أوراق البـردى العربية ، وما كانت تشير اليه أوراق الجنيزة من معلومات هامة عن قوص وتجارتها بجانب كتب الفقه والحسـبة وكتب الجغرافيين والرحـالة •

من ذلك كان الحديث عن النشاط التجارى يتناول تجارة قوص الداخلية المتمثلة فى أسواقها ، مركزا على موقع قوص وأهميته كما تعرضت لدراسة قوص كمركز لتجارة مصر الخارجية وارتباطها بعيذاب والفسطاطا وأسوان والنوبة والمعاملات التجارية وأهم السلع الواردة اليها والصادرة منها •

فضلا عن ذلك فتناول البحث الحديث عن الحياة الاجتماعيـة فى قوص فتعرض للحديث عن عناصر مجتمع قوص وطوائفه المختلفة ومظاهر الحياة الاجتماعية فيها من دراسة للمسكن والمأكل والملبس

ومكانة المرأة الاجتماعية فى قوص بجانب المنشآت الاجتماعية التى تحترم المجتمع فضلا عن أعيادهم واحتفالاتهم العامة والخاصــة وأفراحهم بالزواج والمولود والختان وغير ذلك وختم البحث بالحديث عن وسائل اللهو وقضاء أوقات فراغهم •

والله أســأل أن يوفقنا الى سواء الســبيل ••

د• محمد محمود ادريس

القاهرة فى الاربعاء غرة جمادى الأول ١٤١٣ هـ

٢٨ من أكتــوبر ١٩٩٢ م

تعتبر قوص من أهم مدن صعيد مصر خلال العصر الاسلامى فهى قاعدة الأعمال القوصية التى هى احدى كور الوجه القبلى ، فقد قسم الجغرافيون أرض مصر الى قسمين الوجه البحرى والوجه القبلى وحدد ابن دقماق الوجه القبلى فذكر انه يبدأ من الفسطاط وعدد باثنتين وعشرين كورة حددهم أبو صالح الأرمنى باثنتى عشرة كورة فى الوجه البحرى وعشر كور فى الوجه القبلى . أما ابن دقماق فذكر أن الاثنتين وعشرين كورة تجمعهم عشرة أعمال أولهم من الشمال عمل الجيزة ثم عمل الاطفيحية ثم عمل الفيوم ، ثم عمل البهنساوية ، ثم عمل الاشمونين ثم عمل منفلوط ، ثم عمل اخميم ثم عمل قوص وجنوبها عمل أسوان ثم يختمهم ثغر عيذاب[1] .

كانت قوص[2] قاعدة الاقليم الذى يبدأ من الأشمونين شمالا الى أسوان جنوبا وبذلك حوى عمل منفلوط وعمل اخميم ، وأطلق على الاقليم أو الكورة أو العمل ولاية ، فأصبحت ولاية قوص يحكمها وال يتولى جميع بلاد الصعيد[3] ، فهى أهم ولايات مصر . وقسمت الولاية الى مدن وقرى[4] ويذكرها ياقوت بقوله « ليس بالديار المصرية من الفسطاط والاسكندرية مدينة أعمر ولا أعظم من قوص[5] .

---

(١) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، بولاق ١٣١٠ هـ ، القسم الأول ، ص ١٢١ .

(٢) وكلمة قوص معناها الدفن لتخصص أناس من أهلها فى دفن ملوك الفراعنة (ابو الفدا : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ ، ص ١١٠ ، ١١١) .

(٣) المقريزى : الخطط ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، ج ١ ، ص ٦٨ .

(٤) كلمة كورة اطلقها العرب على عدد من القرى والمدن وهى تمثل الوحدة الادارية التى استندوا عليها فى حكم مصر .

(٥) معجم البلدان ، ليبزج ١٩٢٤ ، ج ٨ ، ص ٣٦٢ .

تمتعت مدينة قوص بموقع هام فى صعيد مصر ، فهى على ضفة النيل الشرقية ، يصفها الأدفوى[٦] بقوله « انها كورتان شرقيـة والنيل فاصل بينهما » ، وأصبحت مدينة الاقليم بعـد أن كانت قفط[٧] ويقول المقريزى عن مدينتى قوص وقفط أن قوص أعمر والناس فيها أكثر ، ويضيف قائلا أن قوص أعظم مدن الصعيد ، ويذكر انه فى الوقت الذى شرعت فيه قوص فى العمارة شرعت قفط فى الخـراب[٨] .

كانت قوص فى موقع يجعل منها مركزا تجاريا هاما لكونها فى موقع ملتقى القوافل التجارية القادمة ن أسوان برا ونهرا ، وللقوافل التجارية القادمة من الصحراء الشرقية برا ، فضـلا عن أن الحجاج المصريين القادمين من الفساط والاسكندرية برا ينزلون قوص أولا ثم تسير قوافلهم شرقا فى صحراء قوص الى البحر الأحمر حيث يركبون البحر الى جدة أو يواصلون سيرهم جنوبا الى أسـوان ويتجهون من هناك الى عيذاب ، وبذلك أصبحت قوص مركزا لاستقبال التجار والحجاج القادمين أيضا من البحر الأحمر حيث ترسوا السفن فى عيذاب ومنها تنقل القوافل التجارة عبر الصحراء الى قوص ثم تشق طريقها اما برا أو بالنهر الى الفسطاط والاسكندرية .

وخلال القرنين الثالث والرابع الهجـريين كانت مصر ولاية عباسية ثم أصبحت مستقلة تحت حكم الطولونيين ثم عادت تحت حكم الاخشيديين وانتقلت فى منتصف القرن الرابع الهجرى الى حكم الفاطميين ، وخلال هذه الفترة كانت قـوص تزداد ازدهارا ومعرانا ، وتكثر تجارتها ، وتتسع متاجرها وتغمرها سلع الشرق

---

(٦) الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد ، القاهرة ١٩١٤ ، ص ٧ .

(٧) ابن دقماق : الانتصار ، القسم الثانى ، ص ٢٧ .

(٨) الخطط جـ ٢ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٦ .

وتأتيها تجارات الفسطاط ويذكر الرحالة ابن جبير[٩] أن مدينة قوص عندما زارها كانت متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود وتجار الحبشة ، وذكر انها محط الرحال ، ومجتمع الرجال ، وملتقى الحجاج المغاربة ، وأضاف قائلا : ومنها يفوزون بصحراء عيذاب واليها اتصالا بهم[١٠] .

ونظرا لموقعها الهام كانت تستقبل حجاج مصر والمغرب الذين ظلوا طوال العصر الاسلامى لا يتوجهون الى مكة الا من صحراء قوص الى عيذاب حيث يركبون النيل من الفسطاط الى قوص ثم يركبون الابل من قوص الى عيذاب ، وهذا الطريق يبدأ من الفسطاط الى قوص ثم يستمر الى أسوان والنوبة ، ومن قوص يتفرع طريق ثان الى عيذاب[١١] ويذكر المقريزى[١٢] أن تجار الهند واليمن والحبشة يردون فى البحر الى عيذاب ثم يسلكون الصحراء الى قوص ومنها الى الفسطاط واستمر هذا الطريق حتى بطل بعد ٧٦٠ هـ .

وتقطع القوافل المسافة فى صحراء قوص الى عيذاب سبعة عشر يوما ، وكانت عيذاب من أعظم مراسى الدنيا بسبب كثرة مراكب الهند واليمن التى تحط بميناء عيذاب محملة بالبضائع ولما ضعفت عيذاب صارت مراسى هذه السفن فى عدن ثم تحولت الى جدة ٨٢٠ هـ . ثم هرمز[١٣] .

اتصلت قوص بالمدن المجاورة لها بطريق برى ونهرى ، فالبرى

---

(٩) رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٧ ، ٧٦ .

(١٠) نفس المصدر ، ص ٣٥ .

(١١) احمد دراج : عيذاب ، مجلة نهضة افريقية ، العدد الأول ، اغسطس ١٩٥٨ ، ص ٦٠ .

(١٢) الخطط : جـ ٢ ، ص ٢٠ .

(١٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٠ .

الذى يسير بمحازاة النيل الى أسوان والنوبة والذى به اتصلت بهذه المدن ، وطريق يتفرع من قوص الى عيذاب برا وهـو الذى يسلكه التجار والحجاج ، وكان التجار المغاربة يفضلون هذا الطريق الى عيذاب بالبحر الأحمر لقصره[١٤] ولذلك ازداد نشاط التجارة القادمة والذاهبة الى عيذاب على هذا الطريق مما ترتب عليه انتعاش تجارة قوص وازدهارها •

فضلا عن ذلك فبرزت أهمية قوص لكونها مقر الوالى الذى يحكم اقليم قوص • كما كان بها من المناصب الهامة قاضى الاقليم ونائب المحتسب والدواوين الخاصة بالاقليم ، وبها أهل الحكمة وأهل الصناعات ، ومن آن لآخر كان قاضى قوص يخرج لزيارة مدن الاقليم فيذكر الأدفوى « انه سار من قوص قاصدا أسوان وخلال الطريق كان يستقبله أهل العلم والدين وذكر انه خرج لاستقباله من ادفو أربعون يركبون البغال[١٥] وكان العلماء هم الذين يركبون البغال •

كما كان بقوص دار ضرب فذكر المقريزى[١٦] ان دور الضرب بمصر كانت فى ست مواضع منها قوص حيث كان القاضى يتـولى الاشراف على هذه الدار ، وهذه الدار استخدمها أحمد بن طولون فى صك عملته وكذلك الفاطميون ، وذكر ابن مماتى[١٧] أن بقوص دارا للعيار يحتاط للرعية فى موازينهم وصنجهم ومكاييلهم ، وكان نائب المحتسب يحضر الى دار الضرب لينظر فى المعايير المختلفـة ويذكر أن هذه لا تباع الا فى هذه الدار ، وكان التجار يستدعون اليها لاختبار صنجهم وتغيير ما تلف منها وحيثما وجد حاكم الاقليم كانت دارا لضرب ودواوين الاقليم •

---

(١٤) د. أحمد دراج : عيذاب ، ص ٦٠ .

(١٥) الادفوى : الطالع السعيد ، ص ١٣ .

(١٦) الخط ، جـ ١ ، ص ٤٥٦ ، جـ ٢ ، ص ١١٠ .

(١٧) قوانين الدواوين ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

ونظرا لارتباط قوص بميناء عيذاب فورد ذكر ميناء عيذاب كثيرا فى وثائق الجنيزة مرتبطة بالحديث عن قوص فمتاجر الشرق وخاصة التوابل تأتى من عدن الى عيذاب ومن عيذاب تحمل القوافل المتاجر الى قوص عبر الصحراء[١٨] وورد فى رسالة كتبها ابن الى أمه خلال اقامته فى عيذاب يخبرها بوصوله أولا الى قوص وانه سأل هناك عن أولاد عمه فأخبره رجل انهم فى عافية فى بلد فى اليمن ثم يخبر الابن أمه انه سافر من قوص الى عيذاب ، وانه سوف يسافر فى شهر رجب[١٩] مما يدل على أن قوص على صلة بعيذاب تجاريا ، فضلا عن استقبال قوص المسافرين الى الحجاز والشرق والقادمين من هناك أيضا .

وقد بلغت عدن مركزا تجاريا هاما خلال تلك الفترة فكانت تستقبل بعض السفن الهندية والصينية التى تفرغ حمولتها بعدن ومن عدن تقوم السفن اليمنية بنقلها الى عيذاب[٢٠] ولذلك راجت تجارة قوص وأسواقها لكثرة ما يرد اليها من سلع بالاضافة الى ما توافر لها من سلع زراعية ومنتجات صناعية اختصت بها قوص عمرت بها أسواق المدينة بالاضافة الى ما يرد الى سوقها من منتجات القرى والكفور المجاورة .

ومما اشتهرت به قوص وأصبح من أهم السلع التى عمرت بها أسواقها المنسوجات الصوفية[٢١] كما كانت ترد الى أسواقها أنواع

---

(١٨) حسنين محمد ربيع : وثائق الجنيزة واهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانىء الحجاز واليمن فى العصور الوسطى مجلة دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الثانى ، مطابع جامعة الرياض ، ص ١٣٦ .

(١٩) المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٢٠) احمد دراج : عيذاب ، مجلة نهضة افريقية ، العدد الأول ، أغسطس ١٩٥٨ ، ص ٦٠ .

(٢١) العقوبى : البلدان ، ص ٣٣٢ .

السجاد التى اختصت بها قرى أسيوط ويذكر الادريسى[٢٢] أن أهل قفط كانوا يصنعون الصابون الذى اختصوا به من زيت بذرة الفجل والخس التى يطبخونها ويستخدمون ادهانها فى صناعة الصابون ويرسلونها الى جميع أنحاء البلاد واختصت مدن اقليم قوص بصناعة الزيوت وكان يستخدم فى الاضاءة وانتشرت هذه الصناعة فى صعيد مصر فكان بأسيوط معصرة زيت حار[٢٣] كما ورد فى أوراق البردى العربية من القرن الرابع الهجرى أن أحد التجار بالفسطاط طلب من أحد التجار فى صعيد مصر أن يرسل له زيت زنبق (زيت الياسمين) الذى يستعمل فى العطر[٢٤] وتشير أوراق البردى الى أسماء كثيرين من صناع الزيوت فى الصعيد مما يدل على أن القبط احتكروا هذه الصناعة فالأسماء التى وردت تشير الى أنهم قبط ومنهم (بولة الزيات ، اصطفين الزيات ونميرة)[٢٥] .

كما كان يرد الى سوق قوص كثير من منتجات اخميم التى اشتهرت بها ومنها الثياب الصوف والكتان ، كما كان يأتيها من منتجات اسنا التى تقع جنوب قوص أنواع المنسوجات الصوفية السميكة التى أختصت بها بجانب المقاطف التى كانت تصنع من سعف النخيل[٢٦] كما كان يرد الى سوق قوص نوع من القمح يعرف باليوسفى اشتهرت به منفلوط[٢٧] ويقول المسعودى[٢٨] أن القمح اليوسفى يعد من أجود وأعظم أنواع القمح حبا وأطوله شكلا وأثقله وزنا .

---

(٢٢) نزهة المشتاق ،ص ٤٨ ، وتقع قفط شمال مدينة قوص .

(٢٣) أبو صالح الأرمنى : تاريخ الشيخ ابى صالح ، ص ١١٢ .

(٢٤) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ٧٨ .

(٢٥) نفس المصدر ، جـ ٥ ، ص ٨٥ .

(٢٦) المقاطف : جمع مقطف ووه ما كان يستخدم فى وضع الغلال أو استخدامه فى عمل الزراعة .

(٢٧) ابن جبير : الرحلة ، ص ٣١ .

(٢٨) التنبيه والاشراف ، ص ٢٠ .

وعمرت أسواق قوص بأنــواع التمور الذى كان ينتــج فى قوص ويذكر الادفوى(٢٩) انه ليس بالعراق تمرا الا وبصعيد مصر مثله ، ويضيف الادفوى قوله بأن قوص اشتهرت بالتمر الجيــد وان رطبها من أحسن الرطب صادق الحلاوة كثير السكر ، وذكر أن مساحة قوص من النخيل عشرون ألف فدان ، مما يدل على كثرة الانتاج وتنوعه بجانب جودته .

كما اختصت قوص والمدن المجاورة لها بصناعة السكر والعسل الذى عمرت به أسواق قوص فقد بلغت قوص أهمية كبيرة فى صناعة السكر فيذكر المقريزى(٣٠) أن صناعة السكر كانت بقوص وقفط ، وذكر الادفوى(٣١) أن بهما أربعون مسبكا للسكر وست معاصر للقصب ، ولكثرة المنتج من السكر والعسل كان يرسل الى الفسطاط ليباع هناك ، وتشير أوراق البردى العربية من القرن الثالث الهجرى الى الكثير من شحنات العسل المرسلة الى الفسطاط ففى احدى البرديات يذكر وكيل أحد التجار بأدفو انه أرسل اليه مائة وسبعة عشر جرة فى مركب(٣٢) .

وكثرت الحلوى بسوق قوص فقد انتشرت صناعتها فى القرن الثالث الهجرى فترتب على كثرة المنتج من السكر فى قوص كثرة صناعة الحلوى فتباع فى سوق قوص والباقى يرسل الى الفســطاط

---

(٢٩) الطالع السعيد ، ص ١١ .
(٣٠) الخطط ، ج ١ ، ص ٢٣٢ .
(٣١) الطالع السعيد ،ص ٨ .

(٣٢) جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ١٣٥ ، والمقصود بالجرة هنا جرة العسل التى تصنع من الفخار والى الآن فى صعيد مصر تستخدم فى وضع العسل وانتشرت صناعة هذه الجــرار فى قوص منذ القرن الثالث والى الآن ويعلق د. مهدى علام على حجــم هذه الجرة فذكر انها تحتوى على ١٣٦ الى ١٤٠ رطلا من العســل أى حوالى خمسة وعشرون لترا .

لبياع هناك فضلا عن انتشار صناعة الأشربة المتخذة من السكر والتى عمرت بها أسواق قوص مثل النيرا التى تباع بأسواقها واشتهرت منفلوط بصناعة هذا النوع من الشراب وهى تشبه العسل(٣٣) وبقوص كثير من قصب السكر الذى يصنع منه السكر •

على أن أهم المنتجات التى تباع فى أسواق قوص ما كان يأتيها من منتجات القرى المجاورة ومن أهمها المنسوجات اليدوية فقد إهتمت المرأة فى القرى المجاورة بغزل الصوف الذى يستخرج من الغنم فى منازلهن بأيديهن ويرسلنه الى سوق قوص لبيعه غزلا أو ترسله الى المناسج المنتشرة فى أنحاء قوص لنسجه وبيعه منسوجا ، وكان الأقباط يختصون بنسج الصوف فى قرى اقليم قوص فقد انتشرت هذه المغازل التى يديرها أصحابها باليد بدولاب معين واشتهرت بها بصفة خاصة قوص واخميم وقفط •

على انه فى الوقت الذى كانت حركة البيع والشراء فى قوص دائمة طوال الاسبوع ما عدا يوم الجمعة الا انه خصص يوم فى الاسبوع لانعقاد السوق الاسبوعى حيث يفد الأهالى من القرى المجاورة لبيع وشراء ما يحتاجونه • ويذكر المقدسى(٣٤) ان أكثر أسواقهم (أى بيعهم وشراؤهم) اذا رجعوا من الجامع ويضيف قوله « وتخلو أسواقهم أيام الجمع (أى لا ينعقد سوقهم يوم الجمعة) وكان سوقهم الكبير بالقرب من الجامع الكبير للمدينة •

ونظام السوق الاسبوعى سار على نظام أسواق مصر خلال ذلك العصر من حيث تقسيمه الى أماكن للسلع الواحدة ، وأماكن اختصت بنوع معين من الصناعات ، وأخرى للدواب كأسواق الحمير وغيرها وأماكن للغلال بأنواعها • وأماكن أخرى لبيع المأكولات(٣٥)

---

(٣٣) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار ، ص ٥٠ .

(٣٤) أحسن التقاسيم ملعرفة الاقاليم ، ص ١٧٤ .

(٣٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ، ص ٣٧٣ ، ابن الداية : المكافاة ، ص ٥٣ .

وسوقها ذو حركة ونشاط ويقيم به بعض الأطباء ومجبرى العظام لاسعاف المترددين على السوق عند الضرورة[٣٦] كما عمر سوق قوص ببيع العبيد وخصص يوم لبيع الجوارى ويوم لبيع الغلمان واشترط المحتسب على من يذهب الى السوق اما أن يكون بائعا أو مشتريا[٣٧] .

ومن أهم مظاهر البيع والشراء فى قوص ما يتجلى فى حركة التجار الذين يخرجون فى جماعات يحملون البذور والغلال ليصرفوها فى أسواق القرى ويذكر ابن الداية[٣٨] أن أسواق القرى راجت نتيجة لازدهار سوق المدينة ، وكان لوجود نائب المحتسب المقيم فى قوص دور كبير فى ضبط حركة البيع والشراء حيث يقف على أحوال السوق ويعاقب من يحاول الغش ، كما كان يحارب التدليس والغش فى الموازين والمكاييل[٣٩] ويعاقب من يغش بالردع والجلد والتشهير والتوبيخ والنفى والضرب الى غير ذلك من أنواع العقوبات[٤٠] ولكثرة موارد قوص وتجارتها راجت الاسعار وعم الرخاء وأقبل الناس على الشراء[٤١] .

أما نظام البيع فى سوق قوص فبجانب التعامل بالدينار والدرهم وجد نظام المقايضة فالأهالى كانوا يشترون حوائجهم ببيض الدجاج ونخل الدقيق[٤٢] كما جرت العادة أن يتم تبادل الغلات فى سوقها

---

(٣٦) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٠٠ .

(٣٧) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ، ص ٦١ ، القسم الخاص بمصر ، تحقيق زكى محمد حسن ، ط ١ ، جامعة القاهرة ١٩٥٣ .

(٣٨) المكافأة ، ص ٥١ ، ٥٢ .

(٣٩) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٤ .

(٤٠) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٢٨٦ .

(٤١) نفس المصدر ، ص ١٢٠ .

(٤٢) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٩٧ .

فمثلا أردب القمح بأردبين شعير[٤٣] فضلا عن التعامل بكسور الدينار فورد فى بردية من القرن الثالث الهجرى $\frac{1}{4}$ دينار ، $\frac{1}{4}$ قيراط ، $\frac{1}{6}$ دينار وغيره[٤٤] ويتم ذلك بين الأهالى والبائعين .

على أن الدينار كان وحدة التعامل فى السوق بين التجار وخلال القرن الثالث الهجرى صك أحمد بن طولون نقودا ذهبية سميت بالأحمدية وكان دينارا جيدا[٤٥] وأواخر القرن الرابع الهجرى لما جاء الفاطميون صكوا دنانيرا أطلقت عليها (المعزية) نسبة الى المعز لدين الله الفاطمى[٤٦] وكان كل دينار بثلاثة عشر درهما وثلث[٤٧] أما الدرهم فأستمر التعامل به بجانب الدنانير الذهبية .

فضلا عن ذلك فكان التعامل فى أسواق قوص يتم بالمكيال فى شراء وبيع الغلال وكانت وحدة الكيل الأردب والقدح والويبة والمد والصاع وأورد القلقشندى[٤٨] قيمة كل من هذه المكاييل فذكر أن القدح يزن مائتان واثنان وثلاثين درهما من البر ، والويبة تساوى ستة عشر قدحا ، والأردب يساوى ست وتسعون قدحا ، واستخدم التجار فى قوص القنطار والرطل والأوقية والدرهم بالنسبة للاوزان فذكر ابن مماتى[٤٩] ان الرطل يساوى مائة وأربع وأربعين درهما واثنتى عشرة أوقية والقنطار مائة رطل ، والمن يساوى مائة وست وستون رطلا ، كما استخدم القسط أيضا الذى استخدم فى بيع

---

(٤٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٥٩ .

(٤٤) جروهمان : اوراق البردى ، جـ ٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ ، ٤٥ ، جـ ٦ ، ص ٥٦ ، ٨٥ .

(٤٥) المقريزى : شذور العقود فى اخبار النقود ، ص ١٢ .

(٤٦) نفس المصدر ، ص ٣٤ .

(٤٧) نفس المصدر ، ص ٣٤ .

(٤٨) صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٤٥ .

(٤٩) قوانين الدواوين ، ص ٣٦١ .

العسل وورد فى أوراق البردى العربية التى كتبت فى القرن الثالث الهجرى فى اقليم قوص ذكر القسط فى رسالة وجهها أحد التجار المقيم بالفسطاط لأحد التجار المقيمين فى قوص يطلب منه اخراج قسط واحد من العسل الذى لديه[٥٠] ، كما ورد أجزاء القسط فى أمر من التاجر لوكيله فى قوص فى القرن الثالث الهجرى أيضا يطلب منه ارسال خل وقسط الخل أجزاؤه نصف قسط ، ثلث قسط ، ربع قسط الذى يساوى ٣٤٤ر٠ من اللتر ، فضلا عن ورود هذه الأجزاء فى أوراق البردى أيضا[٥١] .

ولكل سلعة رطل معين يختلف عن رطل السلعة الأخرى ، لذلك حرص نائب المحتسب على أن يتواجد فى السوق أوزان مختلفة تتناسب مع كل سلعة يتعامل فيها الناس[٥٢] واختصت قوص بموازينها وهى تختلف عن موازين المدن الاخرى كالفسطاط فيذكر ابن الاخوة[٥٣] ان كل اقليم له أرطال تتفاضل فى النقصان والزيادة ، ولم يوافق بلد رطلا البلد الاخرى الا نادرا ، وجرت العادة فى أسواق قوص أن يوزن السكر والقصب والسمسم والجبن والثوم والبصل بالجروى[٥٤] والعنب بالرطل الليثى[٥٥] . وساعد على استقرار حركة البيع والشراء اطمئنان التجار على موازين ومكاييل تجار قوص فكانت دار الصك التى بقوص يرتبط بها دار أخرى هى دار العيار يرتبط ذكرها باصلاح الموازين والمكاييل[٥٦] . وهذه الدار كانت موجودة قبل مجيىء الفاطميين الى مصر ، فلما جاء الفاطميون استغلوا هذه الدار وضربوا فيها

---

(٥٠) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٥ ، ص ١٤٧ .

(٥١) نفس المصدر ، ص ١٣٥ .

(٥٢) ابن الاخوة : معالم القربة ، ص ٥٤ .

(٥٣) معالم القربة ، ص ٥٥ .

(٥٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٦١ .

(٥٥) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ١٥٢ .

(٥٦) المقرزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٩٠ .

صكهم(٥٧) وكان نائب المحتسب المقيم بقوص يرسل نوابا عنه لمراقبة المكاييل والموازين(٥٨) .

وفى السوق الاسبوعى يرد الى سوق قوص من القرى والمدن المجاورة من يشترى أو يبيع ما فاض من غلاته أو غيرها ويشترى حاجاته اليومية كالسكر وبعض المنتجات الصناعية والغذائية ، وحاجته من الدواب ، ويرد الى قوص الارز الذى كان يزرع بكثرة فى الفيوم فهو أكثر غلاتها لأنه يعتمد على وفرة الماء الذى يتوافر فى الفيوم(٥٩) ، فأرضها منخفضة عن أرض مصر بمقدار ثلاثة أذرع فتغمرها المياه طويلا مما يساعد على زراعة الارز فماء الفيوم يروى أرضها طول العام(٦٠) كما كان يرد الى أسواق قوص منتجات الاقليم من أنواع الفواكه كالتفاح والرمان والكمثرى والبطيخ وغيره وامتازت فواكه الأقليم بأنها حسنة المنظر شديدة الحلاوة(٦١) .

واختصت أسواق قوص ببيع الاخشاب لكثرة أشجار الغابات باقليم قوص حيث كانت تقطع وتحمل الى السوق لشرائها وعمل الأبواب والأثاث منها ، ويحمل الباقى فى مراكب فى النيل الى الفسطاط ليباع هناك ، واهتم التجار بشحن الاخشاب من قوص الى الفسطاط ، فكان التاجر يكلف وكيله المقيم فى اقليم قوص بشراء الاخشاب وشحنها اليه وحوت أوراق البردى العربية الكثير من قوائم بأسماء التجار ووكلائهم الذين يأتون بالاخشاب من اقليم قوص الى الفسطاط فى القرن الثالث والرابع الهجريين(٦٢) ومن أهم أنواع

---

(٥٧) Miles (Gorge) : Fatimid Coins, p. 51.

(٥٨) نفس المصدر ، ص ٤٦٤ ، جـ ٢ ، ص ٢٨٦ .

(٥٩) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٤٤ .

(٦٠) نفس المصدر ، ص ١٤٧ .

(٦١) الادفوى : الطالع السعيد ، ص ١٠١ .

(٦٢) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ٥٨ ، ١٩٩٢ .

الأخشاب التى كانت تشحن الى الفسطاط أخشاب أشجار الجميز واللبخ والسنط ففى بردية من القرن الرابع الهجرى يقول التاجر « وصل بقية الخشب الذى بالاقصر »(٦٣) .

وحوت أوراق البردى العديد من أنواع الغلال التى تباع فى أسواق قوص فمن قوائم الحسابات التى كان يرسلها وكلاء ملاك الضياع التى يقيم أصحابها بالفسطاط ووكلائهم باقليم قوص نجد فى بردية من القرن الثالث الهجرى يقول أحد الوكلاء لسيده « بعث لك الشعير » فضلا عن ورود غلة العدس والعدس المقشر الذى بيع فى أسواق قوص . كما وجدت الفوة التى باعها الوكيـل أيضا فى السوق وهى وثائق من القرن الثالث الهجرى(٦٤) .

واشتهرت قوص بتجارة الغلال والدواب وخاصة الحمير التى اشتهر منها نوع يسمى الحمير المريسية(٦٥) ولكثرة الوارد اليها من أنواع السلع المختلفة ذكرها الادريسى(٦٦) بقوله : ان قوص بهـا تجارات ودخل وخرج والمسافر اليها كثير والمبيعات بها نافعـة والمكاسب رابحة ، واهتم أهل قوص بتربية الكلاب للحراسة سواء للمنتجات الزراعية أو السلع التجـارية أو الدور والمنـازل فيذكر المقريزى(٦٧) ان كلابهم أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان ، أما الحمير فأقوياء .

ومما يباع فى سوق قوص اللحوم من الغنم والبقر وكان يقبل عليها السكان من القرى المجاورة كما كثر شراؤه من جانب العمال

---

(٦٣) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٥٨ .

(٦٤) نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٨ .

(٦٥) نسبة الى قرية من القرى التابعة لقوص اشتهرت بهـذا النوع من الحمير وتمتاز بسرعة مشيها .

(٦٦) نزهة المشتاق فى اختراق الافاق ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٦٧) الخطط ، ج ١ ، ص ٤٥ .

الزراعيين وورد فى بردية من القرن الثالث الهجرى أن أحد وكلاء الضياع أرسل الى سيده بالفسطاط كشف حساب ورد به انه اشترى لحما من السوق(٦٨) لم يحدد كميته ولا سعره ولا نوعه .

واختصت أسواق قوص ببيع الجوارى ففى خطاب ورد فى بردية من القرن الثالث الهجرى يقول كاتبه لسيده المقيم بالفسطاط والخطاب مرسل من ادفو (جنوب قوص واحدى مدن اقليمها) حيث أرسل اليه سيدة لشراء جارية من أسواق قوص وأرسل الوكيل اليه بشراء الجارية وهى من الرقيق النوبى ودفع للمنادى نصف دينار أجرة على ذلك(٦٩) ، مما يشير الى وجود حرفة المنادى بسوق قوص ، وكانت مهمته النداء على الجارية يصفها للمشترى ويساعده فى الحصول على نوع الجارية التى يطلبها ، وتشير البردية الى أن الوكيل أرسل اليه الجارية الى الفسطاط(٧٠) .

تنوعت المتاجر والتجارات فى مدينة قوص وعمرت دكاكين التجار بأنواع السلع المختلفة وبالنظر الى ما ورد فى أوراق البردى العربية من قوائم السلع التى وجدت فى أحد المحلات بسوق قوص من القرن الثالث الهجرى ومنها قائمة لتاجر أقمشة بدكانه ثياب مختلفة وأقمشة متنوعة يتبين لنا مدى اتساع النشاط التجارى بقوص ، ووردت قائمة بالأشياء التى باعها أحد التجار الأشخاص وردت أسماءوهم بكشف حساب وسعر كل قطعة باعها وهذه القائمة كتبها هذا التاجر وأرسلها الى آخر ليراجع ما بها من حسابات ، وتشير هذه الأشياء الى أن ما بها من أنواع مستوردة من خارج مصر وأكثرها جاء من العراق ومما تضمنته القائمة أشياء منها ما صنع فى قوص وأخرى فى أنحاء مصر وبعضها صنع فى مدن العراق والمشرق وأهمها :

---

(٦٨) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ٥٥ .
(٦٩) نفس المصدر ، ص ٣٥ .
(٧٠) نفس المصدر والصفحة .

عقال طبرى[٧١] ، ومفرش بطرى طبرستان[٧٢] ، وتيجـان ، وحزام طبرى ، ومفرش جلول[٧٣] ، وبساط طبرى ، وتيجـان ديباج ، عمامة خز كحلا ، وعمامة حمرى ، وعمامة دكتـا[٧٤] ووجد أيضا بدكان هذا التاجر خف خز نيسابورى ، خف خز داكن ، خف خز أحمر ، وخف ملحب ، وزوجى خفاف[٧٥] ، وحوى كشف الحساب على « دراعه خز دكتا ، وحية خز داكنا ، وحية خز خضرا ، ودراعة خز خضرا ودراعة خز جدلا ، وجبة تسترية ، وجبة صوف[٧٦] بجانب بعض الثياب والأقمشة الأخرى المتنوعة مثل كساء خز أحمر ، وخرقة خز خضرا وخرقة ، وسراويل وتكه ، ورداء بغدادى ، ورداء مزين

---

(٧١) نسبة الى اقليم طبرستان وهو مشهور بالأنسجة الممتازة المصنوعة هناك كالثيات الابريسم والاكسية الصوفية والطيالس والملابس المصنوعة مما يسمى بالحيش وهو نوع قماش القطن الرفيع . انظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ .

(٧٢) وهو من النوع المذهب الفائق . القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٩ ، وهى من الانواع المستوردة .

(٧٣) جلول المقصود بها ممتاز بمعنى جل اى عظم .

(٧٤) يلاحظ تنوع انواع العمائم التى تلبس على الراس وهى لباس مشهور عند اهل قوص وهى تشير الى لونها والعمامة الخز فهى من النسيج الحرير المصنوع من سداة جريرية ولحمة صوفية ، وهو نسيج مخملى ثقيل مثل القطيفة ، ومصنوع من خيوط حريرية ويستعمل فى وقت البرد للتدفئة وهذا النوع من النسيج يصنع خاصة فى بلدة السـوس باقليم فارس بالمشرق الذى كان معروفا بالثياب السوسية من الخز . انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ ، ط القاهرة ١٣١٦ هـ .

(٧٥) والخف هو لباس القدم وورد هنا بالالوان المختلفة .

(٧٦) وبالنسبة الدراعة فذات الوان وهى من الحرير والجبة ذات الوان أيضا من الحرير واخرى من الصو فتستخدم فى وقت البرد والجبة التسترية نسبة الى تستر احدى مدن اقليم فارس اشتهرت بصـنع هذا النوع . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٤٩ .

مثلث وسراويل بطرى[٧٧] فضلا على أن القائمة تضمنت أنواع المناديل مثل منـــديل تنيس[٧٨] وحصر للصلاة[٧٩] ، وصـــندوقين ، كرسى جـــديد[٨٠] .

ويلاحظ أن بعض هذه الثياب كان يصنع فى قوص وورد فى قائمة حساب لأحد الحرفيين الذين يعملون فى محلات الحياكة فى قوص كشف حساب كتبه هذا الحرفى لصاحب الدكان يوضح فيه ماذا قام به من عمل الحياكة وشراء بعض الأقمشة التى استخدموها فى صنع هذه الثياب ويفصل حساب كل قطعة وينتهى الأمر به بأن يقول له وهذا هو الحساب الخاص بخالد ونصيبه الثلث وصاحب المحل أبو محمد بن مروان ومما جاء فى هذا الكشف الذى يرجع الى القرن الثالث الهجرى « بطانة صفرا ، فرد بطانة حمرا ، جبة خز

---

(٧٧) وهذه انواع من الثياب تتميز بألوانها المختلفة المتعددة وجودة صناعتها بعضها مستورد من بغداد والآخر من طبرستان ، فالثيـــاب البغدادية مشهورة فى مصر ، وانتشرت فى صعيد مصر لاهتمامهم بلبس هذه الانواع وساعد على ذلك أن مصر خلال عهد الولاة العباسيين كانت تجارتها مع بغداد تزداد نشاطا مما يسر لتجار قوص الحصول على هذه السلع رخيصة الثمن ويتبين ذلك من أسعارها التى وردت فى كشـــف هذا الحساب ، وورد اسماء الذين اشتروها ومنهم عملاء من اسوان مثل على ابى القسم الاسوانى ، وعلى حى الاسوانى وغيرهم .

(٧٨) ووردت انواع المناديل مثل منديل شرابى ممدد ، ومنـــديل بهنسى طويل ، ومنديل للراس ومنديل شطوى ومنديل دبيقى وكلها تشير على صناعتها فى مصر وهى مناديل للوجه وللرأس وهو من الكتان .

(٧٩) أما الحصر فهى من الانتاج الملحى حيث اشتهرت بصناعتها مدن اقليم قوص وقراها ومنها الحصر العبادانى وتصنع بعض من الحصر من سيقان نبات البردى الذى كان ينمو فى وادى النطـــرون ، وهى حرفة مشهورة فى صعيد مصر ، وكميات كبيرة من الحصر كانت تصنع فى الفيوم وفى دمياط حيث تصنع من سيقان البردى ، أما المصنوع فى قوص فهو من النوع الذى يسمى الحصر العبادانى .

(٨٠) جروهمان : اوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ٩٢ : ١٠١ .

حمرى صفار ، قيص وسراويل معصفر ، جبة عنابية وبطانتها صفرا » وكلها ثياب تصنع من مواد خام موجودة وتنتج فى مصر عامة واقليم قوص خاصة كالكتان والقطن والحرير المخلوط ومنها القمصان التى يصنع بعضها من القطن وورد سعره بستة عشر درهما[٨١] .

ومن وظائف السوق أيضا والتى كانت موجودة فى قوص الدلالون والسماسرة . وكان الدلالون يقولون الدلالة للحنطة والدواب ويخضعون لرقابة نائب المحتسب حتى لا يزيد فى السعر أو ينقص فى الكيل[٨٢] وكان للسماسرة دكاكين يخزنون فيها الغلال انتظارا لبيعها ، وكان وكلاء التجار بقوص ووكلاء أصحاب الاقطاعات يرسلون الغلال الى دكان السمسار ليتولى بيعه ، ويأخذ أجره نظير ذلك ففى بردية من القرن الرابع الهجرى يقول أحد الوكلاء لسيده « والقمح شلناه الى دكان السمسار وأرجو ان سهل الله بيعه أروح عندك بالخير »[٨٣] .

ويذكر المقريزى[٨٤] أن الدلالين كانوا يتولون الدلالة فى أسواق الغنم والدواب التى عمرت بها أسواق قوص ، وورد أسماء السمسار والدلال والمنادى فى أوراق البردى العربية التى خرجت من اقليم قوص مما يدل على انتشار هذه الحرف بأسواق المدينة .

والحقيقة أن قوص كانت تمد الفسطاط بكثير من السلع والمنتجات الزراعية والصناعية التى كثرت فى أسواق قوص ، ففضلا عن الغلال كانت قوص تمد الفسطاط بأنواع من السروج التى تستخدم للحمير التى تؤجر للركوب وسروج الخيل التى اهتم بركوبها الملاك والاقطاعيون ، فكانت هذه السروج تصنع فى نواحى قوص

---

(٨١) جروهمان : اوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ٧٩ .
(٨٢) ابن الاخوة : معالم القرية ، ص ٥٥ .
(٨٣) جروهمان : اوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ٤٢ .
(٨٤) الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٤ .

واخميم وأشار ناصر خسرو الى وجود الحمير المسرجة بالفسطاط والقاهرة والتى تكون جاهزة لكرائها وشاهد ذلك عند زيارته للقاهرة فى العصر الفاطمى[٨٥] .

وفى بردية القرن الثالث الهجرى يقول الوكيل لسيده المقيم بالفسطاط والذى طلب منه أن يشترى له سرج ويرسله اليه يفيد الخطاب الذى أرسله الوكيل انه اشترى السرج وأرسله اليه[٨٦] وفى بردية أخرى من القرن الثالث الهجرى أيضا طلب ارسال جبن من قوص وحددت البردية كميتها برطلين وفى بردية أخرى من القرن الثالث أيضا أمر لارسال جبن الى الفسطاط من قوص ويقول صاحبها ادفع الى غلام الدار ٦ أرطال جبن منها رطلين جزائرى[٨٧] ليحضرها الى الفسطاط .

اعتمدت أسواق قوص على العديد من الطرق الموصلة بين المدن المجاورة والقرى والكفور المتناثرة فى أنحاء الاقليم مما ترتب عليه ازدياد النشاط التجارى لقوص ومن أهم هذه الطرق نهر النيل الذى تسير فيه السفن والمراكب والقوارب شمالا وجنوبا تحط على ساحل قوص ، بجانب الطرق البرية وهى فى الغالب على شواطىء النيل فهناك جسر ممتد من الفسطاط الى أسوان يسير عليه الناس هذا فضلا عن الطرق الفرعية كالجسور الصغيرة الموصلة بين القرى والكفور ومدينة قوص والمدن المجاورة واعتمدوا على التنقل على الحمير والبغال والخيول التى اشتهرت بها قرى الاقليم ويقول المقريزى[٨٨] ان الحمير عندهم قوية ، فضلا عن استخدام الابل التى يحمل عليها الفلاح والتاجر سلعه وأدواته .

---

(٨٥) ناصر خسرو : سفرنامة ترجمة يحيى الخشاب ، ص ٥١ .

(٨٦) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٥ ، ص ٥٦ .

(٨٧) نفس المصدر ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

(٨٨) الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٥ .

قوص كمركز لتجـــارة مصر الخارجية :

كان لموقع مدينة قوص الهام وارتباطها بطرق برية ونهرية هامة أن أصبحت من أهم مراكز مصر للتجارة الخارجية ، فقد أمدت قوص الفسطاط والاسكندرية بكثير من السلع وتأتيها من أســوان وبلاد النوبة سلع الجنوب ، وارتبطت قوص بتجارة البحر الأحمر حيث ترد اليها التجارة الواصلة الى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ومنها تجارة بلاد الحبشة وجدة بجانب تجارات الهند والصين وجنوب شرق آسيا ، وكان لهذا النشاط التجارى أثره على انتعاش مركز قوص التجارى وتجارة مصر الخارجية ، ولذلك بلغت قوص شهرة فائقة كمركز لتجارة مصر الخارجية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين .

كما أن الحجاج القادمون من الفسطاط يريدون أداء فريضة الحج ينزلون قوص أولا ، ثم يعبرون الصحراء الى عيذاب ميناء البحـــر الأحمر ، ثم يركبون المراكب الى جدة ، وكذلك فى طريق العودة ، ويشترك التجار فى قوافل الحج وأرباب الحرف والعلماء وورد فى وثائق الجنيزة أسماء كثير من الحجاج ، ومما جاء فى احدى الوثائق أن كاتبها يطالب من المرسل اليه أن يمده ببعض المتاجر مع شخص اسمه الحاج على الصقلى أو غيره من الناس(٨٩) .

فقوص ملتقى القوافل ، وهى محطة تجارية اتصلت بميناء عيذاب

---

(٨٩) حسنين محمد ربيع : وثائق الجنيزة وأهميتها ، ص ١٣٤ ووثائق الجنيزة اطلقت على مجموعة الوثائق التى عثر عليها فى حجرة مظلمة فى معبد اليهود بالفسطاط وما عثر عليه فى مقبرة البساتين وهى الحجرة التى كان اليوهد يخزنون فيها اوراقهم الخاصة من عقـــود وخطابات وايصالات وخلافه حتى لا تدنس كلمة (الله) التى قد تكون مكتوبة فى هذه الوثائق ، ولا يوجد اختلاف فى وثائق الجنيزة بين وثيقة تجارية او رسالة شخصية ، فهى تلقى الضوء على الاحوال الاقتصادية والاجتماعية فى بلاد العالم الاسلامى لأن حركة انتقال الناس بين هــذه البلاد كانت نشطة فى العصور الوسطى . انظر : حسنين محمد ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ١٣١ — ١٣٣ .

اتصالا وثيقا ومنه اتصلت بالتجار الهنود والصينيين والحبشيين واليمنيين وغيرهم ، وبحجاج المغرب الذين اعتادوا الذهاب الى مكة من صحراء قوص حيث يركبون من الفسطاط الى قوص ثم يركبون الابل من قوص الى عيذاب[٩٠] فضلا عن الطريق الى أسوان وبلاد النوبة عن طريق النيل والجسور الممتدة عليه ، وهذا الطريق يبدأ من قلعة الجبل الى قوص الى بلاد النوبة مارا بأسوان[٩١] ، وطريق من قوص الى سواكن مارا بحميثرة[٩٢] فى الصحراء الشرقية بين قوص والبحر الاحمر وفيه طريقان يمتدان من عيذاب وقوص احدهما يعرف بطريق العيدين وهى أقصر مسافة وهو الطريق الذى سلكه ابن جبير فى طريق عودته من الحج ، والطريق الآخر الى قنا[٩٣] .

ارتبطت قوص تجاريا مع أسوان والنوبة وعيذاب والفسطاط يقول ابن جبير[٩٤] ان الصادر والوارد على قوص من الحجاج اليمنيين والهنود وتجار الحبشة كثير ، ويلتقى حجاج المغاربة والمصريين فى قوص ومنها يفوزون بصحراء عيذاب ، وبذلك كان الحجاج يحملون معهم سلعا تجارية من أهمها القمح ، والمنسوجات المصرية[٩٥] كما قام اليمنيون بنقل سلع الهند والصين الى عيذاب التى تنقلها القوافل الى قوص ، وتعود هذه السفن محملة بسلع المنتجات المصرية الى سواحل اليمن من الغلات والمنسوجات ومن أشهرها الارز والصوف والتمور والخل والزيت[٩٦] ويذكر المقدسى[٩٧] انه يرتفع من الصعيد عن

---

(٩٠) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ .

(٩١) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ١٤ ، ص ٣٧٣ .

(٩٢) حميثرة : وسط الصحراء الشرقية بين مدينة ادفو وساحل البحر الاحمر وبها قبر أبى الحسن الشاذلى .

(٩٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٣١ .

(٩٤) نفس المصدر والصفحة .

(٩٥) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ١٩٠ .

(٩٦) نفس المصدر ، ص ١٧٢ .

(٩٧) نفس المصدر ، ص ١٧٠ ، ١٧٢ .

طريق قوص ادريم جيد (الجلد المدبوغ المنجد) ويمتاز بأنه صبور على الماء لين ويرتفع منها أيضا البطائن (جمع بطانة والبطانة من الثوب) الحمر والهملمنتات (الحذاء الطويل الرقبة) ويعدد المقدسى أهم السلع التى ترتفع من قوص ويمتدحها بقوله ، ولا نظير لزاجهم (الزاج الملح أو الشب) ورخامهم وبزهم وكتانهم وجلودهم ولا نظير لغزلهم .

وتستقبل قوص السلع القادمة من الهند والصين عن طريق عيذاب ومن أهمها الفلفل والبهار والحرير والحديد الهندى ، كما كان يحمل من الهند النارجيل (الجوز الهندى) بجانب الكافور والعنبر والقرنفل والصندل والدارصينى (القرفة)[٩٨] كما كان يرد الى قوص من جزر الهند والملايو ، المسك والفافل[٩٩] بجانب ما كانت تحمله سفن الهند والصين من الأوانى الخزفية والنسيج الحرير والديباج والشاى[١٠٠] وفى أثناء عودة السفن تعود محملة بالعاج والكافور والياقوت[١٠١] .

أما تجارة النوبة فتأتى الى أسوان أولا ثم تأتى الى قوص بالمراكب فى النيل أو برا على الجمال ومن السلع الآتية من النوبة الرقيق الذى كان له سوق فى قوص وتشير أوراق البردى العربية الى تجارة الرقيق فى قوص وانها تمد به الفسطاط[١٠٢] ويحضر تجار النوبة معهم سلع الحبشة بجانب ما كان أتى الى عيذاب من سلع

---

(٩٨) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ١٣٧ .

(٩٩) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٣٢٧ .

(١٠٠) جوستاف لوبون : حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ، ص ٥٥٥ .

(١٠١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، ص ١٤٧ .

(١٠٢) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ٣٥ .

الجبشة أيضا بالسفن وتأتى محملة بالجلود والخشب النفيس والعاج ويأخذون معهم المنتجات المصرية[١٠٣] .

كما كانت السفن الآتية من عمان محملة باللبان ترســـو فى عيذاب[١٠٤] وتشير أوراق البردى الى طلب اللبان من قوص فى رسائل يرسلها أحد التجار من الفسطاط لوكلائهم بقوص[١٠٥] فى القرن الثالث الهجرى وكانت السفن المحملة بخشب الساج تأتى من جزر الملايو الذى يســتخدم فى صــنع الابــواب وخاصــة أبواب المســاجد والمحاريب[١٠٦] .

ولمــا كانت قوص مرتبطة بميناء عيذاب لذلك فالطريق بين قوص وعيذاب هو من أهم الطرق التجارية اهتمت به ولاة قوص وحكام مصر . وكانت المسافة بين قوص وعيذاب نحو ثلاث مراحل عبر صحراء قوص ويسكن هذه الصحراء البجة وتنتهى مضاربهم الى أول الحبشة ، ولذلك فهو طريق التجارة والحجاج ، فاذا كان هذا الطريق آمنا والسبل يسيرة نشطت تجارة قوص ، وأمن التجار على متاجرهم وسلعهم ، واذا انعدم الامن قلت التجارة على هذا الطريق ، من هنــا كان اهتمام ولاة قوص وحكام مصر خلال عصر الولاة العباسيين وخلال حكم الطولونيين لمصر والاخشيديين وخلفاء الفاطميين الأوائل بهذا الطريق وضمان أمنه .

وتشير أوراق الجنيزة على مخاطر هذا الطريق فيشير أحد التجار فى رسالة كتبها من عيذاب الى عدم الامن فى الطريق بين قوص وعيذاب ، ويذكر انه قاسى الكثير من النهب والسلب ، وجاء فى قوله « فما بقى لى الا السفر فسافرت الى عيذاب فزعان خائف من نحس

---

(١٠٣) ناصر خسروا : سفرنامة ، ص ٧٢ .
(١٠٤) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ١٩ .
(١٠٥) جروهمان : أوراق البردى العربة ، جـ ٥ ، ص ٧٥ .
(١٠٦) آدم متز : الحضارة الاسلامة ، جـ ٢ ، ص ٣٢٧ .

الطـــريق ويقول وهب الله السلامة وأنا معول على الدخـــول الى الهنـــد »[١٠٧] .

لذلك اتصلت البجة بقوص بعلاقات تجارية ، فكانوا ينزلون قوص ونواحيها للتجارة ، فصحراؤهم لا نبات فيها ولا يؤكل فيها الا مجلوب ،وكثيرا ما كانوا يقومون بالنهب والسرقة والتعـــرض للحجاج والتجارة المارة بصحرائهم ، ولما ازداد خطرهم فى أوائل القرن الثالث الهجرى شكى والى قوص الى والى الفسطاط الذى شكى الى الخليفة المأمون بأمرهم فوجه اليهم المأمون عبد الله بن الجهم على رأس محلة عسكرية لتأديبهم ، وانتهى الامر بأن صالحهم ابن الجهم وكتب بينه وبين رئيس البجة الذى يسمى كنون بن عبد العزيز عهدا فى شهر ربيع الأول ٢١٦ هـ ومن أهم ما جاء فيه :

أن يكون البجة تابعين لولاة المأمون ، وأن يكون كنون ملكا عليهم على أن يؤدى الخراج فى كل عام على ما كان عليه البجة من قبـــل المحافظة على الاسلام والمسلمين المقيمين بصحراء البجة وأن يحافظوا على المسلمين الذين يجتازوا هذه الصحراء سواء للحج أو التجارة . ولا يتعرضون لهم بسوء ، كما لا يمنعون أحدا من المسلمين اجتياز بلادهم برا أو بحرا للتجارة ، وعليهم أن يؤمنوا كل مسلم تاجرا أو حاجا مقيما أو مجتازا حتى يخرج من بلادهم ، واشترط عليهم أن لا يوءوا أحدا من آبقى المسلمين ، واشترط على البجة انهم اذا نزلوا ريف صعيد مصر التجارة أو مجتازين فلا يظهرون سلاحا ولا يدخلون المدن والقرى بحال ، كما لا يمنعون أحدا من المسلمين الدخول الى بلادهم ، وحرص والى المأمون أن يوضح لهم أن لا يتعرضوا لأهل الذمة التجار الذين يدخلون ديارهم من اليهود والمسيحيين ويختم الكتاب قوله ان على كنون أن يفى بما جاء فى هذا الكتاب[١٠٨] .

---

(١٠٧) حسنين محمد ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(١٠٨) انظر المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

ويتضح أن هذا الكتاب اشترط أمانا للتجار الذميين من اليهود والمسيحيين لما كان لهم من نشاط تجارى واسع فى تجارة قوص الخارجية ، فقد عاش اليهود فى قوص ومارسوا أعمال المال والتجارة وذكرت بعض المراجع أن عدد اليهود بقوص كان ثلثمائة ، ومن خلال وثائق الجنيزة التى خرجت من قوص أن الجماعة اليهودية التى كانت فى قوص كبيرة . فقد كانت قوص مستودعا لتجارة المحيط الهندى(١٠٩) .

وهذه الجالية اليهودية تركز نشاطها فى التجارة فى ظل الاستقرار والأمن ، كما عمل كثير منهم بالشئون المالية وتركز فى النشاط المصرفى . كما وجد كثير من المسيحيين فى قوص فيذكر أبو صالح الأرمنى(١١٠) أن للمسيحيين كنائس وبيع وأديرة فى قوص وأن أول بيعه انشئت فى صعيد مصر كانت فى قوص ، كما بنيت أول كنيسة بالمحرقة من اهمال الاشمونيين وهى كنيسة السيدة العذراء ، ويذكر أن السيد المسيح عليه السلام زار بيعة قوص ، ويصفها بأنها لطيفة جدا ، ويذكر أن كثيرا من المسيحيين يحجون الى هذه البيعة ، وغربى هذه البيعة قبة نقرت فى الجبل كانت السيدة العذراء تأوى اليها فصارت يحج اليها المسيحيون أيضا ويتباركون بهذه القبة ، ويضيف قوله انه وجد بقوص دير على اسم الملاك ميخائيل بمدينة قوص ، ودير أبو شنودة أيضا وعدد أبو صالح الأديرة فى قوص ونواحيها فكانت أربعة غربى قوص(١١١) مما يدل على وجود عدد كثير من المسيحيين بقوص ، واستمرت كنيسة مريم الى وقت المقريزى الذى ذكر انه كان بقوص أديرة وكنائس عدة خربت وبقيت كنيسة مريم(١١٢) .

على أن البجة لم يلتزموا بكتاب السلام بينهم وبين قائد

---

(١٠٩) قاسم عبده قاسم : اليهود فى مصر ، ص ١٥ ، ١٦ .
(١١٠) تاريخ الشيخ ابى صالح ، ص ٩٩ .
(١١١) تاريخ الشيخ ابى صالح ، ص ٩٩ .
(١١٢) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٥١٨ .

المأمون ، فما لبثوا أن عاودوا هجومهم على المسلمين فى ٢٥٥ هـ ، ٨٦٨ م مستغلين يوم عيدهم مما جعل القائد العربى أبو عبد الرحمن العمرى يقوم بتجهيز حملة لتأديبهم نجحت فى وضع حد لهجمات البجة على القرى الشرقية التابعة لقوص وأستطاع هذا القائد فرض الجزية على البجة(١١٣) لكنهم عاودوا التعرض للتجار والحجاج ، ولم يكتفوا بذلك بل غزوا الريف التابع لقوص وهاجموا السكان فى عصر الخليفة المتوكل (٢٣٢ هـ : ٢٤٧ هـ) كما أغاروا على أسوان واسنا وامتنعوا عن أداء الجزية ، فشكا الوالى الى الخليفة المتوكل على الله العباسى فندب لحربهم محمد بن عبد الله الغمى الذى خرج من مصر بحرا واجتمع البجة فى عدد كبير ، وقد ركبوا الابل واستطاع القائد العربى بحيلته وسياسته أن يشغلهم بكتاب ألقاه فى مياه البحر فأجتمعوا لقراءته فحمل عليهم وفى أعناق الخيل الاجراس فنفرت البهم وقتل المسلمون منهم عددا كثيرا ، وطالبوا بالهدنة ، وانتهى الأمر بأن صالحهم القائد العربى على أن يطأ رئيسهم بساط المتوكل بالعراق وذهب الى سامراء فى ٢٤١ وتم الصلح على أداء القبط واشترط عليهم أن لا يمنعوا المسلمين من العمل فى المعدن وبذلك قل شر البجة وأمن التجار على تجارتهم(١١٤) .

بدأت تنتعش تجارة قوص بعد أن ساد الأمن طريق الصحراء ، فكانت تأتى اليها تجارة الهند واليمن والحبشة ، ويذكر المقريزى(١١٥) أن مظاهر الأمن أصبحت فى تلك الصحراء لدرجة أن أحمال البهـــار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك توجد ملقاة بها ، والقوافل صاعدة وهابطة لا يعترض لها أحد الى أن يأخذها صاحبها ، واستمرت مسلكا للحجاج

---

(١١٣) المقريزى : البيان والاعراب عما حل بأرض مصر من الاعراب ص ٣٨ ، البلوى : سيرة احمد بن طولون ، ص ٦٥ .

(١١٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٩٦ .

(١١٥) الخطط : جـ ١ ، ص ٢٠٢ .

والتجار فى ذهابهم وايابهم ، ويذكرنا ناصر خسرو[١١٦] ان الابـل تقطع المسافة من عيذاب الى قوص عبر الصحراء فى خمسة عشر يوما .

أصبحت عيذاب مكانا لتحصيل المكوس على التجار القادمين لما يحملونه من تجارة من الحبشة وزنجبار واليمن وبلاد الهند فيذكر القلقشندى[١١٧] ان المكس على البضائع التى ترد من البحر الأحمر تؤخذ فى موانىء عيذاب والقصير ، ووصف المقريزى[١١٨] جامـع الضرائب فيقول ان جامع الضرائب يقيم على الساحل جالسا قبالة المراكب التى يفتشها أعوانه لاحصاء ما بها وتقدير قيمة المكس المقرر عرفها المقريزى[١١٩] بأنها دراهم تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق وكان تحصيلها فى عيذاب قبل دخول السلعة أرض مصر ، وكان التجار القادمون من الهند والصين يدفعون العشر[١٢٠] على ما معهم من تجـارات .

كما ازدهرت التجارة بين قوص والنوبة ، فكان أهل النوبة من التجار يأتون الى مصر لبيع ما معهم من سلع بلادهم ، ويأخذون ما يحتاجونه من سلع مصر فينزلون أسوان ثم يسيرون الى قوص لتصريف سلعهم ثم يتجهون شمالا الى الفسطاط[١٢١] وفى طريقهم يشترون من قوص المنسوجات الصوفية التى اشتهرت بها[١٢٢] .

ونظرا لكثرة القادمين من التجـار والحجاج الى قـوص من

---

(١١٦) سفرنامة ، ص ٧٣ .

(١١٧) صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(١١٨) أحسن التقاسيم ، ص ١٨١ .

(١١٩) الخطط ، جـ ١ ، ص ١٧٣ .

(١٢٠) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ٣ ، ص ٣٠٨ ، ط النجف ، ١٣٥٨ هـ .

(١٢١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٤ ، ص ١٠٩ .

(١٢٢) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٣٢ .

الفسطاط الذاهبين الى عيذاب عمرت قوص بتجارات متعددة وكان من أهمها تجارة الرقيق الذى يمثل بالنسبة لتجار الفسطاط أهميـــة كبيرة حيث يتخذون من أسواق قوص مصدرا لهذه التجارة ، وكانت الحبشة والنوبة تمد قوص بالرقيق الذى يتم بيع بعضه فى قوص ويصرفون الباقى فى أسواق الفسطاط والاسكندرية(١٢٣) كما كان يرد الى قوص من سلع الفسطاط الكثير فالتجار المقيمون بالفسطاط يبعثون الى وكلائهم المقيمين بقوص بتجارتهم لتصريفها فى أسواق قوص ، ففى بردية يبعث بها أحد التجار بقوص الى أحد أصدقائه بالفسطاط ليشترى له كتان وآخر يطلب خل وثالث يطلب جوز لبيعه فى أسواق قوص(١٢٤) . ويرد التاجر المقيم بالفسطاط عليه برسالة يقول له فيها « اخترت لك مائة وخمسين جوزة من عند العطار »(١٢٥) ويكثر زراعة الجوز بالفيـــوم(١٢٦) .

ووردت خطابات فى أوراق البردى العربية ترجع الى القـــرن الثالث الهجرى مرسلة من قوص الى أحد التجار المقيم بالفســـطاط يطلب فيها ارسال ثياب وعقاقير وكتب ولبان وكانوا يستخدمونه فى البخور بجانب بضائع أخرى مختلفة ، وفى رسالة أخرى مرسلة أواخر القرن الثالث الهجرى يقول فيها أحد التجار من قوص ، تشترى لى قليل من الزنبق ودكن وزيت فلسطينى ويقول له تعمل لى علبة تملأها بالزنبق(١٢٧) وحدد له الحجم المطلوب وهو قسط كبير ، ويضيف اليه قائلا « له يعرفه بسعر القطن فى قوص ويحدده بقوله : وسعر

---

(١٢٣) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ٣٥ .

(١٢٤) نفس المصدر ، ص ٤١ ، ٤٨ ، ٥١ .

(١٢٥) نفس المصدر ، ص ٥٣ .

(١٢٦) جروهمان ، ص ٥٣ .

(١٢٧) وزيت الزنبق وهو المعروف بزيت الياسمين ويصنع فى دمياط من الياسمين الابيض المعروف فى مصر .

القطن عندنا سبعة أرطال بدينار »[١٢٨] مما يدل على مدى اتســاع التجارات بين قوص والفسطاط .

واختصت قوص بتجارة الخشب الذى عمرت به مــدن وقرى الاقليم ، فالتجار المقيمون بقوص يتولون شراء الاخشاب ثم يشحنونها الى التجار المقيمين بالفسطاط لبيعه ههناك ، وورد فى بردية كثير من الخطابات التى تشير الى ارسال خشب من قوص الى الفسطاط وما جاء فى احدى البردية التى كتبت بعد ٣٣٤ هـ من ١٣ أغسطس ٩٤٥ م ، ٢٠ أغسطس ٩٤٦ م عبارة عن كشف حساب يرسله وكيل أحد التجار المقيم بقوص الى سيده المقيم بالفسطاط يقول فيه : كتابى يا أحمد بن هوى أطال الله بقاك وأدام عزك وتأييدك م نقوص عن حال سلامة وعافية ويقول له : وصل بقية الخشب الذى بالاقصر وهو ســت وعشرون قطعة قد حملتها على معدية عيسى بن تنوس سلمها له وبقى بالاقصر ست قطع يحمل منها زوج فى الجــزيرة وزوج الذى فى الرمل[١٢٩] ويقول وأصابوا الزوج الذى كان على القربوس قــد انفسد وتهرأ فلم يحمل ، ثم يضيف قائلا ... وبعد أن كتبت هذا

---

(١٢٨) جروهمان : اوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ٨٠ وكان شجر الزيتون يزرع بكثرة فى الفيوم لكن اجود انواع الزيوت كان يرد من سوريا حيث كانت مدينة نابلس مركزا لانتاج زيت الزتون ووه الذى اشير اله فى هذه البردية (زيت فلسطين) والمعروف أن تجارة الزيت كان يقوم بها المسيحيون بين الشام ومصر ايضا والذين كانوا يتولون بيعه داخل مصر المسيحيون أيضــا . انظر : جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٥ ، ص ٨٤ ، تعلق د. مهدى علام .

(١٢٩) تشير هذه العبارة الى أن التجار كانوا يربطون كل لوحين من الخشب ويغمرانها فى الماء مدة ستة ايام ليزداد متانة ، ولمــا طال وضع بعض الالواح فى الماء فسدا ولذلك لم يرسلهما ويريد بوصعهما فى الماء ليصيران قطعة واحدة .

الكتاب جاء عمر بن صالح وانتقل الخشب ، وكاتب الخطاب هـو الحسن بن نعمان البليناوى[١٣٠] .

وفى بردية من القرن الثالث الهجرى عبارة عن خطـاب خاص بشحن سفينة من ادفو يقول الوكيل لسيده المقيم بالفسطاط « قد كتب اليك كتابا ولم أر جواب ، فقد توجه الى ما قبلك ابراهيم النونى القوصى فانظر أعزك الله أن تأمر بمن يحمل الى مركبه مائة وسبعة عشر جرة والخطاب مرسل من أحمد بن على ابن عبد الأعلى الى سيده فى الفسطاط أبى عبد الله[١٣١] ويتضح من هذا الخطاب أن الجرار المطلوبة هى جرار فارغة يريدها من قوص حيث تصنع هناك بكثرة ويريدها ليملأها عسلا ولتشحن السفينة بالعسل الى الفسطاط .

وكانت تجارة الخشب واسعة ومنتشرة فى قوص نظرا لكثـرة وجـود أشـجار النخل والسـنط والمجز وكان خشب النخيـل يستخدم فى البناء واصلاح السفن وكان خشب الجميز المستخرج من قوص من أحسن الأنواع فى مقاومة التغييرات الجوية والمائية ، وكانت أخشاب الجميز تستخدم فى الأبواب وفى بناء واصلاح السفن[١٣٢] كما كثر خشب السنط واستغلاله فى بناء السفن لمتانته وصلابته وكثر هذا الخشب فى قوص وبعض جزوعه يساوى مائة دينار[١٣٣] وأعظم أنواع الخشب لبناء السفن كان يؤخذ من خشب اللبخ الذى انتشر أيضا باقليم قوص وكان ثمن اللوح الواحد منه خمسين دينارا ، ووجد شـجر السنط فى قرى الاقليم بكثرة ، وبجانب استخدامه فى استـخراج الاخشاب كانوا يأخذون منه ثمر القرظ الذى كان يبـاع بأسـواق قوص للتجار الذين يشحنونه الى الفسطاط وتشير أوراق البردى من

---

(١٣٠) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ٥٨ : ٦١ .
(١٣١) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ١٣٥ .
(١٣٢) نفس المصدر ، ص ٦٣ ، هامش ١ .
(١٣٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١١٠ .

القرن الثالث الهجرى الى اشتهار قوص بالقرظ[١٣٤] والى شحن سفن محملة بخشب السنط مرسلة من قوص من القرنين الأول والثانى الهجريين .

تتجلى حركة التجارة بين قوص والفسطاط واسعة ومتنوعة وحوت أوراق البردى العربية خطابات كثيرة مرسلة من التجار المقيمون بالفسطاط الى وكلائهم بقوص يطلبون منهم شحن الغلال مثل القمح أو طلب عسل أو عنب أو جبن وملابس ، وكلها تشير الى ما كانت نمده قوص من سلع متنوعة لمدينة الفسطاط مما يدل على مركز قوص التجارى فى مصر ، فضلا عن أن كشوف الحسابات التى كان الوكيل المقيم بقوص يرسلها الى سيدة كل عام تتضمن نفقات شحن ونقل بضائع الى الفسطاط متنوعة[١٣٤] .

فهناك وثائق تشير الى شحن خشب الاثل وتتضمن كشف حساب النقل والشحن فورد ثمن شحن ١٠٢ كتلة من الخشب من مدينة الفيوم الى على بن حطام تاجر الخشب بالفسطاط وذكر أن ثمن ذلك اتفق عليه ، وكانوا يشحنون الخشب على نوع من السفن يسمى (القربوس) كما يؤجرون القوارب التى تحمل الاخشاب التى ترسل الى الفسطاط عن طريق النيل ، ومن كشف حساب ورد فى احدى البرديات من القرن الثالث الهجرى لأحد الوكلاء يرسل الى سيده يشير فيه الى أجرة القوارب التى لم يحددها ويطلب الوكيل من سيده أن يضعها فى حسابه مما يدل على أن التاجر هو الذى يحدد الاجرة ، ومما ورد فيه « اكتريت قارب صدفة الاسناوى (نسبة الى مدينة اسنا التابعة لقوص والتى تقع جنوبها) وكان شحن هذه القوارب من الجزيرة التى أمام الاقصر وهى المسماة (جزيرة

---

(١٣٤) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٣ ، ص ٦ ، ٧ .

(١٣٥) نفس المصدر ، جـ ٥ ، ص ١١٩ : ١٤٧ .

بســعد)[١٣٦] . مما يدل على أن خشب السنط والاثل كان كثيرا فى هذه الجزيرة .

أما عن وسيلة النقل فى التجارة فكانت برا بالابل التى تستخدم للمسافات الطويلة على الطرق الممتدة على جسر النيل ، فقد استخدمت الجمال لنقل الحبوب وغيرها فى القرن الثالث الهجرى ، فضلا عن آن النيل من أهم طرق نقل التجارة النهرية وبصفة خاصة لنقل السلع بين قوص والفسطاط والذى يساعد على ذلك جريان ماء النيــل من الجنوب الى الشمال ما يسهل على التجار سرعة وصول السلع وسهولة شحنها من مواقع الانتاج فى قوص الى سواحل النيل فى الفسطاط ، أما الحمير فاستخدمت للنقل الداخلى للمسافات القصيرة ، وفى صحراء قوص كان البجة يستخدمون النجب الصهب والجمال العراب التى كانت كثيرة عندهم فهم يربون هذه الجمال التى كان تتميز بأنها شديدة العدو صبورة عليه وعلى العطش يسابقون عليها الخيل ويقاتلون عليهـا[١٣٧] .

وارتبطت قوص بعيذاب برباط تجارى فانتعاش عيذاب تجاريا يترتب عليه ازدهار تجارة قوص واذا ما تضاءلت تجارة عيــذاب يترتب عليه قلة النشاط التجارى فى قوص ، فلما تلاشى أمر قــوص كعاصمة لصعيد مصر تلاشت عيذاب لأن قوص هى القاعدة الخلفية التى تخدم نشاط عيذاب التجارى والمعروف أن عيذاب تلاشت ودمرت بأمر السلطان المملوكى برسباى ٨٢٨ هـ / ١٤٦٠ م[١٣٨] لمــا لم يكن لها أية أنشطة تجارية ففقدت مكانتها بفقد مكانة قوص .

---

(١٣٦) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٥ ، ص ١٤ .

(١٣٧) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٩٤ .

(١٣٨) احمد دراج : عيذاب ، ص ٦٢ .

أما نظام المعاملات التجارية بين التجار القادمين من عيذاب والمقيمين بقوص فاستخدمت السفاتج كوسيلة التعامل بينهم وهى عبارة عن خطاب يذكر فيه قيمة معينة من المال قابل للصرف فى أى مكان من عملاء التجار ، وكانت النقود المذكورة فى السفتجة تدفع فى أى بلد ، مما سهل على التجار حملها عبر الطريق الطويلة وهو آمن ، وبذلك أصبحت للسفاتج قيمة المال ، واستخدمها التجار فى مبيعاتهم ، ومعاملاتهم وورد فى أوراق البردى العربية استخدام السفاتج فى المعاملات التجارية ففى خطاب خاص بدفع أموال من القرن الثالث الهجرى يقول فيه التاجر الى وكيله « ادفع الى صاحب أبى صالح مبلغ ثمانية دنانير معسولة وتأخذ بذلك براءة[١٣٩] الى قدومى ان شاء الله نصفها أربعة دنانير والامارة انى كتبت عليها سفتجة قبل هذه بأربعين دينارا وسبع قراريط[١٤٠] .

ولما كان التجار القادمون من الخارج الى قوص يتاجرون فى سلع كثيرة ومتنوعة استخدموا الصكوك فى سداد الديون أو أخذ القروض فى التعامل مع عملائهم ، والصك عبارة عن ورقة مالية تثبت فيها قيمة دين أو قرض أو استحقاق مالى لأجل محدد ، أو نظرا لأهميته فقد اعتمد عليه التجار فى قوص فى تسهيل التعامل به وساعد على ذلك وجود الجهابذة بأسواق قوص الذين يتولون تصريف قيمة هذه الصكوك لأصحاب الأموال التى أودعوها لديم لقاء رسم معين ، وعمرت أسواق قوص بالجهابذة الذين هم فى الغالب من أهل الذمة وخاصة اليهود الذين تركز نشاطهم خلال هذه الفترة فى المعمل المصرفى والأعمال المالية[١٤١] وورد فى أوراق البردى العربية من القرن الثالث الهجرى كشف حساب من أحد الوكلاء المقيمين باقليم قوص الى سيده المقيم بالفسطاط يخبره فيه انه باع الغلة ودفع تمام

---

(١٣٩) براءة المقصود بها ايصال دفع او خطاب ضمان .

(١٤٠) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٥ ، ص ١٠٤ .

(١٤١) قاسم عبده قاسم : اليهود فى مصر ، ص ٦٢ .

الثلثمائة دينار والخمسين دينار الى الجهبذ ويذكر له انه اســتلمها وعدها على يدى المستودع[١٤٢] وعلى السيد أن يستلم قيمة الغــلة من الجهبذ عند قدومه اليه فى الفسطاط .

على أن الصكوك كان يتم التعامل بها بين الأفراد بعضهم وبعض سواء فى سداد ثمن السلع التى يشتريها أحدهما من الآخر أو لسداد القيمة التى لاجدهما على الآخر ففى بردية من اقليم قوص يرجــع تاريخها الى صفر ٢٣٣ هـ ورد فيها أن يونة بنت حليص لها على زوجها يزيد بن قاسم عشرة دنانير كتب لها بها صكا وتشير البردية الى أن كاتب الصك اسمه اليسع بن عيسى وورد أسماء الشــهود الذين وقعوا على الصك[١٤٣] هذا بجانب التعامل بالدنانير والدراهم كتعامل نقــدى .

ترتب على ازدياد النشــاط التجارى بقوص وقدوم كثير من التجار الأجانب اليها ان انشئت كثير من المنشآت التجارية التى ينزل فيها هؤلاء التجار المغتربون ليقضوا جزءا من وقتهم للراحة من عناء السفر الطويل ولعمل الصفقات التجارية وعرض ما معهم من سلع ومن أهم هذه المنشآت الفنادق فوجد فى قوص فندق من عدة طوابق فى القرن الثالث والرابع استغل الدور الأرضى منه كمخازن للتجار يخزنون فيه بضائعهم ، ومكان فسيحا لتعبئة البضائع وتفريغها ، أما الأدوار العليا فخصصت لاقامة التاجر ليناموا فيها[١٤٤] ، ووجد فى قوص فندق ينسب لابن العجمى ، وبعيذاب فندق أيضاً ، ونزل الرحالة ابن جبير فى فندق ابن العجمى فى قوص وهو فى طريقــه للحــج[١٤٥] ، وكان التاجر يدفع درهمــا عن الليــلة نظير اقامته

---

(١٤٢) جروهمان : اوراق البردى ، جـ ٥ ، ص ١٢ .

(١٤٣) جروهمان : اوراق البردى ، جـ ١ ، ص ١١ .

(١٤٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٣٢٧ .

(١٤٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٣ .

بالفندق ، وهذا يدل على أن هذه الفنادق كانت لتسهيل اقامة التجار وتشجيعا لمجيئهم الى قوص وعملا لراحتهم .

كما وجد فى قوص خان وهو لاقامة التجار غير المسلمين ، وهو عبارة عن مبنى ضخم يحتوى على مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة ، ويتوسط الخان فناء كبير على هيئة رواق مغطى حيث يحفظ التجار الأجانب بضائعهم بجانب راحتهم عند الاقامة فيه من عناء السفر[١٤٦] وبالخان حجرات كثيرة ويذكر ناصر خسرو[١٤٧] ان الخان الواحد يسع ثلثمائة وخمسين شخصا ، هذا فضلا عن وجود الوكالات بقوص وهى المخصصة كمخازن للسلع حيث يضع التجار بضائعهم فيها وكان يعلو هذه الوكالات بيوتا كثيرة يتخذها التجار سكنا لهم ، ومكانا لحفظ أموالهم ، وفى هذه الوكالات كانت تتم عمليات البيع والشراء بالجملة وبالتجزئة ، كما كان يتم فيها الأعمال المصرفية حيث يقيم فيها الجهبذ ويتخذ منها مكانا للقيام بعمله[١٤٨] .

الحيـــاة الاجتماعيـــة :

ارتبطت الحياة الاجتماعية فى قوص بالنشاط التجارى بها فازدهار التجارة يؤدى الى كثرة أرباح التجار ، ووفرة السلع وتنوعها يؤدى الى استقرار الحياة الاجتماعية ، فكلما كانت التجارة مزدهرة ، انعكس ذلك على حياة السكان عامة ، واذا كسدت لعوامل الاضطرابات التى تقوم بها بعض الفئات المناهضة للسلطة الحاكمة أو تعرض التجار لقطاع الطرق واللصوص ينعكس ذلك على اضطراب الحياة الاجتماعية ، وطوال القرنين الثالث والرابع الهجريين تمتعت قوص بحياة اجتماعية مستقرة ، واستمدت حياة الاستقرار فى المجتمع من الاستقرار السياسى خلال عصر الولاة العباسيين والطولونيين والاخشـيديين .

---

(١٤٦) ابن بطوطة : تحفة النظار ، جـ ١ ، ص ١٧ .
(١٤٧) ناصر خسرو : سفر نامة ، ص ٥٨ .
(١٤٨) المقرزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٥ .

أما مجتمع قوص فتعددت عناصره وطوائفه فبجانب أهل قوص من المصريين وفد عليها كثير من القبائل العربية واستقرت بها خاصة بعد أن أسقط المعتصم العرب من ديوان العطاء ٢١٧ هـ عندما سمح للعرب بالاستقرار فى الأمصار المفتوحة والقيام بالحرف الزراعية والتجارية ، فأستقر فى قوص الكثير من هذه القبائل وسكن منهم فى قوص قبائل بلى وجهينة ويذكر المقريزى(١٤٩) انهم ظلوا فى مساكنهم الى أوائل العصر الفاطمى ثم طردوا منها ، ونزلت مكانهم قبيلة قريش ، وسكت بلى وجهينة الصعيد الأعلى ، ثم وفدت قبائل عربية واستقرت فى وادى العلاقى شرقى قوص وخاصة قبيلة ربيعة التى نجحت فى صد غارات البجة ، وصاهروا البجة بعد أن استقروا معهم ، واستطاعوا السيطرة على مناجم العلاقى(١٥٠) . وكانت الغلبة والكثرة ببلاد الصعيد عامة قبائل بنو هلال وبلى وبنى كلاب وثعلب وجزام وقريش(١٥١) .

اختلط العرب مع المصريين وشاركوهم أعمالهم وبدأوا ينتسبون الى قرى ومدن الاقليم كما ينتسب العربى الى قبيلته(١٥٢) وكانت قبيلة جهينة خلال القرن الثالث الهجرى من أقوى القبائل فى ذلك الاقليم ، وسكنت قبيلة بنو سليم فى قوص عندما نزحوا اليها خلال القرن الثالث وعملوا باستخراج المعادن هناك(١٥٣) .

وأوراق البردى تشير الى اقامة العرب فى قوص(١٥٤) ولذلك بدأ

---

(١٤٩) البيان والاعراب ، ص ١٠٥ ، تحقيق عبد المجيد عابدين .
(١٥٠) نفس المصدر ، ص ٢٤ .
(١٥١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٩٠ .
(١٥٢) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ٢٣٩ .
(١٥٣) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٣٥ .
(١٥٤) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٣ ، ص ٧٩ .

العرب يتزوجون من المصريات ويمتلكون الأراضى الزراعية[١٥٥] ثم أصبحت قريش أوائل القرن الرابع الهجرى من أقوى قبائل قوص فأشارت أوراق البردى الى أن قريشا هاجرت الى الصعيد منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجرى واستقرت فى منطقة قوص[١٥٦] ويذكر المقريزى[١٥٧] أن قريشا كانت تعيش بين قوص وأسوان ، كما أن قريشا كانت متواجدة فى أسوان منذ العصر الأموى ، ويشير المقريزى بأنهم ملكوا الضياع فى تلك البلاد[١٥٨] .

ولما كانت قوص مركزا تجاريا هاما عمل بعض العرب بحرفة التجارة ، وخاصة أن هذه الحرفة أصبحت حرفة مريحة وأصبح التاجر الغنى مثال التحضر ، والعربى تاجر بطبعه[١٥٩] بجانب ذلك احترف بعض العرب أعمال قطاع الطرق والاعتداء على الناس فاتخذوا ذلك حرفة لهم[١٦٠] وعملوا كخفراء وحراس للقوافل التجارية الذاهبة من قوص الى عيذا بعبر الصحراء عندما تعرضت القوافل لنهب البجة[١٦١] . ويذكر اليعقوبى[١٦٢] أن مدينة هو (من نواحى قوص) ودندرة التى تقع غربى النيل وفا و وقنا فى الجانب الشرقى للنيل خربت أواخر القرن الثالث الهجرى لكثرة من يخرج اليها فى الناحية من الاعراب والخارجين وقطاع الطرق .

على أن كثرة هذه القبائل وتعددها وخشية الصراع بين بعضها البعض كان الوالى يكتب لكل قبيلة بربيعها عدما يأتى وقت الربيع

---

(١٥٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٩٨ .

(١٥٦) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ١ ، ص ١٠٧ .

(١٥٧) البيان والاعراب ، ص ١٢ ، ٣٢ ، ٣٩ .

(١٥٨) الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠٠ .

(١٥٩) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٦ ، جـ ٢ ، ص ٣٦٤ .

(١٦٠) الكندى : الولاة والقضاء ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(١٦١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ .

(١٦٢) البلدان ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

ليتسنى للعرب القيام بتسمين خيلهم وهو ما يسمى الارتباع ، ويكتب الوالى للعرب بكميات اللبن والخراف التى يسمح لهم بالحصول عليها من المصريين[١٦٣] ثم تطورت أوضاعهم واندمجوا فى المجتمع المصرى وشاركوهم نشاطهم وخاصة التجارة وأشارت أوراق البردى الى ذلك[١٦٤] .

ومن العناصر الاجتماعية التى تكون منها مجتمع قوص قبط مصر وكانوا من اليعاقبة[١٦٥] وعمل القبط فى حرف كثيرة وأهمها أن بعضهم عمل كتابا للخراج[١٦٦] وبعضهم عمل بالفلاحة فقد ترك العرب القبط يزرعون أرضهم ويؤدون عنها الخراج[١٦٧] وكان قبط مصر يتولون احياء الأفراح فى مدن وقرى الاقليم ويذكر ترينتون[١٦٨] انه جرت عادة المسلمين فى اسنا (جنوب قوص) على دعوة النصارى فى أفراحهم وأعراسهم فيغنون باللغة القبطية ذات اللهجة الصعيدية ويمشون أمام العروس فى أسواق البلد وشوارعها ، وصار ذاك عندهم عرف وعادة مستقرة[١٦٩] وتشير أوراق البردى على نمو العلاقة بين العرب وقبط مصر فالعربى كان يوقع على عوقد البيع والشراء[١٧٠] ونلاحظ أن الزواج بين المسلمين والقبط تم بصورة واضحة[١٧١] .

---

(١٦٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٤١ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

(١٦٤) جروهمان : أوراق البردى جـ ٤ ، ص ١٣٨ : ١٤٠ .

(١٦٥) نسبة الى يعقوب البردى مؤسس الكنيسة اليعقوبية بالشام ، المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٦ .

(١٦٦) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٩٥ .

(١٦٧) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٢٣ .

(١٦٨) أهل الذمة فى الاســــلام ، ص ١٧٠ .

(١٦٩) أبو صالح الأرمنى : تاريخ الشيخ ابو صالح ، ص ١٢٩ .

(١٧٠) انظر : جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٢ ، ص ١٧٣ ، ١٧٥ .

(١٧١) جروهمان : اوراق البردى ، جـ ١ ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

بجانب ذلك عملوا بالنسيج ، فكانوا يمتلكون مناسج خاصة فى قوص وأسيوط وقنا[١٧٢] ووردت فى أوراق البردى أسماء كثيرة منهم امتلكوا مناسج خاصة بنسج الصوف والقطن والكتان فى هذه المدن[١٧٣] كما عمل بعضهم بحرفة التجارة ففى بردية من أوائل القرن الرابع الهجرى بادفو (من مدن الاقليم جنوب قوص) ورد فيها « أبى يقول النجار »[١٧٤] ومن اسمه يتضح انه من المسيحيين ، وعملوا كصناع للزيوت وباعة للزيت ففى بردية من القرن الثالث الهجرى أسماء بعضهم مثل « يوله الزيات ، اصـــطفى الزيات ، باونه الزيات »[١٧٥] ومن أسمائهم يضح انهم من المسيحيين ، ولذلك كانت تجارة الزيت بين المسيحيين ، وأشتهر من القبط من عمل بصناعة القباطى[١٧٦] وعملوا كباعة كما عملوا بالتجارة[١٧٧] .

ومن مكونات مجتمع قوص كان العبيد الذين كانوا يجلبون من بلاد السودان والنوبة[١٧٨] وكثير من أثرياء قوص يشترون العبيـــد والجوارى ويعتقوهم ، وكان اطلاق سراحهم للصدقة[١٧٩] ووردت فى أوراق البردى العربية نصوص العتق لهؤلاء العبيد[١٨٠] ، كما تشير أوراق البردى أيضا التى كتبت من القرن الثالث الهجرى أن أحـــد

---

(١٧٢) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٢٠٢ .

(١٧٣) جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ١ .

(١٧٤) نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٤٤ .

(١٧٥) نفس المصدر ، ص ٨٤ .

(١٧٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٨ ، ط القاهرة ١٩٢٨ .

(١٧٧) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ .

(١٧٨) ابن سعيد : المغرب ، القسم الخاص بمصر ، ص ٦١ .

(١٧٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٨٦ .

(١٨٠) جروهمان : أوراق البردى ، ج ١ ، ص ٦١ ، ٦٢ ، والوثيقة مؤرخة فى رمضان ٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م .

الوكلاء باقليم قوص يطلب منه سيده المقيم بالفسطاط فى رسالة اليه جارية نوبية فاشتراها له ودفع نصف دينار للمنادى والرسالة كتبت فى ادفو من القرن الثالث الهجرى(١٨١) .

أما صحراء قوص فسكنها البجة ، وكانت مساكنهم تمتد الى أول بلاد الحبشة ، وهم بادية يتتبعون الكلأ حيثما كان للرعى ، وهم عشائر وبطون ، ولكل بطن منهم رئيس ، ولهم رئيس يرجع اليه جميع رؤساء عشائرهم وبطونهم يسكن قرية تعرف بهجر فى أقصى جزيرة البجة(١٨٢) وينقسمون الى قبائل منهم الحدارب والرفانج الذين هم أكثر عددا من الحدارب ، ورغم ذلك يتبعونهم ، فلكل رئيس من الحدارب قوم من الرفانج فى جملته فهم كالعبيد يتوارثونهم(١٨٣) ومنهم مسلمون ، وكثير من البجة كان يهاجم قوص المدينة للسلب والنهب ، كا كانوا يتعرضون للمسلمين أثناء صلاة العيد مما جعل الخليفة المأمون يأمر أحد قادته على رأس حملة لتأديبهم فهاجمهم ونجح فى أخذ كتاب عليهم بالدخول فى طاعته ٢١٦ هـ وتعهدوا بعدم قتل أحد من المسلمين ، وأقاموا على ذلك مدة ، لكنهم عادوا الى هجومهم على قوص ، كما فى عهد الخليفة المتوكل على الله العباس ٢٤١ هـ فوجه اليهم حملة انتهت بالصلح معهم على أداء ما كانوا يؤدونه من القبط من قبل(١٨٤) .

فضلا عن ذلك وجدت طوائف اليهود فى قوص وتشير أوراق الجنيزة التى خرجت من قوص الى أن الجماعة اليهودية كانت كبيرة هناك وكان منهم بعض الأطباء وأصحاب الحرف الأخرى(١٨٥) كما

---

(١٨١) نفس المصدر ، جـ ٥ ، ص ٣٥ .

(١٨٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ، ص ١٩٤ .

(١٨٣) نفس المصدر والصفحة .

(١٨٤) نفس المصدر ، ص ١٩٦ .

(١٨٥) قاسم عبد قاسم : اليهود فى مصر ، ص ٢٦ .

كانوا يقومون ببعض الأعمال الخاصة بالمجال الاقتصادى بجانب مائتين وخمسين حرفة يدوية ، كما عملوا ككتاب للخراج[186] وما ورد فى أوراق الجنيزة يتضح أن نشاط اليهود أكثره كان فى التجـــارة خاصة من قوص الى عيذابو الى عدن وغيرها[187] .

كما عمل هؤلاء اليهود المقيمون فى قوص فى حرف متعددة انفردوا بها دون غيرهم فورد فى أوراق الجنيزة بعضا من هذه الحـــرف ومنها « المنجمين الدجالين » وكانوا من الرجال والنســـاء وهم فى العادة من الفقراء[188] وكان لانتشار صناعة السكر فى اقليم قوص أن عمل كثير من اليهود فى هذه الصناعة فمنهم من عمل كصبيان وبعضهم أجراء ، ونهم من عمل كصناع غ يرحاذقين أى حرفيين[189] ومنهم من كان يجوب القرى والكفور فى الناحية يقومون بمهنة « كحال »[190] .

وكثير منهم كانوا من الأثرياء فمنهم من أمتلك بقوص محلات تجارية فى عيذاب فضلا عن أن بعضهم عل بحرف بسيطة داخل مدينة قوص ، فورد أسماء أصحاب هذه الحرف مثل « المشاطين والغزالين والفخرانية والسروجيين »[191] مما يدل على أن بعض اليهود عملوا بحرفة الغزل وصناعة الفخار وعمل السروج وغيرها .

ومنهم من عمل فى بعض الصناعات الغذائية مثل صناعة الزيوت والعسل والفواكه المجففة والحلويات[192] بالاضافة الى صــناعة

---

(١٨٦) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٦٦ .

(١٨٧) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ١٣٧ .

(١٨٨) جواتين : دراسات فى التاريخ ، ترجمة عطية القوصى ، ص ١٥٤ .

(١٨٩) نفس المرجع ، ص ١٨٤ .

(١٩٠) نفس المرجع ، ص ١٧٧ .

(١٩١) نفس المرجع ، ص ١٨٨ .

(١٩٢) ابن الحاج : المدخل ، جـ ١ ، ص ٢٨٧ .

الزجاج وصياغة الذهب والفضة ، وعمل بعضهم بمهنة النسيج والترجمة وهؤلاء كانوا يتجولون فى أنحاء البلاد والاقاليم ، وعملوا بصناعة الاقساط والغرابيل وعملوا فى صناعة الخبز والجزارة والصباغة والمنسوجات القطنية والكتانية وصناعة الحصر ومهنة التجيم(١٩٣) .

وعمل بعض اليهود كمعلمين لصبيان اليهود وكان يتم ذلك فى (الكنيس)(١٩٤) ويتم ذلك يوم السبت وأيام العطلات للدراسة وليالى الاسبوع ، وخاصة الليالى التى تسبق أيام الاثنين والخميس فاليهود يجلون العلم ولهم رغبة فى التعليم فمن رسالة أرسلها أحد المقيمين فى قوص الى رئيسه فى الفسطاط وقول انه جمع شبابا وأولادا فى الكنيس ورقص معهم رقصة الزهدى وهى رقصة تصحبها تحويدات صوتية(١٩٥) .

وحرص اليهودى على أن يعلم ابنته صنعته ، فكان الابن يساعد أبيه حرفته ، فاذا توفى الأب ورث الابن صنعة أبيه ، ولذلك تجد عائلات كاملة تنتمى الى مهنة واحدة ، ويكون لقب العائلة دالا على مهنة أفرادها مثل (النجار والزيات والصائغ والجزار وغير ذلك) ورغم ذلك فكان البعض يعمل فى مهن غير مهن أبيه ، فنجد اسم شخص متبوعا باسم حرفتين أو مهنتين فان هذا يعنى أن الاسم الأول يدل على مهنة العامل أو الأب والاسم الثانى يدل على حرفة كابن الجزار كان يعمل سقا وابن الطبيب كان يعمل وكيلا للتجار(١٩٦) .

---

(١٩٣) قاسم عبده قاسم : اليهود فى مصر ، ص ٦٢ .

(١٩٤) الكنيس : كلمة عبرانية معناها بالعربية الموضع الذى يجتمع فيه للصلاة . المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٦٤ .

(١٩٥) جواتين : دراسات فى التاريخ ، ترجمة عطية القوصى ، ص ١٥٠ .

(١٩٦) قاسم عبده قاسم : اليهود فى مصر ، ص ٦٥ .

وحرص اليهود المقيمون باقليم قوص أن يبعثوا بأولادهم الى الفسطاط ليتعلموا صنعة ثم يعودوا بعدها الى مقرهم للقيام بهـذه الحرفة • ففى احدى الرسائل التى كتبتها أم لابنتها المقيمة بالفسطاط تقول لها بصدد أخيها الأصغر « وكيف تدعين الولد يغادر المدينــة قبل أن يتعلم صنعة »(١٩٧) وكان اغلبية اليهود رفى قوص لا يتكلمون العربية ويجهلون العبرية ، ففى خطاب مرسل بالعربية من ناســخ متجول الى زوجته يرد فى الخطاب ذكر من سيترجم لها الخطــاب من العبرية(١٩٨) كما عمل اليهود فى الاشراف على جمع المحصول فى اقليم قوص وتصديره الى التجار فى الفسطاط(١٩٩) •

أما المرأة اليهودية فشاركت الرجل حياته ، وعملت فى كثير من الحرف التى تدر دخلا للاسرة ومن الحرف التى عملت بها حرفــة الغزل ، فكل امرأة يهودية متروجة ملزمة أن تؤدى علا ما بجانب أعبائها المنزلية ، وتنص عقود زواجهم على ذلك(٢٠٠) ، ووردت فى أوراق الجزية أسماء كثير من هذه المهن كالماشطة والداية والقابلة التى تقوم بعملية التوليد ، ومنهن من عمل فى أعمال الابرة والتطــريز أما عجائز اليهوديات فعملن بحرفة قراءة الكف والطالع ونســـج الأقمشة التى يبيعونها عن طريق الدلالات وكانت اليهوديات تقوم بهذه المهمة أيضا ، كما عملن بعضهن غسالة لموتى اليهود وبعضهن ندابات(٢٠١) •

على أن هؤلاء اليهود المقيمين باقليم قوص لا يميلوا الى الاسراف

---

(١٩٧) جواتين : دراسات فى التاريخ ، ص ١٧٦ .

(١٩٨) قاسم عبده قاسم : اليهود فى مصر ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(١٩٩) Goitein (C.D) : Jewish Society throu the ages. p. 174 175.
p. 174 : 175.

(٢٠٠) جواتين : دراسات فى مصر ، ص ٦٦ .

(٢٠١) قاسم عبد قاسم : اليهود فى مصر ، ص ٦٦ .

فى المأكل والملبس ولم ينغمسوا فى أى سلوك شائن ويذكر جواتين(٢٠٢) انهم قوم مؤدبون للغاية ويشير الى مثل ورد كثيرا فى أوراق الجنيزة يقول : « الانسان بجاهة » مما يدل على حرص اليهود على العمل وجمع الثروات والظهور بمظهر طيب ، وبذلك تتضح أن حياة اليهود الاجتماعية فى اقليم قوص فى مستوى طيب جدا ويؤكد ذلك جواتين بقـــوله « ان أكثر الذين يأخذون الصدقات من اليهود غرباء وكثير منهم من أرباب الحرف(٢٠٣) .

ولليهود طوائف متعددة فمنهم الربانيون والقراءون والسامرة ، ورئاسة اليهود لواحد من الربانيين ، وعرف فى مصر باسم رئيس اليهود (الناجد) وله سلطة تنظيم علاقاتهم الداخلية وعلاقاتهم بالدولة ، وسمح لهم بتأدية شعائرهم الدينية فى أماكن عبادتهم(٢٠٤) ولذلك زاد نشاطهم الاجتماعى فى ظل سياسة التسامح الاسلامى .

مظاهر الحياة الاجتماعية فى قوص :

غلب على سكان قوص الحرفيون والعامة والفلاحون ، أما الأقلية كانوا يمثلون الطبقة الوسطى من التجار والعلماء ، أما الطبقة العليـــا فتمثلت فى كبار رجال الاقليم من الوالى ورؤساء الدواوين المحليـــة والأثريا من التجار . واندمج العامة مع بعضهم البعض واعتمد الملاك والعلماء عليهم فى توفير احجاتهم ، ولذلك ساد المجتمع بصفة عامة حياة الاستقراء لثبات موارد الرزق ودخل الاسرة بالنسبة للفلاحـــين والحرفيين وصغار التجار . كما اتسم نظام مأكلهم وملبسهم بطابع يكاد يكون مستقرا أيضا ، وشأن مجتمع قوص شأن مجتمعات مصر فى سائر مدنها ، لكن قوص تتميز عن مجتمعات المدن الاخرى بأنها مدينة

---

(٢٠٢) دراسات فى التاريخ ، ص ١٥٨ .

(٢٠٣) دراسات فى التاريخ : ص ١٧٧ .

(٢٠٤) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٢٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٢٤٩ .

اكتسبت حياة اجتماعية خاصة لكثرة التجارات ووجود ببعض الاثرياء من التجار الذين جمعوا الثروات ، وبدأت تظهر على حياتهم الاجتماعية ويتمتعون بهذه الثروات .

ولما كانت موارد الرزق متنوعة من حيث الانتاج الزراعى المتنوع ، وتعدد الحرف والصناعات ووجود المعادن والذهب فى صحرائها ، مما جعل مجتمع قوص يعمل فى كثير من هذه الحرف ، وفى ظل هذه الحياة التى استقرت داخليا ، كانت السلطة الحاكمة للاقليم تقوم بدورها فى ضبط الامور والقضاء على أسباب الاضطرابات والمنازعات ، فبقوص يقيم والى الاقليم والقاضى الذى يتولى شئون الفصل فى المنازعات ، كما كان للمحتسب نواب فى جميع الاعمال لساعدته فى أداء اختصاصاته فى مراقبة الاسواق وأرباب الحرفيين وغيرهم ، كما كان قاضى القضاء له نوابا أيضا فى الاقاليم يتولى النظر فى الاحكام الشرعية فكان يتولى الصلاة والخطابة والاشراف على دار الضرب والنظر فى احباس المجتمع ويعاونه عدد من الشهود العدول(٢٠٥) وبقوص عدد من الكتاب وعمال الخراج ، من ذلك أصبحت قوص قبلة الوافدين من سكان الاقليم لقضاء مصالحهم ، وشراء حاجاتهم ، هذا بجانب ما يرد اليها من التجار والحجاج الذين ينزلون بها للراحة من عناء السفر .

فأما مساكنها فبنيت من الطوب اللبن والحجارة ، وبعضها كان مسقوفا بجريد النخل وجذوعه والخشب الذى كان يستخرج من الاشجار وبعضها كان يسقف بالقباب وللمدينة أبواب وبها قصور فخمة يقول أحد الشعراء عنها :

---

(٢٠٥) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ١٠ ، ص ٣٥٢ .

قضـيت فى غيطـانها وقصـــورها
زمن الشـــبيبة تحت ظل أمـــان[٢٠٦]

ووصف قوص كثير من المؤرخين والرحالة فقال بعضهم انهـا حسنة العمارة وبها يقيم أهل الحكمة والصناعات وبها منازل كثيرة[٢٠٧] حتى أن ابن دقماق[٢٠٨] عدد منازل اسنا المجاورة لها والتابعة لها فذكر أنها تشمل على ما يقرب من ثلاثة عشر ألف منزل ومدرستين وحمامين وذكر عن قنا بأن بها بيمارستان وحمامان وأبنية مرتفعة البناء واسعة الفناء ، ويذكر الادفوى[٢٠٩] أن قاضى قوص كان يخرج للمرور على مدن الاقليم فيخرج اليه الفقهاء يتلقونه ، فذكر أن أهل أسوان خرج منهم اربعمائة راكب بغلة لتلقيه •

ويذكر المقريزى[٢١٠] ان عمل قوص هو أجل أعمال الوجه القبلى ، ويقول أن أهل مصر يسومن من سكن من القبط بالصـــعيد « المريس » وسكن بعض سكان قوص الاخصاص وهى بيوت من البوص[٢١١] وبعض بيوت مدن الاقليم كان سقفها من القباب فيذكر الادفوى[٢١٢] انه كان يرى قباب ادفو من على مسافة عندما يخرج من قوص لزيارتها أما سكان قفط فدورهم لها قباب بأعلى وكذلك اسنا جنوب قوص ، ويذكر المقريزى[٢١٣] أن سكان قوص أكثـــر من سكان قفط وقوص أعمر منها •

---

(٢٠٦) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٢ ، ص ٢٧ والشاعر هو الأديب شهاب الدين أبو العباس احمد بن عبد الخالق الذى عاش فى قوص خلال القرن الخمس الهجرى •

(٢٠٧) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ •

(٢٠٨) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٢٩ •

(٢٠٩) الطالع السعيد ، ص ١٣ • ويقصد بهم العلماء والفقهاء فهم الذين كانوا يركبون البغال دون غيرهم •

(٢١٠) الخطط ، جـ ١ ، ص ١٢٨ •

(٢١١) الادفوى : الطالع السعيد ، ص ١٣ •

(٢١٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ •

(٢١٣) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٣٣ •

ووجدت المساكن المبنية من الاجر والجر ، وتتكون من الفناء فى الوسط وحوله الحجرات والقاعات ، وبعض الدور تحتوى على دورين دور مستقل للسكن فى الأدوار العليا ، أما الدور الأرضى فكان يستغل فى بعض الدور كحوانيت يستغلها بعض الناس للجلوس أمامها للحديث مع بعضهم البعض[٢١٤] وكان السكان يحصلون على المياه من النيل وفى الأماكن البعيدة عن النيل عن طريق حمل الجرار المملوءة بالمياه على ظهور الحمير أو الابل وسكان الاطراف يحصلون على الماء من الابار كما وجد السقاوءون الذين يقومون بتوصيل الماء للبيوت وكثير من اليهود عمل بهذه الحرفة[٢١٥] .

وصنعوا أبواب الدور من أخشاب الأشجار المتوافرة فى الاقليم كأشجار السنط واللبخ والجميز والاثل حيث كانت تقطع وتنشر وتجمع ويباع منها لصنع الأبواب والباقى يشحن الى الفسطاط[٢١٦] . وكان أثاث الدور بسيطا ومنه الدكة[٢١٧] والكاسات من النحاس الأصفر وطشت وبعض أدوات المائدة[٢١٨] والخردويات[٢١٩] وبعض الأدوات الأخرى[٢٢٠] ، لكن المسكن بصفة عامة اتسم بالنظافة وحرص السكان على نظافة مساكنهم ، أما التجار فكانوا أفضل سكان قوص سعة فى العيش والسكن ، وكان لوجوه التجار مكانة اجتماعية ، فكانوا يحضرون استقبالات الوالى ومناسبات التهنئة بالأعياد ، وكانت

---

(٢١٤) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، ص ٥٢ ، ابن سعيد : المغرب ، ص ٧٥ .

(٢١٥) قاسم عبده قاسم : اليهود فى مصر ، ص ٦٥ .

(٢١٦) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٥ ، ص ٥٨ — ٦٠ .

(٢١٧) وهى عبارة عن شىء شبه السرير من خشب مدهون .

(٢١٨) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٤ .

(٢١٩) الخرداديات وهى عبارة عن ابريق من البلور الصخرى عنقه ضيق وجسمه يزداد اتساعا من أعلى الى اسفل وهى كلمة فارسية وكان يستخدم للشراب .

(٢٢٠) البلوى : سيرة احمد بن طولون ، ص ١٢٠ ، ١٥٧ .

مساكنهم واسعة متعددة الطوابق ، ويذكر جواتين[٢٢١] أن دور اليهود كانت متاخمة لدور المسلمين ودور المسيحيين ، ولذلك كانت فرصة للاختلاط اليومى .

استخدمت الزيوت للاضاءة حيث تضاء الدور بالمصابيح وكانوا يستخرجون الزيت من بذر البنجر والسيرج وزيت الفجل[٢٢٢] وورد كثيرا فى أوراق البردى فى كشوف الحسابات استخدام زيت السيرج للاضاءة ضمن الكشف الذى يقدمه وكيل الضيعة لسيده المقيم بالفسطاط[٢٢٣] كما استخدموا القدور لحفظ الأغذية والقلل والجرار التى تستعمل فى حفظ وتبريد المياه ، وبعض القدر كان يستخدم فى طهى الطعام ويصنعونه من الطين ويشكلونه بدولاب خاص ، كما استخدموا الحصر ووردت صناعة الحصر بكثرة فى قوص وورد ثمن الحصير درهمين فى القرن الثالث الهجرى مما يسر على السكان كثرة استخدامها[٢٢٤] .

الملبس :

اختصت كل طائفة بلبس معين فالتاجر يلبس غير لبس العالم والصانع غير لبس الفلاح والمسلم غير الذمى ، فنجد النجار يلبس الثياب الواسعة والعمائم المدورة ويضعون على أكتافهم الطيالس الطويلة[٢٢٥] ولذلك انتشرت هذه الملابس فى قوص ، وعمرت بها محلات الثياب حتى العمامة كانت مختلفة اللون والحجم فالقضاة والعلماء كانوا يلبسون العمائم الكبار ويجعلون طرف العمامة على

---

(٢٢١) دراسات فى التاريخ ، ص ١٥١ .

(٢٢٢) ابن الكندى : فضائل مصر ، تحقيق ابراهيم احمد العدوى ص ٤٩ .

(٢٢٣) جروهمان : اوراق البردى ، جـ ٥ ، ص ٨٤ .

(٢٢٤) نفس المصدر ، جـ ٥ ، ص ٧٨ .

(٢٢٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٤ .

هيئة ذؤابة طويلة يرسلها من كتفيه ويذكر الجاحظ(٢٢٦) انهـا من عادات العرب ويذكر فوائد العمامة انها « جنة فى الحرب ، ودثار فى البرد ، وكنه فى الحر ، ووقار فى الزى وشرف فى الاحدوتة وزيادة فى القـــامة » .

على أن قاضى قوص خلال عصر الولاة العباسيين كان يلبس السواد(٢٢٧) ويلبس فوق رأسه الدنية(٢٢٨) وشاركه العلماء ، وكان بعضهم يسبدلونها بالعمائم(٢٢٩) واذا أراد الشخص أن يضفى على نفسه الهيبة والوقار وأن يتصدر فى المجالس فانه يلجأ الى الاعتناء بالعمامة(٢٣٠) أما الفلاحون فلبسوا عمام الفوط الملونة(٢٣١) وورد فى أوراق البردى(٢٣٢) كثير من أنواع المناديل التى كان يبيعها أحـــد التجار بقوص ضمن كشف حساب فى القرن الثالث الهجرى منهـا منديل للرأس ، وتعنى كلمة منديل فى أوراق البردى أيضا مشوش أو زرة عمامة وهى ردفة عمامة أو شاش(٢٣٣) لكن الجميع خلال القرن الثالث والرابع فى اقليم قوص لبسوا العمائم من الفقهاء الى العامة بجانب التجار والاعراب وقطاع الطريق لكنهم اختلفوا فى نوع

---

(٢٢٦) البيان والتبيين ، جـ ٣ ، ص ١٠٠ وهذا قول ابو الأسود الدؤلى .

(٢٢٧) السواد شعار العباسيين الذى تمسك به القضاء فى مصر .

(٢٢٨) الدنية : لباس الراس الشائع عند عدد كبير من الناس خلال القرن الثالث وتسمى بالقلنسوة وهى فى شكل الدن طولها شبران . انظر : هلال الصابى : رسوم دار الخلافة ، ص ٧٩ ، ابن العمـــدا الحنبلى : شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، جـ ١ ، ص ٢٣٤ .

(٢٢٩) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٠٣ .

(٢٣٠) ابن بطلان : شرى الرقيق وتقليد العبيد ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢١.

(٢٣١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٢٨ .

(٢٣٢) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٦ ، ص ٩٢ .

(٢٣٣) نفس المصدر ، جـ ٦ ، ص ٩٢ ، هامش ١ .

القماش الذى تصنع منه وفى طريقة لبسها وفى ألوانها لكن اللــون الأبيض هو الغالب على العمامة أما العمائم السوداء فهى من الملابس الرسمية لأن السواد شعار العباسيين[٢٣٤] .

ولبس بعض الأثرياء الديباج الذى يبعثون لشرائه من الفسطاط فتشير احدى الوثائق البردية الى خطاب بشأن رد على وصول ثوبا من الديباج يقول فيه كاتبه : ان الثوب وصل وتحتاج الى دنانير[٢٣٥] وخطاب آخر يطلب فيه كاتبه المقيم فى قوص شراء ثياب من الفسطاط مرسل أواخر القرن الثالث الهجرى[٢٣٦] . أما لبس العلماء فكان الطيالس من أهم ما يميزهم ، ولبسوا الخف والسراويل ، أما خطباء المساجد فلبسوا الشاش والطرحة[٢٣٧] والملبس عامة يتــكون من القميص والسروال اللذان يستران العورة والبدن ، وورد لبس الجبة لطبقات المجتمع المختلفة وهى نوع من الثيا بيلبس فوق البطانة ولذلك اختلفت أشكالها وألوانها والقماش الذى تصنع منه حسب مكانة الشخص وثراءه ، فالاغنياء يصنعون الجبة من نسيج الصوف الغالى الثمن ، وتمتاز جبتهم بطول ذيلها وعرضه ، بينما جبة غيرهم قصيرة من قماش رخيص[٢٣٨] وورد تأنواع الجبة وألوانها وأقمشتها فى كشف حساب أحد تجار الثياب بقوص فى القرن الثالث الهجرى[٢٣٩]

---

(٢٣٤) انظر : الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ ٣ ، ص ١١٢ .

(٢٣٥) جروهمان : اوراق البردى ، جـ ٥ ، ص ٦٨ والديباج من الدبج وهو النقش والتزيين الذى يميز الثوب .

(٢٣٦) نفس المصدر ، ص ٧٠ .

(٢٣٧) السيوطى : تاريخ الخلفاء جـ ٢ ، ص ٣٢ وهى اللباس المميز لرجال الدين وهى عبارة عن وشاح يلبس فوق العمامة ويلتف حول الرقبة ويرسل على الكتفين ! انظر : الزمخشرى : أساس البلاغة ، ط القاهرة ١٩٧٣ ، مادة طرح ، جـ ٢ ، ص ١٩٦ .

(٢٣٨) الشباشتى : الديارات ، ص ٢٩ ؛ الجاحظ : المحاســن والأضداد ، ص ٤٢ ، التنوخى : الفرج بعد الشدة ، جـ ٢ ، ص ٢٥٧ .

(٢٣٩) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ١٠١ .

مما يدل على ن كل هذه الأنواع كانت متوافرة ومتناسبة لكل طبقة من طبقـــات المجتمع •

أما الفقراء فكانوا يلبسون الغلالة التى تلبس تحت الثيـــاب وهى ثوب رقيق يلبس تحت ثوب سميك(٢٤٠) ويلاحظ أن هناك فرق بين الطيلسان والجبة فالطيلسان ثوب خال من التفصيل والخياطة(٢٤١) أما الجبة فتختلف عن الطيلسان فى كونها ثوبا مفصلا ومخيطا يحيط بالبدن وله أكمام(٢٤٢) ولبس الكتاب المقيمون بدار الامارة بقـــوص الدراعة(٢٤٣) وهى ذات ألوان متعددة لكن يلاحظ أنها تصنع من الخز وأسعارها وردت فى أوراق البردى من ثلاثة الى أربع دنانير(٢٤٤) •

على أن سكان قوص عامة امتازوا بلبس العمامة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين وحجم العمامة يعبر عن مكانة لابسهـــا ، فكانت عمامة القضاة ضخمة(٢٤٥) ولبس السكان العمـــامة ذات الذوءابة المرخية خلف الرأس فى أخرها(٢٤٦) لكن المحتسب تميز بلبس

---

(٢٤٠) دوزى : قاموس الملابس ، ترجمة أكرم فاضل ، ص ٢٤٦ .

(٢٤١) ويفصل ذلك الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ ٢ ،ص٣٤٢ بقوله انه مربع الشكل يجعل على الرأس فوق العمامة أو القلنسوة ويغطى به اكثر الوجه ثم يدار طرفان منه تحت الحنك الى أن يحيط بالرقبة جميعها ثم يلتقيان على الكتفين ، أما طرفاه الاخران فانهما يدليان على الظهــر والوانه مختلفـــة .

(٢٤٢) دوزى : قاموس الملابس ، ص ١٥ .

(٢٤٣) الدراعة نوع من الملابس مشقوق من الوسط وتكـــون من الصوف بصفة خاصة .

(٢٤٤) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٦ ، ص ١٠٠ والخز نوع من الثياب ينسج من الصوف والحرير أو من الحرير فقط أو من الوبر ، وهذا يشير الى أن المصنوعة من الصوف يلبس فى الشتاء والحرير يلبس فى الصيف .

(٢٤٥) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٤٦ .

(٢٤٦) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٤٠ .

خاص لا يشاركه فيه أحد فلبس جبة وعمامة مذهبة[٢٤٧] أما العامة فلبسوا النعال لكن الأثرياء ارتدوا الخف فى القدم[٢٤٨] واختلفت قيمة الخف بمكانة لابسه فوجدت فى قائمة السلع بدكان أحد التجار بقوص التى وردت فى أوراق البردى فى القرن الثالث الهجرى خفتان ملحب ثمنها ديناران وسدس ، ونوع آخر « زوجى خفاف » ثمنهـا دينار وقيراط ونصف ، وثالث « خفتان خز أحمر » ديناران وخمسة قراريط ونوع آخر « خفتان خز نيسابورى » بثلاثة دنانير وقـيراط ونصف ، و«خفتان خز داكنا » سبع دنانير[٢٤٩] مما يشير الى أن أعلى سعر سبعة دنانير وأقل سعر دينار وقيراط ونصف وهو الذى أشير عليه بأنه زوجى خفافكما يتضح أن بعضها مصنوع من الخز وهذه الخفاف متعددة الألوان ، ومن أسعارها نجد انها تناسب كل طبقات المجتمع .

أما لباس أهل الحرف والصناعات فكانوا يرتدون غطاء الرأس الذى يعرف بالقلنسوة[٢٥٠] التى تلبس على الرأس مكان العمامة[٢٥١] ويسـترون أجسـامهم بالسراويل والقمصـان التى تتميز بسـعة أكمامها[٢٥٢] ومن أرباب الحرف ن فرضت عليهم طبيعة عملهم لباسا معينا فمنهم من كان يعمل فى حمل المياه من النيل الى البيـوت وهم السقاءون فكانوا يلبسون سراويل تستر عورتهم حيث يملأون الماء فى قرب من جلد الحيوان[٢٥٣] أما عمال الحمامات فكانوا يلبسـون

---

(٢٤٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٥٠ .

(٢٤٨) ابن قتيبة : عيون الاخبار ، جـ ٣ ، ص ٢٩٩ ، ط القاهرة ١٩٦٣ .

(٢٤٩) جروهمان : اوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢٥٠) وهى لباس مستدير مبطن من الداخل يوضع على الراس ويصنع من القماش او الجلد .

(٢٥١) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٦٨ .

(٢٥٢) زكى محمد حسن : الفن الاسلامى ، ص ٥٩ ، ٦٣ .

(٢٥٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٤ .

سراويل صغيرة تستر العورة وكان لبس السراويل فى اقليم قوص شائعا بين الناس وخاصة السراويل البيض المذيلة[(٢٥٤)] ولبس الجند الأقبيــة[(٢٥٥)] ولبس الحمــالون والخــدم الازار فكانــوا يتزرون بالفوط[(٢٥٦)] واستخدم الازار أيضا فى الحمامات الخاصة بالرجــال والحمامات الخاصة بالنساء لستر العورة[(٢٥٧)] والفلاحــون كانوا يلبسون الثياب الغليظة من القطن[(٢٥٨)] والتى تناســب عملهم فى الزراعة .

واختص الاشراف فى اقليم قوص (وهم القرشيون) بلبس مميز ووضح ذلك فى عمامتهم ذات العلامة الخضراء البارزة للعــامة والخاصة منهم تعظيما لقدرهم ، وليقابلوا بالاحترام والقبول[(٢٥٩)] وكانت العمامة هى التى تحمل علامات التميز بين طوائف المجتمع فلذلك كانت عمائم النصارى زرقاء واليهود صفراء[(٢٦٠)] والتجــار عمامتهم صغيرة والقضاة كبيرة ، وبذلك أصبح الملبس يميز صاحبه .

فضلا عن ذلك فكان عمال البناء يلبسون السراويل الضــيقة التى تستر عوراتهم أثناء صــعودهم وهبوطهم[(٢٦١)] واســتخدموا

---

(٢٥٤) ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة نشرها ليــفى بروفنسال ضمن ثلاث رسائل ، ط القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٤٨ .

(٢٥٥) جمع قباء وهو ثوب طويل يغلق من مقدمته بزراير ومفتوح حول الرقبة بفتحة مستديرة . انظر هلال الصابى : رسوم دار الخلافة ، ص ٩٢ .

(٢٥٦) الازار قطعة من قماش كانت تلف أو تعقد على وسط الشخص . الثعالبى : فقه اللغة ، ص ٢٤٩ .

(٢٥٧) ابن الاخوة : معالم القربة ، ص ١٥٧ .

(٢٥٨) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٢٨ .

(٢٥٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢١٦ .

(٢٦٠) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ٢١٠ .

(٢٦١) ابن الاخوة : معالم القربة ، ص ٣٤٣ .

القمصان والتكك لربط السراويل والتى عمرت بها محلات الثياب بقوص والتى تعمل من غزل الصوف والكتان وكانت تعمل فى البيوت وورد فى أوراق البردى العربية كثير من أنواع التكك أما القمصان فكانت تصنع من الكتان أو القطن أو الحرير المخلوط وبعضها كان يصنع من الجلد وورد أن قميص قطن ثمنه ستة عشر درهما[٢٦٢] .

ولبست المرأة فى اقليم قوص ملابس اتسمت بالحشمة ، والملابس التى لا تظهر أى شىء منها فمن ملابسها الغلالة التى تلبس تحت الثوب ولبسن الرداء والازار والسروال والوشاح الذى كانت تضعه المرأة على صدرها[٢٦٣] وكانت تضع على وجهها الحجاب أو برقع أسود اللون ، وغطاء للرأس ، ولبسن العصابة التى تكون أولها عند جنبها وآخرها عند ظهرها وهما من الأقمشة الفاخرة[٢٦٤] ومن خلال أوراق البردى التى تشير الى القرن الثالث الهجرى نجد أنها كانت تلبس فساتين تصنع من الكتان[٢٦٥] ونظرا لحرارة الجو فى الصيف فلبسن ثيابا رقيقة ذات أكمام ناعمة[٢٦٦] ولبسن الازار عند الخروج من دورهن وهى عبارة عن ملاءة متسعة فضفاضة تغطى الملابس كلها بجانب انها تضع العصابة على الرأس[٢٦٧] بالاضافة الى النقاب الذى يحجب وجهها أثناء خروجها[٢٦٨] .

---

(٢٦٢) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ٨٠ . المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٩ .

(٢٦٣) الثعالبى : فقه اللغة ، ص ٢٤٩ .

(٢٦٤) نفس المصدر : ص ٢٤٩ .

(٢٦٥) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٦ ، ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٢٦٦) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٥٩٥ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ١٢ .

(٢٦٧) والعصابة قطعة من القماش تستخدم كلباس للرأس تلف كالعمامة حول جزء من الازار الذى يغطى الشعر . انظر : الزمخشرى : اساس البلاغة ، جـ ٢ ، ص ١١٩ .

(٢٦٨) ياقوت : معجم الادباء ، جـ ٤ ، ص ٥٩ .

على أن نائب المحتسب المقيم بقوص حرص على منع النساء من الخروج وهن يرتدين الملابس الخليعة التى لا تلتزم بستر جسدهن ، ويتشدد فى منعهن من ابراز مفاتنهن[٢٦٩] أو يرتدين فى أرجلهن الخفاف ومنع المحتسب صناع الخفاف من عمل الخفاف التى تحدث صوتا أثناء المشى[٢٧٠] أما داخل دورهن فكن يلبسن القباقيب والزرابيل[٢٧١] .

أما أهل الذمة من اليهود والنصارى فلبسوا الطيالس العسلية والزنابير فقد أمر الخليفة المتوكل على الله العباس ٢٤٥ هـ / ٨٤٩ م والى مصر بذلك وكانوا يركبون الحمير بالسروج الخشب ويضعوا على رؤوسهم القلانس المختلفة الألوان الا انها تختلف عن قلانس المسلمين بأن عليها زرين وأن تخيط الرقاع على ظهورهم ، وأن تكون ازر نسائهم عسلية[٢٧٢] وكان اللون الاصفر بالنسبة لليهود السامرة ، ونساؤهم يلبسن خفين بلونين متباينين ، أما طريقة تفصيل ملابس النساء فواحدة سواء المسلمات أو الذميات[٢٧٣] ويذكر متز[٢٧٤] أن اليهود لبسوا البراطيل الطويلة .

فضلا عن ذلك فكانت المرأة الذمية تشد الزنار فوق الازار تمييزا لها عن النساء المسلمات[٢٧٥] وفى اقليم قوص تزينت المرأة بالحلى وخاصة الأساور الذهبية فيضعون الاقراط والخلاخل وكانت أسعارها

---

(٢٦٩) ابن الاخوة : معالم القرية ، ص ٢٤٣ .

(٢٧٠) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ٧٣ .

(٢٧١) الزرابيل نوع من الخفاف تلبسه الجوارى . القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١ ، ص ٢٤٢ .

(٢٧٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٥١ .

(٢٧٣) ابن الاخوة : معالم القرية ، ص ٤١ ، القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٣٦٢ .

(٢٧٤) الحضارة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٦٦ .

(٢٧٥) الابشيهى : المستطرف ، جـ ١ ، ص ٩٧ .

فى قرى قوص رخيصة ومتوافرة[٢٧٦] واستعملن الكحل للزينة وتخضيب اليد والقدمين بالحناء[٢٧٧] كما استخدموا الروائح والعطور ففى بردية من القرن الثالث الهجرى ورد فى رسالة مرسلة من اقليم قوص الى الفسطاط يطلب فيها أحد التجار زيت زنبق (زيت الياسمين) الذى كان يستعمله النساء عطرا ويفضلونه على غيره[٢٧٨] .

وبالنسبة انشاط المرأة فيكاد يكون قاصرا على تربية أولادها والقيام ببعض الأنشطة التجارية أو المساعدة فى حرفة الزوج مثـــل غزل الكتان أو الصوف ونسج الأقمشة والسجاد وصناعة الخــزف والفخار[٢٧٩] وبعض النسوة مارسن بعض الحرف فيذكر متز[٢٨٠] أن أمرأة تملك خمسة آلاف قدر من النحاس تقوم بتأجيرها لكل من يطلبها نظير درهم فى الشهر على كل قدر ، ومنهن من عمل فى صـــنع الخبز وكباعة للطعام مثل الحمص المسلوق حيث يفترشون الأرض فى الأسواق لبيع ما يصنعون[٢٨١] .

المأكـــــل :

جرت عادة مجتمع قوص بكل عناصره وطوائفه على نظام معين فى مأكلهم يعتمد على أنواع من الأطعمة التى تتفق وظروف الحياة من حيث ما توافر فيها من منتجات غذائية ، وما سادها من جو حـــار صيفا ، بالاضافة الى ما كان يفد الى قوص من تجار وحجاج من أنحاء مصر وغيرها ، مما استلزم توفر المأكل بأنواعه المختلفة ، كمـــا

---

(٢٧٦) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ١٢ .

(٢٧٧) البلوى : سيرة احمد بن طولون ، ص ١٩٩ .

(٢٧٨) جروهمان : اوراق البردى ، جـ ٥ ، ص ٨٤ .

(٢٧٩) زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، ص ٨٨ .

(٢٨٠) الحضارة المصرية ، جـ ٢ ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢٨١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٢٢ .

وجد فى البيوت من أنواع المأكولات الكثير ، وتختلف هذه الأنواع من طبقة لأخـــرى .

ففى الأسواق وجدت الوجبات المطهية حيث وجد باعة الحمص الذين يفترشون أرض السوق والطرقات المؤدية اليه وبجوار المسجد يبيعون ما معهم من طعام أو خبز لمن يريد(٢٨٢) ووجد باعة القطايف التى يصنعونها من الدقيق والمرق والمـــاء ويقبل عليها العـــديد من الناس(٢٨٣) ومن أهم مأكولاتهم العصيدة التى تصنع من الدقيـــق الذى يلين بالسمن ويطبخ(٢٨٤) وورد فى أوراق البردى العربية كثير من أنواع المأكولات خلال القرن الثالث الهجرى والتى انتشرت فى اقليم قوص وأهمها العسل الذى يؤكل أحيانا مطبوخا باللبن(٢٨٥) وكان يصنع منه شراب عرف باسم نقاع العسل(٢٨٦) وكثر العسل بقوص لوجود مطابخ السكر بها ، ومعاصر للقصب الحلو(٢٨٧) .

وحوت أوراق البردى قوائم حسابات وتموين مرسلة من الوكلاء المقيمين فى اقليم قوص الى أصحاب الضياع المقيمين بالفســـطاط تتضمن كثيرا من استهلاك العسل(٢٨٨) الذى يعد من أشهر منتجات الاقليم ومن أحسن أنواع العسل فى العالم فى القرن الثالث الهجرى وكان انتاجه بكميات وافرة ، وكان يستعمل بدلا من السكر(٢٨٩) ويرسل

---

(٢٨٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٢٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ١٠ ، ١١ .

(٢٨٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ، ص ٥٧ .

(٢٨٤) ابن أبى أصيبعة : طبقاء الاطباء ، ص ٥٤٤ .

(٢٨٥) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ١١٣ .

(٢٨٦) نفس المصدر ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ وثيقة رقم ٧٣ ، يرجع تاريخها الى القرن الثالث الهجرى .

(٢٨٧) أبو صالح الارمنى : تاريخ الشيخ أبى صالح ، ص ٢٦ .

(٢٨٨) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ١١٣ .

(٢٨٩) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٣٣ .

من قوص الى التجار فى الفسطاط وورد ذلك فى أشياء أرسلت الى أحد التجار منها العسل وأشياء أخرى[٢٩٠] .

ويصنعون الفقاع من العسل فى قوص ففى بردية أرسل السيد الى وكيله فى قوص تاريخها فى القرن الثالث الهجرى يقول له : اخرج ما فى أيديك من العسل لعمل فقاع لابى زكريا قسط واحد[٢٩١] والمعروف أن الفقاع نوع من الشراب يصنع من العسل ويسمى شراب العسل ويذكر ابن دقماق[٢٩٢] انه يعمل بقوص كيزان الفقاع التى لا يوازيهم شراب من نوعه ، وكانت كيزان الفقاع تصنع من نوع من الطين يوجد فى أسوان الذى استخدمت كيزانه فى سائر صعيد مصر[٢٩٣] .

ووجد فى أسواق قوص ودورها من يقوم بصنع الزلابية التى أقبل عليها الكثير وتصنع من الدقيق بعد عجنه وتخميره وقليه بالزيت حيث تؤكل بالعسل أو السكر[٢٩٤] وانتشرت فى الاسواق أنواع من الحلوى مثل الجوذاب[٢٩٥] التى كانت محببة ويقبل عليها الناس[٢٩٦] ومن أنواع الحلوى أيضا الخبيص الذى يصنع من دقيق الحنطة ثم يضاف اليه بعد الطبخ سكرا أو عسلا ويوضع على النار ليجمد[٢٩٧] كما وجدت النيدة وهى أن يطبخ القمح حتى يخرج نشاه فى الماء ثم

---

(٢٩٠) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٥ ، ص ١١١ .

(٢٩١) نفس المصدر ، جـ ٥ ، ص ١٤٧ .

(٢٩٢) الانتصار لواسطة عقد الامصار ، جـ ٢ ، ص ٣٤ .

(٢٩٣) أبو صالح الارمنى : تاريخ الشيخ ابى صالح ، ص ٢٦ ، الادفوى : الطالع السعيد ، ص ٣٣ .

(٢٩٤) الجواليقى : المعرب ، ص ٢٢٣ ، الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٢٥ ، ابن الاخوة ، معالم القربة ، ص ١٨٠ .

(٢٩٥) جوذاب كلمة فارسية تعريبها كوذاب .

(٢٩٦) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٤ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، وتعمل من السكر والارز والجوز واللحم .

(٢٩٧) عبد اللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار ، ص ٤١ .

يصفى ويطبخ بعد ذلك الماء حتى يغلظ ثم يوضع عليه الدقيق حتى يتماسك فيرفع عن النار وهى حلاوة القمح وتصنع كثيرا فى أنحاء مصر ، وأعجب المقدسى بحلاوة مذاقها[٢٩٨] ووجدت الكنافة التى تعمل وتؤكل فى الأسواق والبيوت[٢٩٩] .

وكان اللبن الغذاء الرئيسى للسكان ولوفرته كان يرسل بعضه الى الفسطاط كما أشارت الى ذلك أوراق البردى فى رسالة بعث بها أحد التجار بالفسطاط يطلب من وكيله أن يرسل اللبن اليه[٣٠٠] وكانوا يصنعون منه الجبن الذى كان يرسل الى الفسطاط أيضا وكانوا يأكلون الجبن مع اللبن وكان الغذاء الرئيسى للاطفال أيضا[٣٠١] واهتموا بأكل اللبن الرائب[٣٠٢] والجبن القريش[٣٠٣] وكان أكل السمك من أكلات سكان قوص الشائعة وخاصة فى أيام الفيضان حيث يصطادونه من النيل ومن الخلجان والقنوات والترع ويأكلونه ويبيعون منه الكثير ويملحون بعضه وينقلونه لبيعه فى القرى المجاورة[٣٠٤] .

وكثيرا ما كان يباع بسوق قوص الخبز الذى هو من أهم الوجبات عند عامة السكان وكان الفلاحون والعمال والصناع والحرفيون يشترون الخبز من الاسواق وعمرت أوراق البردى بكشوف حسابات تحوى قيمة شراء خبز من السوق فى خطابات من القرن الثالث

---

(٢٩٨) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٢٠٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٥٨ . البغدادى : الافادة والاعتبار ، ص ٤١ .

(٢٩٩) الادفوى : الطالع السعيد ، ص ١٨٢ .

(٣٠٠) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

(٣٠١) نفس المصدر ، جـ ٦ ، ص ١٧٣ ، ١٧٨ .

(٣٠٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٠ .

(٣٠٣) نفس المصدر ، ص ٤٢١ .

(٣٠٤) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٠٧ — ١٠٨ ، أبو صالح الارمنى : تارخ الشيخ ابى صالح ، ص ٢٥ .

الهجرى أرسلت من الصعيد الى صاحب الاقطاع المقيم بالفسطاط يقول صاحب الخطاب لسيده « أنا اشتريت الخبز من السوق »[٣٠٥] .

واهتم السكان بالخبز لأنه يدخل فى كل وجبة ولا يستغنى عنه أحد فى طبقات المجتمع المختلفة وهو نوعان نوع يصنع فى البيت وآخر فى السوق[٣٠٦] والنوع الجيد من الخبز الذى يترك عجينة حتى يختمر ثم يخبز وأجوده خبز الحنطة ويخبز بنخالة وبدون نخالة ، وهو غذاء جيد يوافق كل الأمزجة[٣٠٧] ومن أنواع الخبز التى يأكلها سكان اقليم قوص خبز الدرة وخبز الشعير الذى كان يأكله الفقراء من النـــاس[٣٠٨] .

واهتم العرب المقيمون بقوص بأكل الثريد وهو يتكون من المرق واللحم وقد يضاف اليه الحمص ويؤكل فى الغذاء والعشاء وأهم اللحوم عندهم ما كان من الابل ابن ثلاث سنين وقد دخل الرابعة[٣٠٩] ويكثرون من أكل ألبان الابل والغنم وما يعمل منها[٣١٠] ويذكـــر المقريزى[٣١١] انهم لا يدخرون شيئا من الزاد كما هى عادة غيرهم من سكان اللبدان ، بل يتناولون أغذية كل يوم من الأسواق بكـــرة وعشيا » وانهم يخبزون فى الرسانيق وقت البيار ما يكفيهم الى

---

(٣٠٥) جرومهان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ٤١ .

(٣٠٦) ابن الاخوة : معالم القربة ، ص ٩٠ .

(٣٠٧) ابن البيطار : الدرة البهية فى منافع الابدان الانســـانية ؛ تحقيق محمد عبد الاله الغزالى ، الطبعة الثالثة ، ص ١٦٥ .

(٣٠٨) الغزولى : مطالع البدور ، جـ ٢ ، ص ٤٣ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٧ .

(٣٠٩) الرازى : منافع الاغذية ودفع مضارها ، ط القـــاهرة ١٣٠٥ هـ ، ص ٤٦ .

(٣١٠) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٥ .

(٣١١) نفس المصدر ، ص ٥٠ .

عام قابل ثم ييبسونه ويخبئونه ولهم بادهيمات (نافذة أو كوة) مثل أهل الشام(٣١٢) .

ومن أهم مآكل السكان فى اقليم قوص اللحم وورد اللحم ضمن المأكولات فى اقليم قوص خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وعمرت به أسواق قوص(٣١٣) ومنها لحوم الضأن والبقر والابل والطيور وأهمها الدجاج سواء كان فراريج أو كبار(٣١٤) ووجدت أنواع اللحوم المشوية التى تباع فى الاسواق ومنها اللحم المشروح وأجوده ما شرح اللحم شرحا خفيفا ونثر عليه الملح وتنصب له مقلى على النار ويطرح عليه ويقلب حتى ينضج ويحمر(٣١٥) وهو المسمى بالكباب ووجد منه ما يعمل فى السوق وفى البيوت والكباب من الأكلات المتوفرة والرخيصة معا والأكلات المحبوبة ، وكان بائع الكباب يضع فى أقداح خاصة له ماء وملحا وقليلا من ماء الليمون ويغرقها على المشترين فى الأسواق كى يرشوها على الكباب بعد نضجه(٣١٦) وخضع هذا الكباب فى السوق لرقابة المحتسب لأن الباعة يغشون الكباب بأن يخلطوا ع الكباب الكلى والكبود حيث تشوى جميعا ثم تباع للناس(٣١٧) .

فضلا عن ذلك فكانوا يأكلون الرؤوس والأكارع وهى نوع من الأكلات الشائعة وكانت تباع فى الأسواق مطبوخة(٣١٨) ونيئة(٣١٩)

---

(٣١٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٧١ .

(٣١٣) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ٥٦ ، جـ ٦ ، ص ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٩٠ ، ١٩٦ .

(٣١٤) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٠٠ ، مطبعة الشرق ١٤٣٢ هـ .

(٣١٥) الغزولى : مطالع البدور ، جـ ٢ ، ص ٥٥ .

(٣١٦) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ٣٠ .

(٣١٧) نفس المصدر والصفحة .

(٣١٨) نفس المصدر والصفحة .

(٣١٩) ابن الاخوة : معالم القرية ، ص ١٠٥ .

وكان نائب المحتسب المقيم بقوص يبعث بمن يراقب الباعة حتى لا يخلطوا رؤوس المعز بالضأن(٣٢٠) وأكلوا الأرز مع اللبن أو مع السمن أو مع السكر وكان يقدم مع غيره من الأطعمة(٣٢١) وفى الأسواق وجد نوع من الهريسة يصنعونه من القمح بجانب اللحوم بعد اضافة البصل والتوابل بنسب محددة وتباع فى السوق(٣٢٢) ونظرا لاقبال الناس عليها فكان نائب المحتسب بقوص يراقب صناعة الهريسا ويلزم صناعها بعملها طبقا للنسب المقررة من اللحم والدقيق والبصل والتوابل ثم يختمون على قدور الهريسة بعد اتمام صناعتها لمنع تغيير ما فيها أو اضافة موارد أخرى اليها(٣٢٣) وتعد الهريسة من أفضل الأطعمة فى فصل الشتاء(٣٢٤) ويذكر المقدسى(٣٢٥) انهم كانوا يطبخون اللحوم مع البقول والخضر بأن تقطع مع البامية أو القلقاس ، ووجد بجانب ذلك ما ورد من أصناف المخللات وزيت الزيتون وزيت السمسم وغيره(٣٢٦) .

ولكثرة السمك وتعدد أنواعه كان رخيص الثمن وفى متناول كل طبقات المجتمع فكان العامة يقبلون على أكله ولا يقبلون على أكل اللحوم لرخص سعر السمك عن اللحم(٣٢٧) وكان نائب المحتسب يراقب باعة السمك فى الأسواق لئلا يخلطوا السمك الطرى بالسمك البائت أو يقلونه بالزيت المعتاد وخاصة المتغير الرائحة(٣٢٨) واستخدمت

---

(٣٢٠) نفس المصدر والصفحة .

(٣٢١) الغزولى : مطالع البدور ، جـ ٢ ، ص ٥٣ .

(٣٢٢) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ٣٦ .

(٣٢٣) نفس المصدر ، ص ٢٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٣ .

(٣٢٤) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٣٨ .

(٣٢٥) أحسن التاقسيم ، ص ٢٠٤ .

(٣٢٦) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٥ ، ص ٥٥ ، ٦٧ ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .

(٣٢٧) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٢٠٢ .

المقلى المصنوعة من النحاس فى قلى السمك كما استخدموا البرم(٣٢٩) ووجد السمك المملح وكان يسمى (الملوحة) حيث يكبس بالملح ، واذا كان السمك الصغير غير مملح فيسمى البسارية ، كما كان يؤكل مشويا ومقليـــا(٣٣٠) .

فضلا عن ذلك فاعتمد سكان الاقليم على تمر النخــل الذى كانوا يتغذون عليه كثيرا(٣٣١) وكانوا يصنعون خبز الكعك وكعــك الفلاحون يقومون بعمل هذا النوع من الخبز فى منازلهم ويعمل من جريس الحنطة ويجفف وهو أكثر أكلهم السنة كلها(٣٣٢) وكانــوا يطحنون الحبوب وحرص نائب المحتسب على مراقبة الطحــانين وشدد على ضرورة غربلة الغلة والعناية بتنقيها قبل طحنها ، ويوصى الطحانين أن لا يخلطوا الغلة بأنواع أخرى أقل قيمة من القمــح مثل الشعير أو الفول أو الحمص(٣٣٣) .

كما كانوا فى قوص يأكلون الخبــز اليابس ، وكان وســيلة للتعامل والتبادل ، فيشترى به الناس بعض الأشــياء ، وكانوا يدفعونه ثمنا لدخول الحمام(٣٣٤) وكان الفول من الأطعمة التى أقبل عليها الناس وكانوا يأكلونه أخضر(٣٣٥) كما كان يؤكل مسلوقا بعد

---

(٣٢٨) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٣٩ .

(٣٢٩) البرم : جمع برمة والبرمة هى ما يطلق على القدر وهى فى الأصل متخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن وفى اقليم قوص كانت تصنع من طين هناك ثم يحرق فى النار ويصبح صالحا للاستعمال ، ابن منظور : لسان العرب ، ص ١٢ .

(٣٣٠) المقريزى : الخطط جـ ١ ، ص ١٠٨ .

(٣٣١) نفس المصدر ، ص ٤٣ .

(٣٣٢) نفس المصدر ، ص ٤٥ .

(٣٣٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٢١ ، ابن الاخوة : معالم القرية ، ص ١٥٢ .

(٣٣٤) المقريزى : اغاثة الامة ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٣٣٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ، ص ١٠١ .

اضافة الفلفل والملح والبهارات(٣٣٦) وأحيانا كان يطبخ بالسمن واللبن ويطلق عليه البيسار(٣٣٧) وغمر سوق قوص بالباعة الجائلين الذين يطوفون بقدور الفول على عرباتهم وبين الدروب لبيعه(٣٣٨) .

وأهتم سكان قوص بأكل الترمس بعد سلقه(٣٣٩) ويملح بعد سلقه(٣٤٠) وكما كان يباع الحمص المسلوق فى أسواق قوص(٣٤١) بجانب الترمس والحلبة والعدس الأسود والمقشر(٣٤٢) وورد فى كشف حساب أحد الوكلاء المقيم باقليم قوص لسيده المقيم بالفسطاط استهلاك عدس وعدس مقشر(٣٤٣) فضلا عن ذلك فكان السكان يأكلون « الكشك » الذى كان يباع فى سوق قوص ويعرف بالكشكية(٣٤٤) وهو ما هرس من الحنطة أو الشعير حتى ينسلخ قشره ويضاف اليه اللبن وأحيانا يطبخ باللحم(٣٤٥) ووجدت فى كشوف حسابات أحد الوكلاء فى القرن الثالث الهجرى والتى كشفت فى قوص اسم الكشك(٣٤٦) .

واشتهر سكان الاقليم بأكل العصيدة التى يصنعونها من دقيق الفول المشوى أو القمح ، حيث يعجن بالماء أو الزبد المصفى أو دهن

---

(٣٣٦) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١١٩ .
(٣٣٧) نفس المصدر ، ص ٢٣ .
(٣٣٨) الغزولى : مطالع البدور ، ص ٢٣ .
(٣٣٩) ابن البطار : الدرة البهية ، ص ١٣٤ .
(٣٤٠) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٢٠٤ .
(٣٤١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣١ .
(٣٤٢) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٣٩ .
(٣٤٣) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٥ ، ص .
(٣٤٤) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، جـ ٣ ، ط القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٩٨ .
(٣٤٥) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ط القاهرة ١٣٤٢ ، ص ١٠٠ .
(٣٤٦) جروهمان : أوراق البرد ى، جـ ٦ ، ص ١٧٣ .

ذيل الرخاف ، وأكل السويق مهما عندهم الذى كان من حب القمح الأخضر المشوى المدقوق والمخلوط أحيانا بالملح أو السكر ويؤكل فى الأسفار حينما يصعب الطبخ[٣٤٧] والأثرياء اهتموا بجانب ذلك بتوافر اللحوم فى وجباتهم فكانوا يأكلون اللحوم بأنواعها كالخراف[٣٤٨] ويذكر المقريزى[٣٤٩] أن كثير من الناس يكثرون من أكل اللحـــوم فى الأعياد والاحتفالات التى كانت تنصب فيها الموائد فيكثر فيهم التخم ويمرضون أمراضا متشابهة .

ومن كشف حساب أحد الوكلاء الوارد بأوراق البردى بقوص يتضح أن لحم الغنم كثير فى قوص فيقول له فى رقعة كتبها الى سيده فى القرن الثالث الهجرى « والغنـــم كثيرة بالبلد »[٣٥٠] ويقـــول المقريزى[٣٥١] عن أهل قوص أن مأكلهم الكباس البرقية ، وكان أهل قوص يهتمون بأكل اللحوم فيصنعون منها أنواعا مختلفة وخاصـــة المشويات وكانوا يقدمون الطعام مرة واحدة ليأكلون ما يشتهون منه[٣٥٢] واعتادوا غسل أيديهم قبل الأكل وبعده ، واســـتخدموا الطشت والابريق لغسل أيد الضيوف[٣٥٣] .

وتقدم الحلويات بعد الأكل ومن أنواعها خبيص البقطين ، وخبيص الجزر ، والوردية المصنوعة من الورد والزنجبيلية المصنوعة من الزنجبيل[٣٥٤] والفالوذج[٣٥٥] وكان مأكلهم على الأرض على

---

(٣٤٨) Dozy : Supplement aux dectionnaires Arabes. p. 706

(٣٤٨) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٧ .

(٣٤٩) نفس المصدر ، ص ٤٥ .

(٣٥٠) جروهمان : أوراق البرد ى، جـ ٥ ، ص ٨١ .

(٣٥١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٧ .

(٣٥٢) الابشيهى : المستطرف ، جـ ١ ، ص ١٤٩ .

(٣٥٣) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، ص ١١٩ .

(٣٥٤) عبد اللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار ، ص ٤٢ .

(٣٥٥) وهى نوع من الحلوى من الدقيق والماء والعسل ويسمى (البالوظة) ، المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٩٨ .

شكل دائرة وحولها الآكلون وتفرش الأرض بحصير من الخوص أو سعف النخيل[٣٥٦] أما اليهود فاعتادوا الأكل على الأرض من طبق واحد كبير ثم يتبادلون عبارات المجاملة مثل (بالهناء والشـــفاء) ويجلسون فى دائرة[٣٥٧] .

أما المنشآت التى تخدم المجتمع فوجد منها فى قوص الحمامات كما وجد منها فى المساكن المجاورة نظرا لأهميتها ومنها حمامات الرجال وأخرى للنساء وهى عامة تستخدم للاستحمام والنظافة لأنه لم تكن بدور جميع السكان حمامات ، ووجد فى قوص حمام عام يفد اليه الناس للنظام وبالحمام مشرف يتولى الاشراف على الحمام وأخــذ الأجرة التى لا تتعدى درهما وبالحمام حجرات ماء باردة وساخنة وأرضيات الحمام مفروشة بالرخام ليسهل تنظيفها ، وبنى الحمــام من الأجر والحجر وكان الموقد الذى يسخن المياه خلف الحمام حيث يسخن الماء فى قدور نحاسية كبيرة ويمر الماء والبخار عبر أنابيب فخارية ، وخضعت هذه الحمامات لاشراف نائب المحتسب المقيم بقوص ، وكان الاستحمام فى الحمام مظهر للسلوك الاجتماعى العام ويذكر الشيزرى[٣٥٨] ان أبواب حمامات النساء يجب أن تكـــون واسعة لحفظ الملابس قبل الدخول للاغتسال وتوضع فيها دكة عليها الملابس يجلس عليها (القيم) لمراقبة الناس خوفا من السرقة .

ويجب على الرجل الذى يدخل الحمام للاغتسال أن يضع مئزرا على وسطه ، وكانت المآزر تؤجر عند القيم[٣٥٩] ووجد المدلك والحلاق (الحجام) وهو موجود دائما فى الحمام ويستخدمون المحاك التى يحكون بها أجسامهم وأرجلهم[٣٦٠] ومن وثائق البردى العربية التى

---

(٣٥٦) الغزولى : مطالع البدور ، جـ ٢ ، ص ٦٤ .

(٣٥٧) قاسم عبده قاسم : اليهود فى مصر ، ص ٦٦ .

(٣٥٨) نهاية الرتبة ، ص ٨٧ .

(٥٩) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٨٧ .

(٣٦٠) السقطى : فى آداب الحسبة ، ص ٦٧ .

كتبت فى القرن الثالث الهجرى بقوص كشف حساب به ثمن أجـــرة المزين (الحلاق)[٣٦١] لأن الحلاق يأخذ أجرته خاصـــة وقدرها درهمين .

وأورد الشيزرى[٣٦٢] القائمين بالعمل فى الحمام ومنهم بجانب القيم ، الوقاد الذى يقوم باشعال نار التسخين ، والزبال الذى يتولى تنظيف الحمام ، والحلاق (الحجام) الذى يتولى حجم المرضى ويقوم فى نفس الوقت بالحلاقة أيضا[٣٦٣] ويذكر الشـــيزرى أن الحلاق (الحجام) بأجر غير أجر دخول الحمام[٣٦٤] وتفتح الحمامات أبوابها فى الصباح الباكر وتستمر مفتوحة حتى الغروب ويمنع من دخول الحمام المجذوم والأبرص[٣٦٥] ويذكر الاصطخرى[٣٦٦] ان أطيب الحمامات ما كان على شط النيل .

فضلا عن ذلك فوجد فى قوص البيمارستانات وذكر ابن دقماق انه بقوص بيمارستانا وحماما[٣٦٧] والبيمارستانات توفر الخدمات العلاجية والطبية للمرضى من العامة ، واشتمل البيمارستانات على قاعات مختلفة مثل قاعة للرجال وأخرى للنساء وفيه موضع للادوية والأشربة ومكان للكحالين[٣٦٨] ووفر هذا البيمارستان العلاج للحجاج والتجار والقادمين من الغرباء الذين يعطون السكن به لمدة ثلاثة أيام ،

---

(٣٦١) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٦ ، ص ١٧٣ .
(٣٦٢) نهاية الرتبة ، ص ٨٨ .
(٣٦٣) هلال الصابى : رسوم الخلافة ، ص ١٩ .
(٣٦٤) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٨٨ .
(٦٥) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٨٧ ، ابن الاخوة : معالم القرية ، ص ١٥٠ .
(٣٦٦) مسالك الممالك ، ص ٣٥ .
(٣٦٧) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٢ ، ص ٢٩ .
(٣٦٨) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٠٦ .

وأوقفت الاوقاف من أهل الخير على البيمارستانات مما يدل على أن استغلالها كان كمرافق عامة تسهم فى تأدية خدمة طبية للمجتمع .

بجانب الحمامات والبيمارستانات وجد فى قوص ومدن الاقليم كثير من المكاتب لتحفيظ القرآن فيذكر ابن دقماق(٣٦٩) انه كان باسنا مدرستين وبقوص ستة عشر مكانا للتدريس وكان يتم تحفيظ الصبية القرآن الكريم والقراءة والكتابة وبعض من الحساب ، كما كان اليهود يتولون تعليم أبنائهم فى المعابد اليهودية المسمى (الكنيس) وخصصوا يوم السبت وأيام العطلات للدراسة وورد فى أوراق الجنيزة الى رسالة أرسلها أحد المعلمين الى رئيسه بالفسطاط يخبره بأنه جمع شبابا وأولادا فى الكنيس بعد أن أنهى درسه ورقص معهم رقصة الزهدى(٣٧٠) وكان القبط يتولون تعليم أبناءهم فى دور العبادة وكنائسهم بجانب ما يقوم به الأب من تعليم أبنائه فى داره ، وتشير أوراق البردى الى رسالة كتب فى القرن الثالث الهجرى من قوص يطلب فيها صاحبها كتبا من الفسطاط للتدريس(٣٧١) .

أعياد سكان قوص ومواسمهم :

شهد القرن الثالث والرابع الهجريين امتزاجا واضحا فى عناصر المجتمع وطوائفه ، خاصة بعد أن أسقط الخليفة المعتصم بالله العباس العرب من ديوان العطاء ٢١٧ هـ ، فقد بدأ العرب ينزحون الى الريف ويستقرون به ، ومارسوا حرفة التجارة والزراعة ، وامتلكوا الأراضى الزراعية ، وبذلك تحولوا من طبقة حاكمة الى عناصر مختلطة بالمصريين ، فتزوجوا بناتهم وشاركوهم أعمالهم ، وكان لقبيلة ربيعة التى استقرت فى مصر وفى صحرائها فى وادى

---

(٣٦٩) الانتصار ، جـ ٢ ، ص ٢٩ .

(٣٧٠) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى والنظم الاسلامية ، ترجمة عطية القوصى ، ط الكويت ١٩٨٠ ، ص ١٥٠ .

(٣٧١) جروهمان : أوراق البردى ، جـ ٥ ، ص ٧٥ .

العلاقى ثم الهلاليون أثر كبير فى وضوح هذا الامتزاج[٣٧٢] كما سكنت قبيلة جهينة فى منطقة المعادن فى القرن الثالث الهجرى[٣٧٣] وانتشروا فى بلاد النوبة .

كان هذا الاندماج فى عناصر المجتمع أثره فى المشاركة فى الأعياد الاسلامية وغير الاسلامية ، على الرغم من انه كان للمسلمين أعيادهم ، ولأهل الذمة أعيادهم ، وشاركوا بعضهم البعض فاحتفل المسلمون فى قوص بعيدى الفطر والأضحى احتفالا اسلاميا ، ففى عيد الفطر الذى يعقب صيام شهر رمضان احتفل به المسلمون احتفالا متميزا فقد أهتم أهل الصعيد بالاحتفال بشهر رمضان حيث كانت الموائد تعمل طوال شهر رمضان أمام المسجد الجامع ، كما كان ذلك أيضا أمام دور المسلمين الأثرياء ليتسنى للفقراء والعابرين تناول الافطار جلبا للثواب حيث يأكل الفقراء والمحتاجون ويحملون معهم الى أولادهم مما قدم لهم من طعام[٣٧٤] وخلال شهر رمضان تزين المساجد بالقرى والكفور وتضاء ليلا كما كان المسجد الكبير يضاء ليلها بقوص ، ويمنع المسيحيون من بيع الخمور وتختم حوانيتهم طوال شهر رمضان[٣٧٥] ويستقبل العامة فى سائر مدن وقرى الاقليم شهر رمضان بالبهجة والفرح وتزدحم المساجد بالمطين والمتعبدين ، وتزخر الأسواق بأنواع السلع والحركة ، ويعم الفرح الجميع حيث يتهيئون لعيد الفطر بشراء الملابس الجديدة ولذلك كانوا يسموه عيد الحلل[٣٧٦] .

---

(٣٧٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٩٠ ، القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب ، ص ٢٢١ .

(٣٧٣) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٣٤ .

(٣٧٤) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، القسم الخاص بمصر ، ص ١٦ . البلوى : سيرة احمد بن طولون ، ص ١٣٤ .

(٣٧٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٦ .

(٣٧٦) نفس المصدر ، ص ٩٥ .

وفى عيد الفطر يبدأ المسلمون بأداء صلاة العيد فى الخــلاء وعند عودتهم يبدأون بالاحتفال بالعيد حيث يكونون قد جهــزوا أصناف الحلوى[٣٧٧] والملابس الجديدة لهم ولاولادهم[٣٧٨] ويتزاورون صباح يوم العيد فضلا عن قيــام حفلات السمر والغنــاء ويذكر المقريزى[٣٧٩] انه تسمع الأبواق والطبول تملأ أرجاء المدينة ، كما كانوا يمارسون ألوانا من الأنشطة كالصيد وألعاب الفروســية ، كما يتبادل النــاس الهــدايا فى يوم العيــد ويدخلون السرور على أولادهم ونســائهم[٣٨٠] .

واهتم الناس بدخول الحمامات تهيئا للعيد سواء فى عيد الفطر أو عيد الأضحى الذى هو العيد الكبير عند المسلمين ، وهو عيــد النحر ، ويهتم به المسلمون فى سائر أنحاء اقليم قوص حيث ينحرون الخراف وتوزع لحومها على الفقراء والمحتاجين ، وتنصب الموائد ليتناول العامة وغيرهم من لحم الأضحية ، وكثير من الأثرياء كان يوزع الأكسية على الفقراء وتسمى كسوة عيد النحر[٣٨١] وفى يومى العيد يشترك أهل الذمة بأنواع المبيعات من المأكولات والحلوى والألعاب وغيرها .

وخلال أيــام العيدين يوقد التجار الاشموع بحوانيتهم[٣٨٢] وتكثر الأنوار فى الطرقات والدروب والمساجد[٣٨٣] وتظل أســواق الطعام مفتوحة طوال الليل ، ويكثر أهل الخير من توزيع الصدقات

---

(٣٧٧) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٧٦ .
(٣٧٨) ابن الداية : المكافأة ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .
(٣٧٩) الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٢ .
(٣٨٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ٦٠ .
(٣٨١) المقرزى : ايقاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٩٥ .
(٣٨٢) ابن بطوطة : تحفة النظار ، جـ ١ ، ص ٥٤ .
(٣٨٣) ابن الحاج : المدخل ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ .

ويذهبون الى مقابر المدينة رغم أن نائب المحتسب نهى عن ذلك[٣٨٤] .

واحتفل المسلمون فى اقليم قوص أيضا برأس السنة الهجرية حيث يبدأ الاستعداد به فى أواخر شهر ذى الحجة ،ويحتفلون به باحياء ليلة بالذكر والانشاد واضاءة المساجد ، وعقد الندوات الدينية والمواعظ بالمساجد الكبيرة فى المدن والقرى كما احتفلوا بذكر مولد الرسول ﷺ حيث يبدأون الاحتفال به بعد صلاة ظهر اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، ومن مظاهر الاحتفال به الخروج الى المساجد لسماع المواعظ والأحاديث النبوية ، كما يحتفلون به دورهم باعداد الأطعمة وغيرها ويدخلون السرور على أولادهم ، كما تعمر الأسواق بأصناف الأطعمة والحلوى والمشروبات[٣٨٥] .

على أن اهتمام سكان اقليم قوص بأعيادهم راجع الى أنهـا أعياد اسلامية يريدون من خلال الاحتفال بها التنفيس عن حياتهم الاجتماعية التى تخلو من البهجة فى القرى خاصة ولكونهم ينشغلون طوال العام بأعمالهم فى التجارة والزراعة وغيرها فلذلك احتفلـوا بليالى الوقود وهى أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه حيـث تضاء المساجد من الخارج والداخل وكذلك المآذن ، واعتاد المسلمون توزيع أصناف الطعام على الفقراء والمحتاجين ، كما احتفلوا بهـا بالوعظ والذكر وقراءة القرآن[٣٨٦] .

فضلا عن ذلك فكان قبط مصر يحتفلون بأعيادهم أيضا التى عددها المقريزى بأربعة عشر عيدا[٣٨٧] منها الأعياد الكبار وهى سبعة عيد البشارة وعيد الزيتونة وعيد الفصح وعيد خميس الاربعـين وعيد الخميس وعيد الميلاد وعيد الغطاس ، والسبعة الصغار وهى عيد الختان وعيد الاربعين وخميس العهد وسبت النور وأحد الحدود

---

(٣٨٤) ابن الاخوة : معالم القربة ، ص ١٨٣ .

(٣٨٥) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٣٨٦) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٦٦ .

والتجلى وعيد الصليب ، وحرص المسيحيون بقوص على الاحتفال بهذه الأعياد فيخرجون بما يتفق وكل عيد عن شعائره ويذهبون الى الكنيسة يحملون سعف النخيل فى عيد الزيتونة بصفة خاصة وتزين الكنائس ، أما عيد الفصح فهو العيد الكبير عندهم وكان من أهم ما يشغل اهتمامهم وفى عيد الغطاس جرت عادتهم فى قوص وسائر مصر أن يغمسون أولادهم فى الماء يوم الحادى عشر من طوبة وينزلون فى النيل بأجمعهم ولا يكون ذلك الا فى شدة البرد ويسمونه بيوم الغطاس[٣٨٨] .

أما الأعياد الصغار فأهمها خميس العهد وهو قبل الفصح بثلاثة أيام ويسمونه أيضا خميس العدس حيث يطبخون فيه العدس المصفى ، ويهادى النصارى بعضهم بعضا ، ويهدون الى المسلمين أنواع السمك ، وفى سبت النور تشعل مصابيح الكنيسة كلها ويكون ثالث يوم من خميس العهد ، واعتاد المسيحيون فى قوص انهم يجددون الأثاث فى عيد حد الحدود حيث يبدأون فى مباشرة أعمالهم ومعايشهم لأنه يأتى فى أول أحد بعد الفطر[٣٨٩] .

وفى هذه الأعياد شارك المسلمون المسيحيين فى الاحتفال بها وهم يعلمون انها مختصة بأهل الكتاب[٣٩٠] ويتزاور المسلمون والمسيحيون فى قوص فى أيام هذه الأعياد ، وهذا من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية التى يسودها الود والاحترام ، ونرى ذلك واضحا فى أعياد المسيحيين التى يحتفلون بها وتحتفل بها مصر منذ القدم عيد النيروز الذى هو يوافق أول توت وهو رأس السنة القبطية وأخذ القبط هذا الاسم

---

(٣٨٧) نفس المصدر ، ص ٤٦٢ .

(٣٨٨) نفس المصدر ، ص ٢٦٦ .

(٣٨٩) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٦ .

(٣٩٠) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٦٦ .

عن الفرس فالنـيروز(٣٩١) من أعياد الفرس وأخـذها المسيحيون وأطلقوها على رأس السنة القبطية(٣٩٢) وجرت العادة انهم يصنعون الكعك فى هذا العيد ويقدمونه للناس(٣٩٣) وكان القبط يتراشون بالماء فى هذا اليوم ويتصافحون ، ويجتمع العامة فى الطرقات ويلعبون ويمرحون(٣٩٤) كما يخرجون الى شاطىء النيل للنزهة والتفرج ، وجرت العادة أن العامة يضرب بعضهم بعضا حتى أن الوالى لا يحكم لأحد لأنه أصبح من الأشياء المألوفة ، وجرت عادة المسلمين فى هذا اليوم أن يشاركوا الاقباط اللعب والتراش بالماء وادخال السرور على أولادهم(٣٩٥) .

أما طائفة اليهود الموجودة فىاقليم قوص فاحتفلت بأعيـادها الخاصة فى ظل سياسة التسامح التى سـار عليها ولاة الاقليـم تجاه أهل الذمة ، فسمحوا لهم بالاحتفال بأعيادهم ، وكانت لليهود خمس أعياد احتفلوا بها وهى عيد الفطر وعيد الاسابيع وعيد رأس الشهر وعيد هو ماريا وعيد المظلة ، وكلها أعياد دينية احتفلوا بهـا فى معابدهم المنتشرة فى قوص ونواحيها وفق شعائرهم(٣٩٦) واحتفلوا

---

(٣٩١) نيروز أو نوروز كلمة فارسية ويعنى أول يوم من السنة الشمسية ومعناه اليوم الجديد ، وأريد به يوم فرح وتنزه ، وقالوا ان اليوم الجديد يطلق على يومين من أيام السنة يقال للاول نوروز العامة والثانى نوروز الخاصة فنوروز العامة هو اليوم الأول من شهر فروردين الذى يسمى فرواد وأعياد الفرس فى الايام الستة بين نوروز العـامة ونوروز الخاصة وفيه يجيبون الى سؤال المحتاجين ، ويطلقون فيـه المحبوسين وفى طقوس السريان الشرقية الأحد الأول من أسابيع القبط — انظر السيد ادى شير ، الالفاظ الفارسية المعربة ، ط بيروت ١٩٨٨ ، ص ١٥١ : ١٥٢ .

(٣٩٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ .

(٣٩٣) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٢ ، ص ٣٩ .

(٣٩٤) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٢ .

(٣٩٥) ابن الحاج : المدخل ، جـ ٢ ، ص ٤٩ .

(٣٩٦) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٦٤ .

بأعيادهم الخاصة مثل احتفالهم بيوم السبت حيث لا يطبخون فى بيوتهم سوى وليمة السبت[٣٩٧] .

أما الأعياد الخاصة التى احتفل بها سكان قوص فهى احتفالهم بالمولود الذكر حيث يحتفلون به فى اليوم التالى لولادته واليوم السابع فيقام الاحتفال بالمنزل ويخرج المولود ويقص شعره وتنحر الشاة التى تخصص لهذا الغرض وتسمى العقيقة ويحتفل به تبعا لثراء الشخص ومكانته[٣٩٨] وخلال ذلك تقوم النساء بالزغاريد وضرب الدفوف والغناء وحرصوا على عمل ألوان الطعام الفاخرة[٣٩٩] وهذا من الاحتفالات الدينية الاسلامية .

واحتفلوا أيضا بالختان وهى عادة منتشرة بين المسلمين والمسيحيين[٤٠٠] وكان المسيحيون يحرصون على ختان أطفالهم ويذكر أبو صالح الأرمنى[٤٠١] انه لابد لتنصير الطفل من ختانه ، وهى عند المسلمين من المناسبات الهامة التى يحرصون على الاحتفال بها بتقديم الولائم والنذور[٤٠٢] ويشترك فى هذا الاحتفال الأهل والأصدقاء كما تقدم فيه النقوط[٤٠٣] .

ومن احتفالاتهم الخاصة احتفالهم بالمآتم ، فكانوا يسيرون وفق ما تشير به السنة النبوية ، فاذا ما توفى مسلم فيغسل ويكفن ويدفن خارج منازل المدينة ، فى مكان مخصص لهذا الغرض ، ويتم ذلك بمعرفة أهل الميت ، واذا كان من الفقراء فيتولى ذلك أهل الخير من

---

(٣٩٧) قاسم عبده قاسم : اليهود فى مصر ، ص ٦٦ .
(٣٩٨) الغزولى : مطالع البدور ، ج ٢ ، ص ٤٤ .
(٣٩٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣١٩ .
(٤٠٠) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٩ ، ص ٧٤ ، ٧٥ .
(٤٠١) تاريخ الشيخ ابى صالح ، ص ٥٩ .
(٤٠٢) الغزولى : مطالع البدور ، ج ٢ ، ص ٤٢ .
(٤٠٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٥٨٠ .

المسلمين ، وكان موتى الفقــراء يكفنون من الأمــوال المخصصة للاوقاف[٤٠٤] ويتم الاعلان عن المتوفى عن طريق النداء فى الأسواق عن شخص المتوفى وموعد الجنازة[٤٠٥] ثم يخرج المشيعون خلف الجنازة حيث يحمل المتوفى على محفة ويسيرون مترجلين وكان عدد المشيعين يتناسبون ومكانة المتوفى الاجتماعية أو القبلية ، وجرت العادة على خروج النساء خلف الجنائز سافرات الوجوه ويندبن البكاء والعويل ، وكان اللون الاسود هو السائد خلال الجنائز[٤٠٦] .

ثم بدأالناس فى أوائل النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى يتخذون اللون الأخضر فى الملبس من مظاهر الحداد ، كما كان خلع العمامة من مظاهر الحزن أيضا فضلا عن لبس اللثام المعبر عن الحزن أيضا خلال تلك الفترة[٤٠٧] وجرت العادة أن تغلق الحوانيت عند مرور الجنازة تكريما للمتوفى ووجد بعض النساء من يقمن بتسويد وجوههن والصياح أثناء مرور الجنازة وبعد الدفن الى أن يعودوا الى دورهم[٤٠٨] .

وأهتم الناس بشاركة أهل الميت أحزانهم حيث يجتمع أهل الميت ويستقبلون المعزين الذين يفدون من القرى المجاورة ، وكانت قراءة القرآن من أهم مظاهر مجلس العزاء للترحم على الميت كما كانوا يقرأون القرآن على قبر الميت لمدة شهر ، وكان أهل الميت يترددون لزيارة موتاهم أيام الأعياد حيث يخرجون فى الصــباح ويوزعون الصدقات على الفقراء والمساكين[٤٠٩] ويستمر مجلس العزاء

---

(٤٠٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ .
(٤٠٥) المسبحى : أخبار مصر ، ص ٢٢٤ .
(٤٠٦) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠٩ .
(٤٠٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٦٣ .
(٤٠٨) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٥ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ١٤ .
(٤٠٩) البلوى : سيرة احمد بن طولون ، ص ١٦٨ .

طوال ثلاثة أيام للفقــراء ويمتد الى شهر بالنســبة لذوى المكانة الاجتماعية والقبليــة ويكون مجلس العزاء مجالا لالتقاء العلمــاء والفقهاء لوعظ الحاضرين وتبصيرهم بأمور دينهم[٤١٠] .

أما أهل الذمة فيتولى زعيم الطائفة الدينى باجراء مراســم الدفن فيقوم بطريرك الطائفة التابع لها بغسل الميت وتجهيزه اذا كان ذو مكانة بينهم ، واذا كان من العامة فيقوم أحد القساوسة بهذه المهمة[٤١١] كما ساروا على عادة زيارة المقابر فى الأعياد والمواسم وليالى الوقود الأربع[٤١٢] كما أن المسلمين شاركوا أهل الذمة العزاء فى موتاهم ، وكذلك كان المسيحيون يشاركون المسلمين فى هــذه المناســبة .

الاحتفــال بالــزواج :

من أهم احتفالات الأفــراح عند سكان قــوص احتفالاتهم بالزواج التى تمثل مظهرا خاصا من مظاهر الفرح والسرور ، ونظرا لتنوع عناصر المجتمع وطوائفه ، فكل طائفة احتفلت بالزواج احتفالا خاصا متميزا بها ، فالمسلمون أضفت على احتفالاتهم بالزواج الطابع الاسلامى ، عندما يشرع الأب فى ترويج ابنه يحرص على اختيار زوجة له من بنى أقاربه أو قبيلته حرصا على الترابط الاجتماعى الذى تميز به سكان الاقليم ، ويبدأ الاحتفال بالزواج بعقد القران الذى يجمع الأهلين حيث يتم العقد فى احتفال كبير يخصص له موعــد ويعقد أمام الدور حيث يجلسون ويتقبلون التهانى ويتناولون الأطعمة وغيرها ، وتنحر الذبائح فى هذه المناسبة ، وكان والد العريس يدفع مهرا يتفق عليه ويسلمه الى والد العروس[٤١٣] .

---

(٤١٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٥٧ ، ٦٧ .

(٤١١) نفس المصدر ، ص ٧٥ .

(٤١٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٥٠ .

(٤١٣) ابن الداية : المكافاة ، ص ٢٠٥ .

ويسجل فى عقود الزواج مقدار الصداق المسجل والمؤخر ويوقع على العقد الزوج أو الزوجة أو من ينوب عن كل واحد منها على حدة ، وتشير أوراق البردى العربية الى ما كان يسجل فى هـذه العقود ففى بردية يرجع تاريخها الى ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م ورد بها توصيات بحسن الصحبة والامساك بمعروف أو التسريح باحسان وببعضها اشتراطات للزوجة بأن يكون لها حق طلاق أية أمرأة يتزوجها بعدها ، وبيع أية جارية يتخذها زوجها بعد زواجها(٤١٤) وحرص البعض على أن يعقد القران فى المساجد(٤١٥) .

وتختلف مظاهر الاحتفال باختلاف مركز الزوج الاجتماعى ويتولى الزوج تجهيز أثاث الزوجية حيث ينقل الى سكن الزوجة فى حفل كبير يحضره الأقارب والأصدقاء ويتضمن أثاث الزوج (الشوار) من الدكك التى هى عبارة عن سرير يعمل من الخشب المدهون وبعض أدوات المطبخ كالقدور والصوانى والطشت والابريق والأقداح الكاسات والكيزان وبعض الأوانى النحاسية(٤١٦) فضلا عن بعض الصناديق والكراسى والمفارش والحصر وحوت قوائم الحسابات بأوراق البردى العربية من القرن الثالث الهجرى والتى كتبت باقليم قوص تلك الأشياء(٤١٧) .

حرص المسلمون على اقامة الولائم فى ليلة الزفاف للأهل والأصدقاء وهى أهمولیمة وتسمى وليمة العرس وتخصص واحدة للرجال وأخرى النساء ، ثم يخرج العريس قاصدا بيت العروس فى موكب كبير وخلال ذلك كانت تقام الزغاريد والغناء وضرب الدفوف والجميع يرتدون أبهى الحلل سواء من الرجال أو النساء اللائى

---

(٤١٤) جروهمان : أوراق البردى العربية جـ ١ ، ص ٧٣ ، ٨٨ التى يرجع تاريخها الى ٢٧٩ هـ .

(٣١٥) ابن الحاج : المدخل ، جـ ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٤١٦) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٧٩ .

(٤١٧) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

يتحلين بالمجوهرات الثمينة(٤١٨) وبهذه المناسبة تقدم الهدايا والتحف ومن أهمها الخراف التى حرص على تقديمها سكان قوص فى هذه المناسبة فضلا عن تقديم النقوط(٤١٩) .

أما العروس فتتزين وترتدى أفخر الثياب ، وفى هذه المناسبة جرت العادة على أن يلبسوا جميعهن ثيابا جديدة وتلبس العروس شربوشا(٤٢٠) وتتولى الماشطة تزيين العروس واستخدمت كثير من أدوات الزينة كالكحل والبخور والذهب والفضة ، وتقام الزينات ببيت العروس لاستقبال العريس ومن يقوم باحضارها(٤٢١) وكان كثير من اليهوديات يعملن بحرفة الماشطة فى اقليم قوص(٤٢٢) ثم يأخذ العريس عروسه الى منزل الزوجية وجرت العادة أن يطوفون أنحاء المدينة وسط ضرب الدفوف والطبول والمنشدين ، وكان نصارى اسنا يقومون بهذه المهمة حيث يزفون العريس منشدين أناشيد اختصوا بها ويذكر أبو صالح الأرمنى(٤٢٣) انه جرت عادة المسلمين خاصة على دعوة نصارى اسنا للقيام بهذه المهمة ، ودعوة أصدقائهم لحضور الفرح وكان النصارى يقومون بالغناء بالقبطية الصعيدية أمام موكب العروس ويمشون فى الأسواق يزفونها والغناء فى الأفراح لا يستغنى عنه ويتساوى فيه الأغنياء والفقراء وأهل الحضر والقرى والمسلمون وأهل الذمة(٤٢٤) .

---

(٤١٨) المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ، ص ٦٠١ .

(٤١٩) نفس المصدر ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٤٢٠) الشربوش اشبه بالتاج على الرأس وهو عبارة عن قلنسوة طويلة وهى كلمة فارسية معناه غطاء الرأس ، انظر السيد ادى شير : كتاب الالفاظ الفارسية المعربة ، ص ٩ .

(٤٢١) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٢٨٦ .

(٤٢٢) نفس المصدر والصفحة .

(٤٢٣) تاريخ الشيخ صالح ، ص ١٢ .

(٤٢٤) ترينتو ن : أهل الذمة ، ص ١٧٠ .

وسـائل اللهـو وقضاء أوقات فراغهم :

اهتم سكان قوص باللهو واللعب وخاصة فى أيام الأعياد حيث يجتمع الكبار والصغار ويقصدون أماكن النزهة التى كانت فى الغالب على شاطىء النيل حيث يقومون برياضة التحطيب والمصارعة بين انسان وآخر أو بين انسان وحيوان[٤٢٥] وكان يحضرها الكثير من الناس للمشاهدة ومن ذلك ما وجد على طبق من الخزف رسم يمثـل رجلان يتصارعان والى اليمين رجلان يتابعان المصارعة وعن شمالها أيضا وهما يرفعان أيديهما[٤٢٦] .

فضلا عن ذلك فاهتم السكان بهواية الصيد والقنص لمـا تميز به الاقليم من أنواع الحيوانات التى عرفت بها صحراء قوص ، فكانوا يصيدون بطائر الباز ، وتجلى ذلك واضحا من الرسوم التى نقشوها على آثارهم ففى رسم يوضح صيادا يمسك بازا ويمتطى حصانا وبالقرب منه محارب يمسك رمحا ودرعا ، وجملا يحمل هودجا تطل منه سيدة[٤٢٧] كما وجدت كثير من مناظر الصيد والقنص ووجد رسم لبعض الفرسان الذين يهاجمون الوحوش وبعض الرجـال يهاجمون أسدا مستخدمين الرمح فى هجومهم عليه[٤٢٨] مما يدل على انتشار هذه الظاهرة فى المجتمع خلال ذلك العصر .

واعتادوا على التنزه وقضاء أوقات الفـراغ على شـواطىء الأنهار فى المواسم والأعياد حيث يلعبون ويرقصون وأهم ألعابهم التحطيب التى انتشرت فى اقليم قوص[٤٢٩] كما أهتم أهل الذمـة

---

(٤٢٥) ابن سعيد : النجوم الزاهرة ، ص ٥٨ .

(٤٢٦) عبد الرؤوف يوسف : الرسوم الادمية ، مجلة المجلة ، العدد ٢١ سبتمبر ١٥٨ ، شكل ١٣ ، ص ١٦٢ ، العصر الاسلامى .

(٤٢٧) زكى محمد حسن : الفن الاسلامى ، ص ٥٨ .

(٤٢٨) دليل متحف الفن الاسلامى ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٤٢٩) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٢٢ .

وغيرهم من المسلمين بالغناء واستخدام آلات الرباب والمزمار وآلات النقر فى التمتع بأوقات فراغهم[٤٣٠] ، كما كان اليهود يقومون برقصات خاصة بهم فى معابدهم يشغلون بها أوقات فراغهم مثل رقصة الزهدى وهى رقصات تصحبها تجويدات صوتية يشترك فيها الشباب والأولاد[٤٣١] .

وهكذا كانت هواياتهم التى تمثل أهم ما يشغلون بها أوقات فراغهم ويجد فيها الشباب والكبار وسيلة لشغل فراغهم ، ومجالا للتنفيس عن طاقاتهم وأنشطتهم ، وكانوا يتخذون للصيد زيا معينا يتمشى مع سرعة الحركة وخفتها ومن أسلحتهم فى الصيد اتخاذهم الخيول لهذا الغرض حيث يتدربون على ركوب الخيل منذ الصغر ، وكانت الفروسية عندهم من أهم الرياضات التى يشغلون بها وقت الفراغ وخاصة سبا ق الخيل حيث يحضر العامة للفرجة ، ويتحمسون للحصان الفائز ، ويبادرون الى تهنئة صاحبه !ذلك أصبحت الفروسية مطمح أنظار الشباب فهى تستهوى قلوبهم فضلا عن انها مظهرا من مظاهر الشجاعة وساعدهم ذلك على الخروج للصيد على الخيل فيحملون القس والسهام والبندق التى يصطادون بها اطيور وعند عودتهم بصيدهم يطوفون المدينة تعبيرا عن شجاعتهم وفرحهم بصيدهم[٤٣٢] .

* * *

---

(٤٣٠) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٢ ، ص ١٥١ .

(٤٣١) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، ص ١٥٠ ، ترجمة عطية القوصى ، ط الكويت ١٩٨٠ ، ص ١٥٠ .

(٤٣٢) هلال الصابى : رسوم دار الخلافة ، ص ٨٢ .

أهـم المصـادر والمراجـع

١ ــ آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جزءان ، ترجمة عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٤٠ ــ ١٩٤١ •

٢ ــ أحمد دراج : عيذاب ، مجلة نهضة افريقية ، العدد الأول أغسطس ١٩٥٨ •

٣ ــ ابن الاخـوة : (٧٢٩ هـ / ١٣٣٨ م) محمد بن محمد بن أحمد أحمد القرشى : معالم القرية فى أحـكام الحسبة ، ط كمبردج ١٩٣٧ •

٤ ــ ابن أبى أصيبعة : (٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م) موفق الدين أبـو العباس أحمد بن القاسم : عيون الأنبـاء فى طبقات الأطباء ، ط القاهرة ١٨٨٢ م •

٥ ــ الادريسى : (٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م) الشريف أبو عبد اللـه محمـد : نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق ، جزءان ط بيروت ١٩١٠ م •

٦ ــ الادفـوى : (٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب : الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ، ط القاهرة ١٩١٤ م •

٧ ــ السد أدى شير : (٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) أبو المكارم جرجس ابن مسعود : تاريخ الشيخ أبى صـالح ، ط اكسفورد ١٨٩٥ م •

٨ ــ أبو صالح الارمنى : الألفاظ الفارسية المصرية ، ط بيروت ١٩٨٨ م •

٩ — الاصـــطخرى : (٣٤١ هـ / ٩٥٧ م) أبو أسحق ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى : مسالك الممالك ، ط ليدن ١٩٢٧ م٠

١٠ — ابن بطــوطة : (٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) أبو عبد الله محمــد ابن عبد الله : تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، ط ١٨٧٦ م ٠

١١ — البــلوى : (ت ق ٤ هـ / ١٠ م) عبد الله بن محمد بن عمر بن محفوظ : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد على ، ط دشق ١٣٥٨ هـ ٠

١٢ — ابن بطــلان : (٤٥٥ هـ — ١٠٦٣ م) أبو الحسن المختــار ابن الحسن بن سعدون : شرى الرقيق وتقليــب العبيد ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط القاهرة ١٣٧٣ هـ ٠

١٣ — ابن البيطــار (٦٤٦ هـ — ١٢٤٨ م) ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن الحسن : الــدرة البهية فى منــافع الابدان الانســانية ، تحقيق محمــد عبد الله الغزولى ، ط القاهرة ١٩٥٤ م ٠

١٤ — ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة حسن حبشى ، ط القاهرة ١٩٤٩ م ٠

١٥ — التنــوخى : (٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م) أبو على المحسن بن على القاضى : الفرج بعد الشدة ، ط القاهرة ١٩٥٥ ٠

١٦ — الثعــالبى : (٤٣٠ هـ — ١٠٣٨ م) أبو منصور عبد الملك ابن محمد الثعالبى : فقه اللغة وسر العربية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، ط البابى الحلبى ١٩٣٨ م ٠

١٧ — الجاحظ : (٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م) أبو عثمان عمرو بن بحر ،
البيان والتبيين ، ٤ أجزاء ، تحقيق عبد السلام
هارون ، ط لجنة التأليف والترجمة ١٩٦٠ م •

١٨ — ابن جبير (٦١٤ هـ — ١٢١٧ م) أبو الحسن محمد بن
أحمد : رحلة ابن جبير ، تحقيق د• حسين نصار
ط القاهرة ١٩٥٥ م •

١٩ — جروهمان (ادولف) : أوراق البردى العربية ، الأجزاء من
١ : ٤ ، ترجمة د• حسن ابراهيم حسن ، ط
دار الكتب المصرية ١٩٥٥ ، جـ ٥ ، ترجمة وتعليق
د• عبد الحميد حسن ومهدى علام ، ط دار الكتب
١٩٦٨ ، جـ ٦ ، ترجمة عبد العزيز الدالى ، ط
١٩٧٤ م •

٢٠ — الجواليقى (٥٤٠ هـ — ١١٤٥ م) أبو منصور موهوب
بن أحمد : المعرب من الكلام الاعجمى على حروف
المعجم ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ط دار الكتب
العربية ١٣٦١ هـ •

٢١ — جوايتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى والنظم الاسلامية ،
ترجة د• عطية القوصى ، ط الكويت ١٩٨٠ م •

٢٢ — جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر •

٢٣ — ابن الحاج (٧٣٨ هـ — ١٤٣٧ م) أبو عبد الله محمد بن
محمد العبدرى : مدخل الشرع الشريف على
المذهب ، ط القاهرة ١٩٢٩ م •

٢٤ — حسنين محمد ربيع : وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة
التاريخ الاقتصادى لموانىء الحجاز واليمن فى
العصور الوسطى ، مجلة دراسات فى تاريخ

الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، مصادر تاريخ
الجزيرة العربية ، الجزء الثانى ، مطابع جامعة
الرياض .

٢٥ ـ ابن حوقل (٣٦٧ هـ ـ ٩٧٧ م) أبو القاسم محمد بن على
ابن حوقل : صورة الأرض ، ط ليدن ١٩٦٧ م .

٢٦ ـ الخوارزمى (٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧ م) أبو عبد الله محمد بن
أحمد بن يوسف : مفاتيح العلوم ، مطبعة الشرق
١٤٣٢ هـ .

٢٧ ـ ابن الداية (٣٤٠ هـ ـ ٩٥٢ م) أحمد بن يوسف بن ابراهيم
البغدادى : المكافأة ، شرح أحمد أمين وعلى
الجارم ، ط بولاق ١٩٤١ م .

٢٨ ـ ابن دقماق (٨٠٩ هـ ـ ١٤٠٦ م) ابراهيم بن محمد بن
ايدمير العلائى : الانتصار لواسطة عقد الامصار ،
جزءان ، ط بولاق ١٣١٠ هـ .

٢٩ ـ الدمشقى (عاش فى ق ٦ هـ) أبو الفضل جعفر بن على :
الاشارة الى محاسن التجارة ، ط دمشق
١٣١٨ هـ .

٣٠ ـ دوزى : (ريتهارت) : المعجم المفصل بأسماء الملابس عند
العرب ، ترجمة أكرم فاضل ، ط بغداد ١٩٧١ م .

٣١ ـ الرازى : (٣٢٠ هـ ـ ٩٣٢ م) أبو بكر محمد بن زكريا :
منافع الأغذية ودفع مضارها ، ط القاهرة
١٣٠٥ هـ .

٣٢ ـ عبد الرؤوف يوسف : الرسوم الادمية ، مجلة المجلة ،
العدد ٢١ سبتمبر ١٩٥٨ م .

٣٣ — زكى محمـد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، ط القاهرة ١٩٣٠ م •

٣٤ — ابن سعيد (٦٧٣ هـ — ١٢٧٥ م) عن بن وسى المغربى : المغرب فى حلى المغرب ، القسم الخاص بمصر ، تحقيق زكى محمد حسن ، ط جامعة القـاهرة ١٩٥٣ م •

٣٥ — ابن سعيد المغربى (٦٨٥ هـ — ٢٧٤ ١م) أبو الحسن على الاندلسى : النجوم الزاهرة فى حـلى حضرة القاهرة ، تحقيق د• حسن نصر ، ط القاهرة ١٩٧٠ م •

٣٦ — ابن سيدة (٤٥٨ هـ — ١٠٦٥ م) أبو الحسـن على بن اسماعيل : المخصص ، ط بولاق ١٣٢١ هـ •

٣٧ — السـيوطى (٩١١ هـ — ١٥٠٥ م) جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان ، ط القـاهرة ١٣٢٧ هـ •

٣٨ — الشابشتى (٣٣٨ هـ — ٩٩٨ م) أبو الحسن على بن محمد : الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، ط بغداد ١٩٥١ م •

٣٩ — الشـيزرى (٥٨٩ هـ — ١١٩٣ م) عبد الرحمن بن نصر نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق السـيد الباز العرينى ، ط القاهرة ١٩٤٦ م •

٤٠ — الطبـرى (٣١٠ هـ — ٩٢٣ م) أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، ط ليدن ١٩٠١ م •

٤١ — ابن طباطبا (٧٠٩ هـ — ١٣٠٩ م) محمد بن على بن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، ط القاهرة ١٣٤٠ هـ .

٤٢ — ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا ، ط دار الكتب ١٩٦٦ م .

٤٣ — ابن عبد الحكم (٢٠٧ هـ — ٨٧١ م) عبد الرحمن بن عبد الله : فتوح مصر وأخبارها ، ط ليدن ١٩٢٠ م .

٤٤ — ابن عبد ربه (٣٤٩ هـ — ٩٤٠ م) شهاب الدين أحمد : العقد الفريد ، ط القاهرة ١٩٣٨ م .

٤٥ — ابن عبدون (ت ق ٦هـ) محمد بن أحمد عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة ، نشرها ليفى بروفنسال ضمن ثلاث رسائل اندلسية ، ط القاهرة ١٩٥٥ م .

٤٦ — ابن العماد الحنبلى (١٠٨٩ هـ — ١٦٧٩ م) أبو الفلاح عبد الحى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء ، ط القاهرة ١٣٥١ هـ .

٤٧ — عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩ هـ — ١٢٣١ م) عبد اللطيف موفق الدين عبد اللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، ط وادى النيل ١٨٦٩ م .

٤٨ — الغزولى (٨١٥ هـ — ١٤١٢ م) علاء الدين على بن عبد الله البهائى : مطالع البدور فى منازل السرور ، جزءان ، ط القاهرة ١٣٠٠ هـ .

٤٩ — أبو الفدا (٧٣٢ هـ — ١٣٣١ م) اسماعيل بن على عماد الدين : تقويم البلدان ، ط باريس ١٨٤٠ .

٥٠ — قاسم عبده قاسم : اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، ط القاهرة ١٩٨٦ م •

٥١ — ابن قتيبة (٢٧٦ هـ — ٨٨٩ م) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة : عيون الاخبار ، ٤ أجزاء ، ط القاهرة ١٩٦٣ م •

٥٢ — القلقشندى (٨٣١ هـ — ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد :

٥٣ — صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، ٤ أجزاء ، ط القاهرة ١٩١٧ م •

— البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، ط جامعة الاسكندرية •

٥٤ — نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، ط ١٩٥١ م •

٥٥ — الكندى (٣٥٠ هـ — ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف : الولاة والقضاة ، ط مصر ١٩١٢ م •

٥٦ — ابن الكندى (—) محمد بن عمر محمد بن يوسف : فضائل مصر ، تحقيق ابراهيم أحمد العدوى ، ط القاهرة ١٩٧١ م •

٥٧ — الماوردى (٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م) أبو الحسن على بن محمد ابن حبيب البصرى : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط القاهرة ١٩٦٠ م •

٥٨ — أبو المحاسن (٨٧٤ هـ — ١٤٩٦ م) جمال الدين بن يوسف ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ، ط القاهرة ١٩٣٥ م •

٥٩ — محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، ط دار الفكر العربى ١٩٦٧ م •

٦٠ ــ المقــدسى (٣٧٥ هـ ــ ٩٨٥ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ط ليدن ١٩٠٦ م .

٦١ ــ المقريزى (٨٤٥ هـ ــ ١٤٤١ م) تقى الدين أحمد بن على : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، ط القاهرة ١٩١٦ م .

٦٢ ــ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء ، جـ ١ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ١٩٦٧ ، جـ ٢ ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، ط القاهرة ١٩٧١ م .

٦٣ ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ، جـ ٢ ، تحقيق مصطفى زيادة ، جـ ٣ ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، ط القاهرة ١٩٦١ م .

٦٤ ــ شذور العقود فى أخبار النقود ، تحقيــــق محمد عبد الستار عثمان ، ط القاهرة ١٩٩٠ .

٦٥ ــ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثــار ، جزءان ، ط بولاق ١٢٧٠ هـ .

٦٦ ــ المســعودى (٣٤٦ هـ ــ ٩٥٧ م) أبو الحســن على بن الحسين : مروج الذهب ومعــادن الجوهر ، جزءان ، ط بولاق ١٢٨٣ هـ .

٦٧ ــ ابن ممــاتى (٦٠٦ هـ ــ ١٢٠٩ م) الأسعد بن ممــاتى : قوانــين الدواوين ، نشر د. عزيز ســوريال عطية ، ط ١٩٤٣ م .

٦٨ ــ ناصر خسرو (٤٨١ هـ ــ ١٠٨٨ م) سفر نامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، ط القاهرة ١٩٤٥ م .

٦٩ — هلال بن الصــابى (٤٤٨ هـ — ١٠٥٦ م) أبو الحســن
هلال بن المحسن : رسوم دار الخلافة ، تحقيق
ميخائيل عواد ، ط بغداد ١٩٦٤ م •

٧٠ — ياقــوت (٦٢٦ هـ — ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله
ياقوت بن عبد الل هالحموى : معجم البلدان ،
ط ليبزج ١٩٢٤ م •

٧١ — اليعقــوبى (٢٨٤ هـ — ٨٩٧ م) أحمد بن أبى يعقوب بن
واضح : البلدان ، ط النجف ١٩٥٧ •

٧٥ — تاريخ اليعقوبى ، ط النجف ١٣٥٨ هـ •

* * *

« الغلاء والمجاعات فى بلاد المغـرب الإسـلامى

حتى القرن الخامس الهجـرى »

د. محمـد بركات البيلى

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

على الرغم من تباين الآراء حول الاقتصاد المغربى فى العصر الاسلامى ومدى ازدهاره من قرن لآخر أو من دولة لأخرى ، فقد كانت بلاد المغرب فى عصرها الاسلامى عموما تمتلك مقومات الرخاء والازدهار الاقتصادى إذ تنوعت الموارد الاقتصادية وانتشرت تدريجيا المراكز الحضرية والعمرانية لتى كانت بمثابة مراكز للانتاج الاقتصادى المتنوع من ناحية وأسواقا للتبادل التجارى بنوعيه الخارجى والداخلى من ناحية أخرى وفضلا عن هذا فقد حظيت بلاد المغرب الاسـلامى ـ بعد عصر ولاة غير طويل نسبيا ـ بعدد من الدول المستقلة لم تمنعها بعض الحروب ـ أو المناوشات ـ الناشبة بينها من العناية بالنشاط الاقتصادى والعمرانى لينمو ويزدهر حتى استحقت بلاد المغـرب الاسلامى وصف الجغرافى المقدسى إياه « هذا اقليم[*] بهى كبير سرى كثير المدن والقرى عجيب الخصائص والرخا »[1] .

ويمدنا بعض الجغرافيين المسلمين كالبكرى[2] والادريسى[3] وصاحب كتاب الاستبصار[4] وغيرهم بوصف للموارد الاقتصادية لبلاد

(*) اقليم المغرب عند المقدسى يضم بلاد المغرب والاندلس معا .

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ٢١٥ .

(٢) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب .

(٣) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .

(٤) الاستبصار فى عجائب الأمصار لمجهول . نشر وتحقيق سـعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ١٩٥٨ .

المغرب الاسلامى يتضح منه ــ إذا أخذنا بتقسيم بلاد المغرب الى ثلاثة أقاليم : أدنى وأوسط وأقصى(٥) أن الموارد الاقتصادية لبلاد المغرب الاسلامى كانت موزعة على أقاليمه الثلاثة توزيعا شبه متوازن يكفل لكل اقليم منها قدرا لا بأس به من احتياجاته الاقتصادية من ناحية ويتيح امكانية التبادل والتكامل الاقتصادى بينها من ناحيــة أخــرى .

كانت افريقية (المغرب الأدنى) تتمتع بموارد اقتصادية كبيرة ومتنوعة . فمن الناحية الزراعية ، كانت المزارع والحقول والبساتين تنتشر فى معظم نواحيها . واذا كانت الغلات السائدة هى الزيتون والثمر والحبوب والفواكه فإنها كانت متفاوتة الانتاجية من منطقة لأخرى ، وكات بعض الجهات تتميز بوفرة أنتاجها وجودته من غلة بعينها أكثر من انتاجها من غيرها من الغلات الأخرى ، فعلى سبيل المثال ، كانت سفاقس تتميز بانتاجها من الزيتون(٦) فكان زيتها أطيب من كل زيت إلا الشرفى(*) ويمتاره منها أهل أفريقية وتحمله المراكب الى بلدان أوروبا مثل بلاد الروم وصقلية وايطاليا وجميع سواحل الأرض الكبيرة لكثرته وطيبه(٧) . وتميزت قابس بأن فواكهها كانت رخيصة وبطيب ثمرها وزيتها وزيتونها(٨) وتميزت تونس بانتاجها من الفواكه خاصة

---

(٥) تتفاوت التقسيمات الجغرافية لبلاد المغرب من حيث عــدد الأقاليم وقد أخذنا بتقسيم المغرب الى ثلاثة أقاليم هى المغــرب الأدنى (افريقية) ويمتد على الساحل الى ما قبل بجاية وما يقابل ذلك داخليا والمغرب الأوسط من بجاية الى تلمسان وما يقابل ذلك داخليا وما عدا ذلك فالمغرب الأقصى بما فيه بلاد السوس .

(٦) الادريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص ١٠٧

(*) كتبت فى النسخة المطبوعة « الشرقى » بالقاف ــ ولعلها خطأ مطبعى فالصحيح أنها « الشرفى » ــ بالفاء نسبة الى شرف أشبيلية الذى اشتهر بجودة زيتونه وزيته .

(٧) الاستبصار ص ١١٦

(٨) الادريسى : المصدر السابق ص ١٠٦

نوع من اللوز يدعى اللوز الفريك يفرك بعضه بعضا لرقة بشرته[٩] لكن أكبر غلاتها كانت الحنطة والشعير تنتجهما فيما يحيط بها من فحوص ومزارع من جميع جهاتها[١٠] وتميزت نواحي جيجل مبا تزرعه من العنب والتفاح والفواكه التي كانت تحمل منها الى بجاية[١١] وتميزت طبنة بغلاتها من القطن والحنطة والشعير[١٢] وتميزت جلولاء بالرياحين خاصة الياسمين وبالفواكه التي تميز بها القيروان[١٣] أما بلاد الجريد التي سميت بهذا الاسم لكثرة نخيلها فقد تميزت بانتاجها من التمر خاصة في توزر التي كانت أكبر بلاد الجريد تمرا وتمتاره منها جميع بلاد افريقية وبلاد الصحراء لكثرته بها ورخصه[١٤] لكن قفصة كانت تتميز بنوع فاخر من التمر يسمى الكسبا لا مثيل له في كبر حجمه وشفافيته فضلا عن نوع فاخر من التفاح يسمى السدسي ، كما أنها أكثر بلاد المغرب قاطبة فستقا ومنها يجلب الى افريقية والمغـرب والأندلس ومصر[١٥] .

وانتشرت في نواحي افريقية المراعي الغنية واشتهرت كثير من جهاتها بثروتها الحيوانية ، فعلى سبيل المثال ، كانت بونه من أكثر البلاد لحما ولبنا[١٦] وبنواحي زويلة ، على مقربة من المهدية ، كانت توجد قرى كثيرة يرعى أهلها مواشي وأغناما كثيرة[١٧] وبين تونس والقيروان كانت تنتشر مراعي الأغنام والأبقار وتربية البغال[١٨] .

---

(٩) الاستبصار ، ص ١٢١
(١٠) الادريسي : المصدر السابق ص ١١١
(١١) الاستبصار ، ص ١٢٨
(١٢) الادريسي : المصدر السابق ص ٩٣
(١٣) الاستبصار ، ص ١١٩
(١٤) نفس المصدر ، ص ١٥٥ والادريسي : المصدر السابق ص ١٠٤
(١٥) الاستبصار ، ض ١٥٣
(١٦) الاستبصار ، ص ١٢٧
(١٧) الادريسي : المصدر السابق ، ص ١٠٩
(١٨) نفس المصدر ، ص ١١٩

وكان لحم حيوانات سوسة من أطيب لحوم افريقية لطيب مراعيها[١٩] .

وعرفت المدن الساحلية من افريقية سبل الافادة من الثروة السمكية . فعلى سبيل المثال ، كانت تونس تصطاد أنواعا كثيرة لا تحصى من السمك[٢٠] ، أما بنزرت فكان سمكها أكثر غلة وأكثر تنوعا يحمل منها الى جميع بلاد أفريقية ، وكانوا يصبرونه فيبقى أعواما صحيح الجرم لذيذ الطعم[٢١] وقد بلغ هذا السمك البنزرتى من التنوع أن قيل أنه كان بها اثنا عشر نوعا من السمك ، يصطاد كل نوع منها فى شهر من شهور السنة لا يتعداه الى شهر آخر . وقد عدد الأدريسى هذه الأنواع الاثنا عشر فذكر أنها : البورى والفاجوج والمحل والطلنط والاشبلينيات والشلبه والقاروض وأملاج والحوجة والكحلاء والطنفلو والقلاء[٢٢] .

وكان فى طبرقة أنواع كثيرة من السمك منها نوع من البورى لا مثيل له فضلا عن أنها يستخرج بناحيتها المرجان الذى يرى البعض أنه أنفس مرجان الدنيا وأنه يحمل منها الى مختلف البلاد وسوقه نافقة فى الهند والصين[٢٣] . وكان بالقرب من بونه مصايد سمك كثير[٢٤] .

أما بلاد المغرب الأوسط فقد وصفت اجمالا بأن مدنها « كثيرة الخصب والزرع كثيرة الغنم والماشية طيبة المراعى ومنها تجلب الأغنام الى بلاد المغرب والأندلس لرخصها وطيب لحومها[٢٥] . الا أنه بالامكان

---

(١٩) الاستبصار ، ص ١١٩
(٢٠) نفس المصدر ، ص ١٢١
(٢١) نفس المصدر ، ص ١٢٧
(٢٢) المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ، ص ١١٤ — ١١٥
(٢٣) الاستبصار ، ص ١٢٦
(٢٤) نفس المصدر ، ص ١٢٧
(٢٥) الاستبصار ، ص ١٧٩

ذكر بعض الأمثلة للموارد الاقتصادية لبلاد المغرب الأوسط وما كانت تتميز به بعض جهاتها من انتاج .

فمن الناحية الزراعية تشابهت بلاد المغرب الأوسط فى انتاج بعض الغلات كالزيتون والفواكه والحبوب وغيرها إلا أن بعض الجهات تميزت بوفرة وجودة انتاجها من بعض الغلات . فقد تميزت بجاية بأنها كثيرة الفواكه[٢٦] وبانتاجها من الحنطة والشعير والتين[٢٧] . وتميزت مدينة الجزائر بما كانت تزرعه من الحنطة والشعير[٢٨] لاسيما فى فحص منيجة المتصل بها والذى بلغ اتساعه مرحلتين فى مثلهما وكان كثير الخصب والقرى[٢٩] . وتميزت شرشال بفواكه حسنة وسفرجل كبير الحجم لا مثيل له وبالكروم والتين كما أنها كانت تزرع من الحنطة والشعير ما يزيد على الحاجة[٣٠] .

وكانت مدينة تنس كثيرة الزرع رخيصة الأسعار يحمل منها الطعام الى الأندلس والمغرب وافريقية لكثرة الزرع بها[٣١] فالحنطة وسائر الحبوب كانت وفيرة بها وتخرج منها الى كل الآفاق فى المراكب وبها من الفواكه كل طريفة ومن السفرجل الطيب المعنق ما يفوق الوصف فى صفته وكبره وحسنه[٣٢] وكانت وهران كثيرة البساتين والثمار[٣٣] ومنها أكثر ميرة ساحل الأندلس وبها فواكه ممكنة وأهلها

---

(٢٦) نفس المصدر ، ص ١٣٠

(٢٧) الادريسى : المصدر السابق ، ص ٩١

(٢٨) نفس المصدر ، ص ٨٩

(٢٩) الاستبصار ، ص ١٣٢

(٣٠) الادريسى ، المصدر السابق ، ص ٨٩

(٣١) الاستبصار ، ص ١٣٣

(٣٢) الادريسى : المصدر السابق ، ص ٨٣

(٣٣) الاستبصار ، ص ١٣٤

فى خصب[٣٤] . أما تامسان[٣٥] فكانت غلاتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمة كثيرة الخصب رخيصة الأسعار وبقربها مزارع كثيرة تسمى أولاج الجنان[٣٦] وكان لتاهرت بساتين كثيرة فيها جميع الثمار وسائر غلاتها كثيرة مباركة وتميزت بسفرجلها الذى يفوق سفرجل جميع البلاد حسنا وطعما ورائحة[٣٧] . وكانت مليانه من أخصب البلاد وأرخصها أسعار كريمة المزارع وفيها جميع الفواكه[٣٨] ، أما المسيلة فقد كانت فى بسيط من الأرض تمتد مزارعها الى أكثر مما يحتاج اليه أهلها ، وتنتج الفواكه والبقول والقطن والقمح والشعير ، ويكثر بها النخيل[٣٩] .

أما عن الثروة الحيوانية فقد كان فى المغرب الأوسط مدن « كثيرة الغنم » والماشية طيبة المراعى تجلب منها الأغنام الى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها[٤٠] . ويمكن القول إن النطاق الساحلى من بجاية الى وهران كان وافر المراعى والثروة الحيوانية . فكانت بجاية كثيرة اللحوم تصلح فيها وفى ما يحيط بها السوائم والدواب لأنها بلاد زرع وخصب[٤١] وكانت البقر والغنم بتدلس كثيرة وتباع جملتها بالثمن اليسير[٤٢] أما مدينة الجزائر فقد كانت أكثر أموال أهلها من البقر والغنم[٤٣] كما كان لأهل شرشال مواشى وأغنام

---

(٣٤) الادريسى ، المصدر السابق ، ص ٨٤

(٣٥) يعتبرها الادريسى قفل بلاد المغرب بمعنى أنها آخر بلاد المغرب الأقصى وأول المغرب الأوسط ولكن صاحب كتاب الاستبصار (ص ١٧٦) يراها قاعدة بلاد المغرب الأوسط .

(٣٦) الاستبصار ص ١٧٦ ، والادريسى : المصدر السابق ص ٨٠

(٣٧) الاستبصار ص ١٧٨ ، والادريسى : المصدر السابق ص ٨٧

(٣٨) الاستبصار ص ١٧١ ، والادريسى : المصدر الاسابق ص ٨٥

(٣٩) الاستبصار ص ١٧١ ، والادريسى : المصدر السابق ص ٨٦

(٤٠) الاستبصار ، ص ١٧٩

(٤١) الادريسى ، ص ٩١

(٤٢) نفس المصدر ، ص ٩٠

(٤٣) نفس المصدر ، ص ٨٩

كثيرة وأكثر أموالهم منها[٤٤] وكانت وهران كثيرة البقر والغنم وتباع منتجاتها رخيصة بالثمن اليسير[٤٥] .

ولم يكن النطاق الداخلى لبلاد المغرب أقل من النطاق الساحلى فى ثروته الحيوانية وعلى سبيل المثال ، كان على مقربة من تلمسان واد فسيح به أغنام وأبقار لحومها سمينة[٤٦] وفى تاهرت كان يرعى من البراذين والخيل كل حسن وكثير جدا من الغنم والبقر[٤٧] كما كان لأهل المسيلة سوائم خيل وأغنام وأبقار[٤٨] .

وكان المغرب الأوسط غنيا بثروته السمكية التى كانت تصطاد من موانيه ومراسيه كما كان غنيا بالعسل الذى اشتهرت به بعض مدنه .

أما المغرب الأقصى فلم تكن موارده الاقتصادية أقل من مثيلاتها فى المغربين الأدنى والأوسط . ففى الزراعة كانت فيه مدن عديدة متصلة المزارع والمحارث فى السهول والجبال[٤٩] فعلى سبيل المثال كان على مقربة من سبته جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وقصب سكر وأترج يتجهز به الى ما جاور سبته من البلاد[٥٠] وكانت البصرة (أصيلا) كثيرة الزرع خاصة الكتان الذى كان أهلها يتبايعون به حتى عرفت ببصرة الكتان[٥١] وكان القطن أكبر غلاتها كما أن القمح وسائر الحبوب بها كثيرة[٥٢] . وكان حول فاس مزارع عظيمة حتى أنها كانت أرخص من سائر البلاد حولها[٥٣] أما مكناسة التى عرفت باسم مكناسة

---

(٤٤) نفس المصدر ، نفس الصفحة .
(٤٥) نفس المصدر ، ص ٨٤
(٤٦) الادريسى : المصدر السابق ص ٨٠
(٤٧) نفس المصدر ، ص ٨٧
(٤٨) نفس المصدر ، ص ٨٦
(٤٩) الاستبصار ، ص ١٩٠
(٥٠) الادريسى : المصدر السابق ، ص ١٧٦
(٥١) الاستبصار ، ص ١٨٩
(٥٢) الادريسى : المصدر السابق ص ١٦٩
(٥٣) نفس المصدر ص ٨١ ، والاستبصار ص ١٨٠

الزيتون لكثرة زيتونها حتى أن زيتها كان أكثر زيت فى جميـــع بلاد المغرب [٥٤] فقد كانت أخصب البقاع أرضا وأنماها زرعا وأكثرها خيرا[٥٥] وكانت مراكش فى بسيط من الأرض كثيرة الزرع وحولها من البساتين والجنات التى كانت تسمى البحائر ــ لعظمها ــ ما لا يحصى كثرة[٥٦] .

أما بلاد السوس من المغرب الأقصى فكات كثيرة القرى بها من الفواكه أجناس مختلفة وأنواع كثيرة كالجوز والتين والعنب العذارى والسفرجل والرمان والاترج وغـــيرها لكنها كانت تتميز على وجه الخصوص بقصب السكر الذى لا مثيل له كما أن بها الكثير من الحنطة والشعير والأرز بأيسر قيمة[٥٧] .

أما عن الثروة الحيوانية فقد كان المغرب الأوسط كثير المراعى واللحوم التى يعتمد عليها اعتمادا كبيرا حتى أن الكثير من سكان هذا القسم من بلاد المغرب ــ خصوصا فى بلاد السوس ــ كانوا يعيشون على الألبان واللحوم[٥٨] . وعلى سبيل المثال ، كانت المراعى كثيرة حول فاس ، وكانت البصرة كثيرة الزرع واسعة المراعى تعرف لكثرة ألبانها ببصرة الألبان[٥٩] وكذلك كانت مراكش كثيرة الزرع[٦٠] . وكان عند أهل نول لمطة من بلاد السوس أبقار وأغنام كثيرة جدا والألبان والسمن لديهم وفيرة[٦١] .

---

(٥٤) الاستبصار ، ص ١٨٧

(٥٥) الادريسى : المصدر السابق ص ٧٨

(٥٦) الاستبصار ، ص ٢٠٨

(٥٧) الاستبصار ص ٢١١ ــ ٢١٢ والادريسى : المصدر السابق ، ص ٦٣

(٥٨) الادريسى : المصدر السابق ، ص ٥٨

(٥٩) الاستبصار ، ص 169

(٦٠) نفس المصدر ، ص ٢٠٨

(٦١) الادريسى : المصدر السابق ، ص ٥٩

وكانت ببلاد المغرب الأقصى مصايد غنية للأسماك خاصة فى سبتة[٦٢] وفى سلا[٦٣] كما كان الجراد مصدرا هاما للغذاء خاصة فى مراكش التى كان أهلها « يأكلون الجراد ويباع منه بها كل يوم الثلاثون حملا فما دونها وفوقها بقبالة عليه[٦٤] وأهل السوس يأكلون الجراد أكلا كثيرا مقلوا ومملوحا »[٦٥] .

على هذا النحو كانت بلاد المغرب الاسـلامى بشتى أقسامها ومختلف أرجائها تنعم بموارد اقتصادية غذائية لا حصر لها يمكنها أن تفيض عن حاجـة أهل تلك البـلاد وتمنع عنهم شر الغلاء وويلات المجاعات . الا أن ذلك لم يمنع من وقوع بعض نوبات الغلاء والمجاعات فى بلاد المغرب فى العصر الاسلامى وصلت الينا أخبارها ونتف عن أحداثها مما يدعونا الى دراسة هذه الظاهرة وآثارها فى تاريخ المغرب الاسلامى .

أولا ـ الأسـباب :

كانت نوبات الغلاء والمجاعات التى ألمت ببلاد المغرب فى العصر الاسلامى ترجع الى عوامل عديدة منها ما هو طبيعى كالقحط والأعاصير وكثرة الجراد ومنها ما هو بشرى يتصل بأسباب السياسة والاقتصاد وغيرها . ويمكننا أن نشير الى بعض هذه العوامل فيما يلى :

(أ) القحـط :

اعتمدت بلاد المغرب الاسلامى فى سد احتياجاتها من المياه العذبة اللازمة لشرب الانسان والحيوان والنبات اعتمادا رئيسيا على مياه الأمطار التى تسقط أساسا فى فصل الشتاء بحكم مناخ الاقليم . وكان

---

(٦٢) نفس المصدر ، ص ١٦٨

(٦٣) نفس المصدر ، ص ٧٣

(٦٤) نفس المصدر ، ص ٦٩

(٦٥) نفس المصدر ، ص ٦٣

كثير من أهل المغرب الاسلامى يقومون بتخزين مياه الأمطار للافادة منها فى غير أوقات سقوطها مثلما كان يفعل أهل القيروان الذين كان « شربهم من مواجين — مواجـل — وصهاريج يجتمـع فيها ماء المطر »(٦٦) أو على حد قول اليعقوبى « شربهم من ماء المطر ، اذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل المطر من الأودية الى برك عظام يقال لها المواجل فمنها شرب السقاة »(٦٧) .

وقد كانت المواجل خزانات للسقيا والرى فى مواضع كثيرة مثل القيروان التى عد صاحب كتاب الاستبصار بها ١٥ ماجلا بنى بعضها فى خلافة هشام بن عبد الملك وبعضها الآخر فى أيام غيره من الخلفاء وكان أعظم هذه المواجل جميعا ذلك الذى بناه أحمد بن الأغلب بباب تونس من سور القيروان والذى كان عبيد الله المهدى يعذه أحد غرائب افريقية التى لا مثيل لها فى المشرق(٦٨) . ويعد صاحب كتاب الاستبصار أيضا فى المهدية ٣٦٠ ماجلا لماء المطر(٦٩) بينما كانت بقرطاجنة — أو آثارها — مواجل كثيرة للماء تسمى مواجل الشياطين لعظمها وغريب بنيانها(٧٠) .

وكان فى قسنطينة مواجل عظام مثل التى بقرطاجنة(٧١) كما أن أهل سفاقس كان شربهم من المواجل(٧٢) .

وفضلا عن الأمطار فقد كانت بلاد المغرب الاسلامى تستقى من الأنهار لكنها كانت أنهار قليلة صغيرة لا تعدو كونها مجرد مجارى مائية محدودة أو نهيرات تعرف أحيانا بالشطوط لا يتعدى طول ما ينعت

---

(٦٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٥
(٦٧) كتاب البلدان ، ص ٣٤٧
(٦٨) الاستبصار ، ص ١١٥
(٦٩) نفس المصدر ، ص ١١٧
(٧٠) نفس المصدر ، ص ١٢٣
(٧١) الاستبصار ، ص ١٢٣
(٧٢) نفس المصدر ، ص ١٦٥

بالكبير منها أميال معدودة • فعلى سبيل المثال ، يصف صاحب كتاب الاستبصار نهرا عند مدينة بسكرة بأنه « نهر كبير ينحدر من جبل أوراس يسقى بساتينها ونخلها وهو نحو ٦ أميال »[٧٣] • ويصف الادريسى نهرا قريبا من بجاية بأنه « نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمركب وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلا ويجوزه من شاء فى كل موضع منه »[٧٤] وكثير من هذه النهيرات محلية يقتصر واديها على بلدة واحدة أو مدينة واحدة وبعض القرى المحيطة بها • فعلى سبيل المثال كان لتنس نهر يسمى تافيه يأتيها من جبال القبلة ثم يستدير بها من جهة الشرق والجوف ويصب فى البحر[٧٥] ومن ثم كان الكثير من هذه النهيرات لا يكفى وحده كمورد للماء طيلة العام ، فقد كانت مدينة تنس — على سبيل المثال — يشرب أهلها من عين ماء ولها فى جهة الشرق منها واد يشربون منه فى أيام الشتاء والربيع[٧٦] • ولذلك فقد كانت هذه النهيرات — فيما عدا الأنهار الكبيرة نسبيا مثل مجرده فى افريقية وشليف فى المغرب الأوسط وملوية وسبو وأم الربيع فى المغرب الأقصى — لا تغنى عن مياه الأمطار ولا تمنع حدوث القحط وإن كانت تخفف من غلوائه فى بعض الأحيان خاصة وأنها متناثرة فى كثير من النواحى ويستمد بعضها مياهه من العيون أو ذوبان الثلوج فى أعالى بعض الجبال •

وكانت بلاد المغرب فى العصر الاسلامى تسد بعض احتياجاتها المائية من المياه الجوفية متمثلة فى الآبار والعيون التى كانت تعم بلاد المغرب الاسلامى إذ أنها كانت المصدر الرئيسى — بل الوحيد — للمياه العذبة فى كثير من النواحى فى النطاقين الساحلى والداخلى على السواء ، فعلى سبيل المثال كانت بعض الجهات الساحلية تعتمد فى شربها على

(٧٣) نفس المصدر ، ص ١٧٣
(٧٤) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ص ٩١
(٧٥) الاستبصار ، ص ١١٣
(٧٦) الادريسى : المصدر السابق ، ص ٨٣

عيون أو آبار منها تونس التى كانت على الرغم من قربها من مجرده يشرب أهلها من آبار شتى[٧٧] وكان لبونة على ضفة البحر بئر عذب ماؤها يشرب منه أهلها[٧٨] ومدينة الجزائر على ضفة البحر كان شرب أهلها من عيون على البحر عذبه ومن آبار[٧٩] • وكان فى باجه عيون عديدة يعتمد عليها ، منها عين تسمى عين الشمس[٨٠] وكانت تطوان كثيرة العيون[٨١] • أما فى الداخل فقد كان الاعتماد على المياه الجوفية يتزايد جهة الصحراء جنوبا مثل بلاد الجريد التى يشبهها ابن سعيد بالبلاد المصرية فى قلة مطرها[٨٢] ، ولذلك كان أكثر اعتمادها على المياه الجوفية أو على المياه المجلوبة عبر نهيرات صغيرة تقع منابعها على بعض المرتفعات القريبة • فقد كان فى داخل قفصة عيون كثيرة تتجمع مياهها فى صهاريج كبيرة ينشأ عنها نهير من الماء تطحن عليه أرحاء كثيرة ويسقى نصف مزارع قفصه ، أما النصف الآخر فيسقى من عين عظيمة خارج المدينة تسمى عين المنستير ، وهى عين كبيرة عذبة يخرج منها نهير كبير ، فضلا عن مياه تأتى من وادى يسمى وادى يانش يأتى من جبال شرقى قفصة لكن جريانه يقل فى الصيف • وقد دعت الضرورة الى عناية أهل قفصة بشئون الرى فكان لهم نظام فيه يصفه صاحب كتاب الاستبصار بأنه « هندسة عظيمة » لكنه لم يمدنا بحيثيات هذا النظام أو مفرداته[٨٣] وفى المغرب الأقصى كان أهــل مراكش — على سبيل المثال — يشربون ويسقون زروعهم من الآبار ، وقد صنع لهم مهندس يدعى عبد الله بن يونس فى أيام الامير المرابطى على بن يوسف بن تاشفين نظاما هندسيا حسنا للرى من آبار مراكش

---

(٧٧) الادريسى : المصدر السابق ص ١١١
(٧٨) الاستبصار ، ص ١٢٧
(٧٩) الادريسى : المصدر السابق ، ص ٨٩
(٨٠) الاستبصار ، ص ١٦٠
(٨١) نفس المصدر ، ص ١٣٧
(٨٢) الجغرافيا ، ص ١٢٧
(٨٣) الاستبصار ، ص ١٥٣

التى امتازت بقرب مياهها من سطح الأرض غير بعيدة الغور ، وجملة هذا النظام أن المهندس المذكور حفر بئرا مربعة كبيرة التربيع ثم مد منها ساقية (قناة) متصلة الحفر على وجه الأرض تتدرج من أرفع الى أخفض فى ميل غير ملحوظ نحو الأسفل بميزان هندسى حتى وصل الماء الى البستان المراد سقيه منسكبا على وجه الأرض فى جريان دائم ، فأخذ أهل مراكش هذا النظام البديع عن ابن يونس وحفروا آبارا كثيرة وقنوات عديدة فكثرت زروع مراكش وبساتينها واتصل عمرانها[٨٤] .

على هذا النحو كانت بلاد المغرب فى العصر الاسلامى تسد احتياجاتها من المياه العذبة من أكثر من مورد بيد أن الأمطار كانت المورد الرئيسى والأهم بل تعد الموارد الاخرى السطحية كالأنهار والجوفية كالآبار والعيون تبعا للأمطار وعالة عليها ، ومن ثم كان عدم سقوط الأمطار هو العامل الحاسم فى حدوث القحط المؤدى الى نوبات الغلاء التى قد تتفاقم أحيانا الى حد المجاعة . وقد وصلت الينا أخبار عديدة عن سوء تأثير القحط على الأحوال الاقتصادية فى بلاد المغرب وما أدى إليه من غلاء مثلما حدث فى سنة ٨٩ هـ التى دخل فيها موسى بن نصير افريقية فوجدها قد قحطت قحطا شديدا فاستسقى بأهلها[٨٥] وفى سنة ٢٦٦ هـ كان بافريقية قحط عظيم أدى الى غلاء شديد حتى كادت الأقوات أن تنعدم[٨٦] وعاود القحط بعد ذلك بعامين فى سنة ٢٦٨ فغلت الأسعار غلاء شديدا ، أدى الى مجاعة حتى أكل الناس بعضهم بعضا[٨٧] وشهدت سنة ٣٧٩ هـ نوبة من الغلاء استمرت فى السنة التالية ثم تفاقمت فى سنة ٣٨١ هـ بسبب القحط وجفاف المياه

---

(٨٤) الادريسى : المصدر السابق ص ٦٧ — ٦٨
(٨٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ص ١٩
(٨٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٧ ص ٣٣٤
(٨٧) النويرى : نهاية الأرب ، مجلد ٢٤ ، ص ١٣٠

جفافا شديدا فحلت ببلاد المغرب مجاعة شديدة فى السنة المذكورة(٨٨) .
وتسبب عدم سقوط الأمطار سنة ٤٣٢ هـ فى غلاء شديد بافريقية امتد لثلاث سنوات حتى سنة ٤٣٤ هـ(٨٩) .

واذا كان القحط وعدم سقوط الأمطار سببا رئيسيا لوقوع الغلاء والمجاعات فى بلاد المغرب فى العصر الاسلامى ، فان السيول الشديدة الجارفة كانت لها خطورتها أيضا فى بعض الأحيان ، إذ كانت تدمر امكانيات البلاد الاقتصادية وتكلف الناس ما لا تطيق مثلما حدث — على سبيل المثال — فى سنة ٣٠٨ هـ التى أصابت القيروان ورقادة فيها أمطار كثيرة هدمت المبانى(٩٠) .

(ب) الأعاصـــير :

وكانت الأعاصير المدمرة التى اجتاحت بلاد المغرب الاسلامى فى بعض السنوات تهلك الزرع والضرع وأدت الى أزمات اقتصادية وغلاء مثلما حدث فى سنة ٣٠٧ هـ ، التى هبت فيها على القيروان ريح صفراء مظلمة دامت أياما وسدت الأفق حتى كان الرجل لا يرى جليسه فكانت من الأسباب المؤدية الى غلاء حدث فى ذلك العام وأعقبها وباء وطاعون شـــديد(٩١) .

وفى سنة ٣٨٢ هـ اجتاحت بلاد المغرب أعاصـــير شديدة هدمت الديار وأفسدت الثمار(٩٢) . وفى سنة ٤٨٥ هـ اجتاحت أعاصير مهولة مدينة تلمسان وأحوازها فهدمت المبانى واقتلعت الأشجار العظام حتى

---

(٨٨) ابن أبى زرع : الانيس المطرب بروض القـــرطاس ، ص ١١٤ — ١١٥

(٨٩) العينى : عقد الجمان ، جـ ١١ ، مخطوط وقف العينية رقـــم ٢٣١٧٠ ، وابن الاثير : الكامل ، جـ ٩ ص ٤٩٤

(٩٠) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٨٤

(٩١) نفس المصدر : جـ ١ ، ص ١٨٢

(٩٢) ابن أبى زرع : المصدر السابق ، ص ١١٦

كان الناس يرون البهائم تمر بين السـماء والأرض من شـدة العواصف[٩٣] .

(جـ) كثرة الجـراد :

وكان من العوامل الطبيعية المؤدية للأزمات الاقتصادية والغلاء أحيانا فى بلاد المغرب الاسلامى تعرضها لجحافل من الجراد الكثير الذى يأتى على كل ما هو أخضر من زروع ونباتات فيفقد الانسان غلاته والحيوان مراعيه مثلما حدث فى سنة ٣٧٧ هـ إذ اجتاح الجراد الكثير بلاد المغرب وفتك بها[٩٤] . وفى سنة ٤٠٦ هـ عم غلاء شديد بلاد المغرب وافريقية وكان الجراد من الأسباب المؤدية لوقوعه[٩٥] .

العـوامل البشرية :

لم تكن العوامل الطبيعية وحدها سببا فى الأزمات الاقتصادية والغلاء والمجاعات التى ألمت ببلاد المغرب فى العصر الاسلامى وانما كان للعوامل البشرية نصيب وافر من ذلك فى بعض الأحيان .

وأول العوامل البشرية وأخطرها ما شهدته الساحة المغربية فى العصر الاسلامى من حروب لم تعطل الحرث والزرع وشتى أوجه النشاط الاقتصادى فحسب ولكنها أيضا أهدرت الامكانيات الاقتصادية لبلاد المغرب وقتذاك .

واذا كانت بلاد المغرب قد عانت من تدهور ملحوظ فى اقتصادها قبل الفتح الاسلامى[٩٦] فان حروب هذا الفتح الطويل نسبيا عن الفتوحات الاسلامية الاخرى — قد أضرت بالاقتصاد المغربى خاصة

---

(٩٣) نفس المصدر : نفس الصفحة .

(٩٤) نفس المصدر : ص ١٠٢

(٩٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٥٦٧ .

(٩٦) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ص ٣٢١

بعدما قامت به « داهيا بنت ماتيا » كاهنة جراوة من تخريب متعمد لهذا الاقتصاد ظنا منها أن تخريبه يجعل المسلمين يزهدون فى فتح بلاد المغرب ، فأمرت بقطع الأشجار وتغوير الآبار وخلفت افريقية التى كانت — على حد تعبير عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافرى — من طرابلس الى طنجة ظلا وقرى متصلة فأخربت جميع ذلك(٩٧) . وقد نالت الكاهنة سريعا جزاء ما اقترفته من تخريب فسقطت على يد حسان بن النعمان الغسانى ، لكن بلاد المغرب عانت من فعلتها فتدهور اقتصادها تدهورا شديدا كما يظهر جليا فى سنة دخول موسى بن نصير افريقية — سنة ٨٩ هـ — إذ وجد موسى بن نصير أهل افريقية يعانون من قحط شديد عامذاك خاصة بعد تعذر الافادة من المخزون المائى الجوفى نتيجة تغوير الكاهنة للآبار فاستسقى بهم موسى حتى سقوا(٩٨) .

وأحدثت الحروب التى اندلعت ابان الفتنة المغربية الأولى فى عصر الولاة أضرارا بالغة بالاقتصاد المغربى ، إذ خربت المزارع وعطلت النشاط الاقتصادى وكلفت البلاد نفقات باهظة(٩٩) ، وأدت الى نوبات من الغلاء والأوبئة مثلما حدث فى سنة ١٢٩ هـ التى ابتدأ فيها وباء وطاعون امتد لسبع سنوات متواصلة بافريقية لا يكاد يرفع إلا مرة فى الشتاء أو أخرى فى الصيف(١٠٠) .

واذا كانت الحروب التى أضرت بالاقتصاد المغربى قد اندلعت فى الكثير من فترات تاريخ المغرب الاسلامى فان الاضطرابات السياسية

---

(٩٧) الرقيق القيروانى : تاريخ افريقية والمغرب ص ١١ . والمالكى : رياض النفوس ، وابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ، جـ ٢ ، ص ١٩

(٩٨) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٩

(٩٩) محمود اسماعيل عبد الرازق : الخوارج فى بلاد المغرب العربى ص ٢٧١ — ٢٧٢

(١٠٠) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٦٠

التى كانت تنجم عن تنافس الحكام أو عن سقوط الدول وقيام أخرى على أنقاضها أو اندلاع الثورات كان لها أيضا أضرارها بالاقتصاد المغربى ، من ذلك على سبيل المثال — أن قفول حنظلة بن صفوان الى المشرق تاركا المغرب ، عن اضطرار ، لعبد الرحمن بن حبيب قد أعقبه حدوث الأزمة الاقتصادية والوباء الذى بدأ فى سنة ١٢٩ هـ . وأعقب سقوط دولة الأغالبة وقيام دولة العبيديين فى افريقية وباء شديد بافريقية وما والاها سنة ٣٠٣ هـ(١٠١) . وصحب ابتداء ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد على العبيديين غلاء فى الأسعار بالقيروان سنة ٣١٦ هـ(١٠٢) . أما فى سنة ٤٠٦ هـ فقد وقع بافريقية والمغرب غلاء يرجع ابن الأثير أحد أسبابه الى اختلاف الملوك(١٠٣) إذا كان الخلاف حينذاك محتدما بين « المعز بن باريس » صاحب افريقية وبين عمه « حماد بن بلكين » صاحب بجاية . وأدت الاضطرابات التى حلت بافريقية من جراء تغريبة بنى هلال واغارات القبائل العربية عليها الى تخريب وبلاء لم تشهد افريقية له مثيلا قط(١٠٤) .

وفضلا عما سبق فقد كان تعطل النشاط التجارى نتيجة للحروب والقلاقل السياسية واضطراب الأمن سببا فى الغلاء والأزمات الاقتصادية فى كثير من الأحيان . إذ تميز الاقتصاد المغربى فى العصر الاسلامى ، لاسيما منذ القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، بارتباط أساسى بين الفلاحة والتجارة(١٠٥) ذلك أن المدن التى تنامت وتضخمت اعتمدت فى ميرتها على ضواحيها الريفية من جهة وعلى

---

(١٠١) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٧٣
(١٠٢) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٩٣
(١٠٣) الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢٥٩
(١٠٤) نفس المصدر ، جـ ٩ ، ص ٥٦٧
وجوايتناين : تونس فى العصور الوسطى من كتاب : دراسات فى التاريخ الاسلامى ص ٢٢٨
(١٠٥) الحبيب الجنحانى : المغرب الاسلامى — الحياة الاقتصادية والاجتماعية ص ٣٤

ما يرد إليها من النواحى الاخرى من جهة ثانية ، فتزايدت أهميـة التجارة الداخلية ودورها فى تأمين الاحتياجات الغذائية للمدن خاصة الكبرى منها مثل القيروان التى كان لها ضاحية ريفية وكانت فى « بساط من الأرض مديد من الجوف وساير جوانبها أرضون طيبة كريمة وأحسنها الجانب الغربى وهو المعروف بفحص الدراره يصاب فيه فى السنة الخصبة الحبة ماية »(١٠٦) إلا أنها لم تكف لسد كافة احتياجاتها فكانت القيروان تمتار من أكثر من جهة ، فكانت تمتار من جلولاء : الفواكه والبقول يرد منها كل يوم أحمال لا تحصى(١٠٧) • وتمتار من قابس : أصناف من الفواكه أيضا(١٠٨) وتمتار من قلشانة : التين خاصة التين الأخضر(١٠٩) وتمتار من قفصة : التمر وأنواع من الفواكه(١١٠) وتأتى اليها التمور أيضا من توزر والحبوب من باجه(١١١) ومن غير ذلك من جهات شتى مما جعلها — على حد قول الادريسى — أربح بلاد المغرب تجارة وأكثرها جباية وأنفقها سلعة(١١٢) وكان سوقها أوسع ما يكون يمتد امتدادا متواصلا من القبلة الى الجوف بما مقداره — على حد تقدير البكرى — نحو ميلين وثلث ميل(١١٣) • ولذلك كان لتعطل تجارة القيروان أو انقطاع الوارد اليها أضرار بالغة تؤدى الى الغلاء والشدائد الاقتصـادية التى قد تتفاقم الى حد المجاعات فى بعض الأحيـان •

وكان من عوامل تعطل النشاط التجارى فساد الأسواق أو تخريبها الذى لم يكن ينجم فقط عن انقطاع الوارد الى تلك الأسواق وانما

---

(١٠٦) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٢٤
(١٠٧) نفس المصدر ص ٣٢ والاستبصار ، ص ١١٥
(١٠٨) البكرى : المصدر السابق ص ١٧
(١٠٩) نفس المصدر ، ص ٢٩
(١١٠) نفس المصدر ، ص ٤٧
(١١١) الحبيب الجنحانى : المرجع السابق ، ص ٥٢
(١١٢) المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ص ١١٠
(١١٣) البكرى : المصدر السابق ، ص ٢٥

كان ينجم أيضا عن الحرائق التى تجتاح تلك الأسواق أو معظم أقسامها فى كثير من الأحيان • فعلى سبيل المثال وقع فى سنة ٥٣٣ هـ « حريق كبير فى سوق مدينة فاس فأحرقت جميع أقسامه إلا البقالون فتلفت فيه أموال جليلة وافتقر فيه خلق كثير »(١١٤) •

وكانت الأسواق تتضرر أيضا أبلغ الضرر من الاضطرابات النقدية التى حدثت أحيانا فى بلاد المغــرب فى العصر الاســلامى ، وكانت الاضطرابات النقدية أظهر ما تكون فى الدراهم المعاملة التى يجرى بها التعامل فى التجارة الصغيرة أو الداخلية بينما كانت الدنانير الذهبية أكثر اتصالا بالتجارة الكبيرة أو الخارجية • واذا كانت الدنانير القروية قد تميزت بجودة عيارها وثبات وزنها مما يدل على كفاءة الاقتصاد المغربى على وجه العموم إلا أن ذلك لم يمنع حدوث شدائد اقتصادية وغلاء بسبب ما يعترى الدراهم المعاملة من اضطراب ترتفع بسببه الأسعار فيعانى منه أواسط الناس وعامتهم ، من ذلك على سبيل المثال ــ الأزمنة النقدية التى حدثت فى امارة ابراهيم الثانى بن أحمد الأغلبى الذى أراد تصحيح العملة المتداولة من الدراهم المعاملة فقرر وقف التعامل بها وسحبها من السوق واعادة سك واصدار عملة جديدة صحيحة ، وهى عملية مهما كان صواب أهدافها ، الا أنها أثارت اضطرابا نقديا أضر بكثير من أهل القيروان فأغلقت الحوانيت وتظاهر الناس احتجاجا ولولا حسن تصرف الأمير الأغلبى لحدث ما لا تحمد عقباه(١١٥) لكن ذلك لم يمع من وقوع أضرار من جراء

---

(١١٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٤٦

(١١٥) ابن عذارى : المصدر السابق •

ــ بينما يرفض الدكتور سعد زغلول عبد الحميد رأى ابن عذارى فى أن قلة الأموال فى خزانة ابراهيم الثانى بن أحمد التى اضطرته الى استخدام حلى نسائه كان نتيجة لما بدده سلفه أبو الفرانيق من أموال (تاريخ المغرب العربى جـ ٢ ص ١٢٦) فانه يرجع ذلك الى سنوات القحط التى امتدت من سنة ٢٦٦ هـ الى سنة ٢٦٨ هـ . لكن الدكتور =

هذا الاضطراب النقدى . ومن أمثلة الاضطرابات النقدية ما وقع فى سنة ٤٤١ هـ التى أمر فيها « المعز بن باديس » بتبديل السكة العبيدية المتداولة لإزالة أسماء العبيديين واصدار سكة زيرية بدلا منها فضاقت الحال بالفقراء والضعفاء ، وغلت الأسعار[١١٦] .

هكذا تنوعت أسباب الغلاء والشدائد الاقتصادية والمجاعات فى بلاد المغرب فى العصر الاسلامى ، وربما يكون من المفيد فى إيضاح أبعاد هذه الظاهرة الخطيرة فى التاريخ الاقتصادى لبلاد المغرب الاسلامى أن نتتبع أخبار ما وصل الينا عنها وسنى حدوثها .

كانت أول الشدائد الاقتصادية التى عانى منها المغرب الاسلامى مبكرة جدا إذ وقعت فى السنة التى دخل فيها موسى بن نصير افريقية[١١٧] أى قبل اكتمال الفتح الاسلامى لبلاد المغرب . واذا كان وقوع القحط فى تلك السنة هو الذى لفت انتباه ابن عذارى[١١٨] فان

=

محمد الطالبى (الدولة الاغلبية ص ٣٠١) يأخذ بقول ابن عذارى ويذهب الى أن تخفيض العملة كان لتغذية بيت المال الأغلبى بقطع نقود اوفر لتغطية النفقات الملحة حينذاك ثم قرر ابراهيم الثانى القيام باصلاح نقدى وسك عملات جيدة من جديد سميت بالعاشرية فاندلعت ثورة او هيج فى القيروان سميت « ثورة الدراهم » ويتساءل الدكتور الطالبى لم هذه الهيجاء التى تبدو — فى نظرة — غير مفهومة مبدئيا . ويجيب بنفسه على تساؤله بأن الأهالى لم يتفهموا الهدف من الاصلاح النقدى من ناحية وان هذا الاصلاح ربما اضر بمصالح البعض من ناحية اخرى لكن الدكتور الطالبى فاته أن يدرك أن غضب الأهالى يرجع الى سبب ذكره الطالبى نفسه وهو أن ابراهيم الثانى هو الذى أصدر عملات مزيفة لسد النفقات الملحة اى أنه كان سبب التزييف الذى يريد اصلاحه فهو المسئول عن الاضطراب .

(١١٦) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٧٩

(١١٧) اختلف فى تحديد هذه السنة التى دخل فيها موسى بن نصير افريقية ولكن الدكتور سعد زغلول عبد الحميد (المرجع السابق جـ ١ ص ٢٣٨) يرجح أنها سنة ٨٦ هـ وفقا لرواية ابن الأثير .

(١١٨) البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٩

جذور الأزمة الاقتصادية كانت تمتد الى ما قبل ذلك بكثير حين خربت الكاهنة المزارع وقطعت الأشجار وغورت الآبار فلما حل القحط وانعدم سقوط الأمطار فى السنة المشار اليها عانى أهل افريقية معاناة شديدة فخرج بهم موسى بن نصير للاستسقاء رجالا ونساء مصطحبا معهم أهل الذمة وجميع البهائم فظلوا يدعون الله ويبكون ويتضرعون حتى انتصف النهار فاستجاب الله لهم وسقوا سقيا شافيا • وفى سنة ١١٥ هـ أصاب الناس ببلاد المغرب مجاعة عظيمة[١١٩] • وإذا كانت المصادر لم تذكر شيئا عن أسبابها ولا أبعادها فأغلب الظن أن تردى أحوال البلاد السياسية وسوء سياسة الـولاة واستنزافهم لموارد البـلاد الاقتصادية دون العناية بتنميتها ، كان من أسـباب حدوث هـذه المجـاعة •

وأعقب قفول حنظلة بن صفوان الى المشرق وتولى عبد الرحمن ابن حبيب على افريقية سنة ١٢٩ هـ حدوث وباء وطاعون استمر سبع سنين « لا يكاد يرتفع إلا مرة فى الشتاء ، ومرة فى الصيف »[١٢٠] •

وفى سنة ٢٥٣ هـ نزل ببلاد العدوة قحط كثير وغاصت المياه وتوانى القحط حتى سنة ٢٦٥ هـ[١٢١] لكنه كان فى سنة ٢٦٠ هـ أشد ما يكون إذ عم الغلاء والقحط جميع بلاد المغرب وافريقية وغلا السعر وانعدمت الأقوات وتبع ذلك وباء وطاعون عظيم هلك فيه كثير من الناس وكان هذا الغلاء وهذا الوباء امتداد لموجة عامة منهما اجتاحت العـالم الاسلامى فى تلك السنة[١٢٢] ويبدو أنهما كانا نتيجة لموجة من القحط الشديد اجتاحت العالم الاسلامى فى ذلك العام •

---

(١١٩) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٥١

(١٢٠) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٦٠

(١٢١) ابن أبى زرع : الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص ٩٦

(١٢٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٧ ص ٢٧٢ وابن أبى زرع : المصدر السابق ، ص ٩٦

وفى سنة ٢٦٦ هـ كان بافريقية غلاء شديد نتج عن قحط شديد كان امتدادا للسنوات العجاف السابقة والتى امتدت لما يزيد عن عقد ونيف ، وقد بلغ القحط والغلاء مداه فى سنة ٢٦٦ هـ حتى كادت الأقوات أن تعدم وعانى الناس من الجــوع عناء شديدا(١٢٣) ولم يكد أهل افريقية يتنفسون الصعداء من عناء القحط والغلاء عاما واحدا حتى عاود القحط واشتد فى سنة ٢٦٨ هـ فغلت الأسعار غلاء شديدا حتى بلغ قفيز القمح ثمانية دنانير فهلك الناس من الجوع حتى أكل بعضهم بعضا(١٢٤) وقد تركت هذه المجاعة آثارا أبعد سوء من ذلك فأدت الى حدوث كوارث أخرى فى غير منطقة من بلاد المغرب ، إذ يبدو ــ على سبيل المثال ــ أن أهل اقليم الزاب الذين أضرت بهم المجاعة والقحط ضررا بليغا عجزوا عن أداء الأموال المفروضة عليهم من قبل الأمير الأغلبى ففتك بهم ابراهيم الثانى الأغلبى فتكا ذريعا وأنزل بهم عقابا شديدا وأباد منهم خلقا كثيرا(١٢٥) .

وفى سنة ٢٨٠ هـ عمت بلاد العدوة مجاعة شديدة أكل الناس فيها بعضهم بعضا ثم أعقب ذلك مرض ووباء وموت كثير هلك فيه من الناس عدد لا يحصى حتى كان يدفن فى القبر الواحد أعداد من الناس لكثرة الموتى . وكانوا يدفنون من غير غسل ولا صلاة(١٢٦) .

وفى سنة ٣٠٣ هـ عقب ســقوط الدولة الأغلبية وقيام الدولة العبيدية فى افريقية وقع بافريقيـــة وما والاها غربا حتى العدوة المغربية « مجاعة عظيمة شبهت بمجاعة عام ٢٦٠ هـ ، بلغت فيها الحاجة مبلغا لا عهد للناس فى بلاد المغرب بمثله فوصل ثمن قفيز القمح ثلاثة دنانير ووقع الموت فى الناس حتى عجزوا عن دفن موتاهم(١٢٧) .

---

(١٢٣) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٣٣٤
(١٢٤) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ص ١٣٠
(١٢٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٣
(١٢٦) ابن ابى زرع : المصدر السابق ، ص ٩٧
(١٢٧) نفس المصدر ، ص ٩٨

ويذكر ابن عذارى عددا من أعلام الوفيات فى وباء تلك السنة كان منهم أبو المصعب بن زرارة العبدرى وحماس بن مروان القاضى الناسك ومحمد بن عبادة السوسى الزاهد وخلف بن معمر بن منصور الذى كان من فقهاء العراقيين لكنه تشـيع أول دخـول الشـيعة افريقيـة[١٢٨] .

وفى سنة ٣٠٧ هـ كان بافريقية وما والاها شرقا الى مصر طاعون شديد وغلاء زاد من وقعه على الناس سياسة الشـيعة المالية التى يصفها ابن عذارى بالجور الشامل والتعلل على أموال الناس فى كل جهة[١٢٩] وكانوا قد بدأوها فيما يبدو سنة ٣٠٥ هـ التى فرضوا فيها على أهل الضياع بأعمال افريقية مغرم أسموه التضييع . أى على الضياع[١٣٠] . ويبدو أن هذه المغارم قد اشتد وقعها فى سنة ٣٠٧ المذكورة لحدوث قحط فى هذه السنة وان كان ابن عذارى قد أشار الى الطاعون دون القحط فمن المعروف أن الطواعين كانت تعقب فى الغالب نوبات القحط وعدم سقوط الأمطار . وربما يرجح ما نذهب إليه هو أن سنة ٣٠٧ هـ التى وقع فيها الغلاء أو الشدة الاقتصادية المشار اليها كانت أحوالها المناخية سيئة وفيها هبت على القيروان « ريح مظلمة صفراء دامت أياما وسدت الأفق حتى كان الرجل لا يرى جليسه وأتبعها الوباء »[١٣١] وبينما كان القحط سببا فى أزمة سنة ٣٠٧ هـ فان الأمطار الكثيرة تسببت فى مشكلة فى السنة التالية ، فقد سقطت فى سنة ٣٠٨ هـ على القيروان ورقادة أمطار غزيرة هدمت المبانى[١٣٢] ومع أن البلاد كانت فى حاجة للمياه للسقيا والرى ، الا أن السيول فيما يبدو قد أضرت بالبعض وكان منهم — على الأقل — من تهدمت مبانيهـم .

---

(١٢٨) البيان المغرب ، جـ ١ ص ٩٥

(١٢٩) البيان المغرب ، جـ ١ ، ص 161

(١٣٠) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(١٣١) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٨٢

(١٣٢) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٨٤

وفى سنة ٣١٦ هـ بدأت شدة اقتصادية وغلاء سعر فى القيروان ولم يكن غلاء تلك السنة بسبب العوامل الطبيعية بل كان نتيجة اندلاع ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار فى تلك السنة[١٣٣] فقد تسببت هذه الثورة فى اضطرابات فى البلاد وقطع الطرق فانقطع الوارد الى القيروان من الميرة أو قل الآتى اليها من طلب سكانها واحتياجاتهم فغلت الأسعار ، ويبدو أنها استمرت فى الغلاء فى السنة التالية ، سنة ٣١٧ هـ فأصاب الناس ضيق شديد وغلاء ووباء لم ينج الناس منه الا بسقوط القيروان سنة ٣١٨ فزرعت بسائطها وأثمرت بساتينها وصلحت أحوال أهلها ورخصت أسعارها[١٣٤] .

لم تكن القيروان وحدها هى التى أضيرت بسبب ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد بل عم الضرر نواحى كثيرة ربما كان أكثرها تضررا مدينة المهدية خاصة بعد حصار أبى يزيد لها وتضييقه عليها فاشتد الغلاء بها وفر عنها خلق كثير من شدة الجوع فى سنة ٣٣٣ هـ .

ولم ينتفع عامة أهلها من خزائن الطعام المدخرة فيها إذ كان القائم بالله العبيدى يفرق هذه الأطعمة فى جنده وعبيده ليقووا بها على مقاومة الحصار الذى أحكمه أبو يزيد على المهدية ، فعظم البلاء على عامة أهل المهدية حتى أكلوا الميته والدواب والكلاب وفر أغلبهم عن المدينة المحاصرة التى أوشكت على السقوط فى يد صاحب الحمار لولا ما دب فى عسكره من اختلاف وانصراف أهل القيروان عن تأييده نتيجة لسوء تصرفه وسياسته معهم فاضطر الى التراجع عن المهدية تاركا خلفه من الميرة ما خرج أهل المهدية لانتهابه والاستيلاء عليه فصلحت به حالهم ورخصت به أسعارهم وأقاموا أودهم بما خلفه أبو يزيد من طعام وأمتعة[١٣٥] .

---

(١٣٣) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٩٣

(١٣٤) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٩٥

(١٣٥) ابن أبى دينار : المؤنس فى تاريخ افريقية وتونس ، ص ٦٠.

وفى سنة ٣٧١ هـ عاود أهل المهدية الفرار عنها وكان السبب فى هذه المرة زلازل عنيفة وقعت بالمدينة طيلة شهر جمادى الأولى من هذه السنة وعشرة أيام من جمادى الآخرة ، وكانت الزلازل العنيفة تقع فى اليوم الواحد عدة مرات فتضررت الدور والمنازل ضررا بليغا واضطر أهل المهدية الى الهرب تاركين خلفهم دورهم وما فيها(١٣٦) .

وفى سنة ٣٧٧ هـ شهدت بلاد المغرب كلها كارثة اقتصادية فقد عمها الجراد الكثير وفتك بها فتكا شديدا(١٣٧) . وفى سنة ٣٧٩ هـ بدأت هذه الأزمة الاقتصادية فى السنة التالية ثم بلغت ذروتها فى سنة ٣٨١ هـ بعد أن عم البلاد قحط شديد جفت بسببه المياه جفافا شديدا فحلت بالبلاد مجاعة شديدة لولا أن تداركها الله برحمته فنزل الغوث وأمطرت البلاد مطرا عاما فى بلاد المغرب كلها فزرع الناس وانخفضت الأسعار وانتعشت البهائم والدواب(١٣٨) . وفى سـنة ٣٨٢ هـ هبت على المغرب الأقصى أعاصير شديدة هدمت الديار وأفسدت الثمار(١٣٩) ، وفى سنة ٣٩٥ هـ وقعت بافريقية « شدة عظيمة انكشف فيها المستور وهلك فيها الفقير وذهب مال الغنى وغلت الأسعار وعدمت الأقوات وجلا أهل البادية عن أوطانهم وخلت أكثر المنازل فلم يبق لها وارث ، ومع هذه الشدة وباء وطاعون هلك منه أكثر الناس من غنى ومحتاج فلا ترى متصرفا إلا فى علاج أو عيادة مريض أو أخذ فى جهاز بيت أو تشييع جنازة أو انصراف من دفن وكان الضعفاء يجمعون الى باب سلم فتحفر لهم أخاديد ويدفن المائة والأكثر فى الأخدود الواحد فمات بافريقية من طبقات الناس وأهل العلم والتجار والنساء والصبيان ما لا يحصى عددهم إلا خالقهم تعالى . وخلت المساجد بمدينة القيروان وتعطلت الأفران والحمامات وكان النـاس

---

(١٣٦) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٣٨

(١٣٧) ابن أبى زرع : المصدر السابق ، ص ١٠٢

(١٣٨) نفس المصدر ، ص ١١٤ — ١١٥

(١٣٩) ابن ابى زرع ، المصدر السابق ، ص ١١٦

يوقدون أبواب بيوتهم وخشب سقوفهم وجاء خلق من أهل الحاضرة والبادية الى صقلية . وكانت الرمانة بدرهمين للمريض فى ذلك الوقت والفروج بثلاثين درهما وقيل أن أهل البادية أكل بعضهم بعضا »[١٤٠] . ويقدر ابن الأثير عدد من كان يموت كل يوم ما بين خمسمائة الى سبعمائة[١٤١] لكن النويرى يرتفع بهذا العدد فى اليوم الى الألف والأكثر[١٤٢] .

وعلى الرغم من أن المصادر قد سكتت عن أسباب ذلك الغلاء الشديد وتلك المجاعة المبيرة فأغلب الظن أن تلك الشدة كانت بسبب موجة قاسية من القحط أضرت البادية والحضر ، يدل على ذلك جلاء أهل البادية عن أوطانهم بسبب القحط كما يدل عليه أن عودة الخصب بسبب سقوط الأمطار فى السنة التالية سنة ٣٩٦ هـ . قد كشفت عن الناس الغمة فرخصت الأسعار وارتفع الوباء عن الناس[١٤٣] .

ويحل القرن الخامس الهجرى دون أن تشير المصادر الى أزمات اقتصادية لكن ذلك لا يدوم طويلا فسرعان ما يقع بافريقية والمغرب غلاء فى سنة ٤٠٦ هـ بسبب الجراد من جهة وخلافات الحكام من جهة أخرى[١٤٤] فضلا عما شهدته البلاد فى تلك السنة من أعاصير غير مصحوبة بأمطار[١٤٥] . ثم وقع بالبلاد فى العام التالى ٤٠٧ هـ قحط شديد ومسغبة عامة[١٤٦] .

وفى سنة ٤٠٩ هـ وقع بافريقية غلاء كثير بسبب الحروب التى

---

(١٤٠) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٥٦ — ٢٥٧
(١٤١) الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ص ١٨٥
(١٤٢) نهاية الارب ، جـ ٢٤ ، ص ١٩١
(١٤٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٥٧
(١٤٤) الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ص ٢٥٩
(١٤٥) ابن أبى زرع : المصدر السابق ، ص ١١٦
(١٤٦) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

لم تتوقف[١٤٧] وفى سنة ٤١١ هـ اشتد القحط ببلاد المغرب الأوسط كلها من تيهرت الى سجلماسة وكثر الموت فى الناس[١٤٨] وفى سـنة ٤١٣ هـ تفاقم الغلاء وحلت بالناس مجاعة لم تشهد افريقية مثلها قط على حد تقدير النويرى[١٤٩] واستمر الغلاء الشديد والمجاعة فى السنة التالية ٤١٤ هـ وتعذرت الأقوات على نحو لم يحدث من قبل — على حد تقدير ابن الأثير — إلا أن الناس صبروا على هذه المجاعة وتحملوا شدتها ولم يمت فيها أحد بسبب الجوع[١٥٠] .

وتشهد افريقية فى سنة ٤٢٥ هـ غلاء ومجاعة شديدة[١٥١] ويعاود الغلاء فى سنة ٤٣٢ هـ ويشتد بسبب انعدام الأمطار وهبوب العواصف المحملة بالأتربة حتى عرفت السنة بسنة الغبار ويبدو أن القحط قد استمر فى السنة التالية وما بعدها وخرج الناس يستسقون ويبدو أنهم سقوا فى سنة ٤٣٤ هـ[١٥٢] .

وشهدت افريقية مع بداية العقد الخامس من هذا القرن الخامس الهجرى سلسلة من الاضطرابات السياسية أعقبت قيام المعز بن باديس بقطـع الخطبـة والدعـوة للعبيـدين سـنة ٤٤٠ هـ واعادة المذهب السنى رسميا اليها ، ففى سنة ٤٤١ هـ « أمر المعز بن باديس بتبديل السكة فى شهر شعبان ثم بعث فى الناس قطع سكتهم ... وفى شوال من هذه السنة نادى مناد بأمر السلطان أبى تميم المعز أنه من تصرف بمال عليه أسماء بنى عبيد نالته العقوبة الشديدة فضاقت الحال بالفقراء والضعفاء وغلت الأسعار[١٥٣] .

---

(١٤٧) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٦٩
(١٤٨) ابن ابى زرع : المصدر السابق ، ص ١١٦
(١٤٩) نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ، ص ٢٠٨
(١٥٠) الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٣٢٩
(١٥١) نفس المصدر ، جـ ٩ ، ص ٤٣٨ ، وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧٥
(١٥٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٩ ، ص ٤٩٤
(١٥٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧٩

وإذا كانت افريقية قد أضيرت بسبب هذا الاضطراب النقدى ، فان ضررا آخر أشد وأبلغ كان ينتظرها فى العام التالى على أيدى القبائل العربية التى نزحت الى المغرب ، وبتحريض من المستنصر بالله العبيدى ووزيره أبى الحسن على اليازورى ، شنت هذه القبائل على افريقية الغارات « وقطعوا الطريق وأفسدوا الزروع وقطعوا الثمار وحاصروا المدن فضاق بالناس الأمر وساءت أحوالهم وانقطعت أسفارهم ونزل بافريقية بلاء لم ينزل بها مثله قط »[(١٥٤)] ونهبت العرب القيروان فكان ذلك سبب خرابها وجلاء أهلها عنها[(١٥٥)] .

وانقطعت أخبار الغلاء وقتا حتى عاودت الظهور فى سنة ٤٨٢ هـ . ففى هذه السنة كان بافريقية غلاء شديد استمر الى سنة ٤٨٤ هـ ثم صلحت أحوال أهلها وأخصبت البلاد ورخصت الأسعار وأكثر أهلها الزرع[(١٥٦)] .

ويبدو أن هذه المجاعة قد صحبها وباء شديد خاصة فى سنة ٤٨٣ هـ التى اشتدت فيها المجاعة حتى وصفها ابن أبى دينار بالمجاعة العظمى ووصف الوباء بأنه لم يسمع بمثله[(١٥٧)] .

وفى سنة ٤٨٥ هـ هبت أعاصير شديدة هدمت المبانى بمدينة تلمسان وأحوازها واقتلعت الأشجار العظام ونظر الناس الى البهائم تمر بين السماء والأرض من شدة الرياح[(١٥٨)] .

وفى سنة ٤٩١ هـ حدث بافريقية غلاء شديد هلك منه كثير من

---

(١٥٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٥٦٧

(١٥٥) ابن أبى دينار : المصدر السابق ، ص ٨٥

(١٥٦) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٧٩

(١٥٧) ابن أبى دينار : المصدر السابق ، ص ٨٦

(١٥٨) ابن أبى زرع : المصدر السابق ، ص ١١٦

الناس[159] وفى سنة ٤٩٨ هـ تناهى القحط بالعدوة المغربية حتى أيقن الناس بالهلاك[160] .

هكذا كانت الغلاء والمجاعات فى بلاد المغرب الاسلامى حتى القرن
هكذا كانت نوبات الغلاء والمجاعات فى بلاد المغرب الاسلامى حتى القرن الخامس الهجرى لكنها كانت نوبات متباعدة لا تقلل من قدرة الاقتصاد المغربى الاسلامى وازدهاره .

* * *

(١٥٩) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٢٧٩

(١٦٠) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٥

مصادر ومراجع البحث

أولا ـ المصادر :

١ ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ .

٢ ـ ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار افريقية وتونس . تحقيق محمد شمام ، تونس ١٩٦٧ .

٣ ـ ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ١٩٧٢ .

٤ ـ الأدريسى : نزهة المشتاق .

٥ ـ أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية وتونس ـ تحقيق على الشابى ونعيم اليمانى ، تونس ١٩٦٨ .

٦ ـ البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب . نشر دى سلان ، باريس ١٩٦٥ .

٧ ـ الرقيق القيروانى : تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق المنجى الكعبى ، تونس ١٩٦٨ .

٨ ـ ابن سعيد : الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربى ـ بيروت ١٩٧٠ .

٩ ـ ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب .

١٠ ـ العينى : عقد الجمان .

١١ ـ مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار ـ تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ١٩٥٨ .

١٢ ــ المالــكى : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية
تحقيق بشير البكوش ، بيروت ١٩٨٣ .

١٣ ــ المقــدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ــ ليــدن
١٩٠٦

١٤ ــ النـــويرى : نهـــاية الأرب .

١٥ ــ اليعقــوبى : البــلدان ــ ليــدن ١٩٦٧ .

ثانيا ــ المراجـــع :

١ ــ الحبيب الجنجســانى (دكتور) :
المغرب الاسلامى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية
(٤٠٣ هـ / ١٠٩ م) تونس ١٩٧٧ .

٢ ــ جوايتاين : تونس فى العصور الوسطى .
من كتاب دراسات فى التاريخ الاســلامى والنظم
الاسلامية ــ ترجمة عطية القومى ــ الكويت ١٩٨٠ .

٣ ــ سعد زغلول عبد الحميــد (دكتــور) :
تاريخ المغرب العربى ــ الاسكندرية ١٩٧٩ .

٤ ــ السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :
تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ــ الاسكندرية
١٩٨٢ .

٥ ــ محمود اسماعيل عبد الرازق (دكتور) :
الخوارج فى بلاد المغرب العربى ــ الدار البيضاء
١٩٧٦ .

٦ ــ محمــد الطالبى (دكتور) :
لادولة الأغلبية : التاريخ السياسى ــ ترجمة المنجى
العيادى ــ بيروت ١٩٨٥ .

عــــرض الكتــــب

استدراك وإيضاح حول عرض كتاب

« مدن مصر وقراها فى القرن الثامن الهجرى »

جاء فى هذا الباب فى العدد التاسع من المجلة الصادر فى يوليو ١٩٩٢ عرض وتحليل ونقد للاستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور للدراسة التى نشرها الاستاذ الدكتور عبد العال عبد المنعم الشامى عن (مدن مصر وقراها فى القرن الثامن الهجرى) • وقد أرسل الباحث ردا لهيئة تحرير المجلة يقع فى ١٤ صفحة ، ومع اطلاع الناقد عليها أعد ردا مطولا •

وهكذا وجدت هيئة التحرير أنها فى موقف صعب قد يطول فيه القول • لذلك فقد وجدت أنه من حق الباحث فى الرد أن نجمل هذه النقاط الرئيسية ، وأن نذكر ما أضافه الناقد فى رده الأخير من توضيحات ، ولعل فى ذلك ما يحسم الموقف ويقفل باب النقاش •

أما مجمل ما جاء على لسان الباحث فى رده فيمكن سرده على النحو التالى :

ـ ما نشر هو القسم الأول من مدن مصر وقراها فى القرن الثامن الهجرى يختص بحواضر مصر ، أما القسم الثانى والثالث عن المدن المصرية والقرى فهى فى طريقها للنشر ومن ثم فليس هناك (عنوان فضفاض) •

ـ هذه الدراسة فى مجال الجغرافية التاريخية لا التاريخ والفرق كبير وواضح بين الفنين وقد بلغ الباحث درجة الأستاذية فى مجال تخصصه •

ـ مجمل ما جاء فى النقد للدراسة هى استدراكات تاريخية ، فيها ما يدخل فى مجال إختلاف وجهات النظر بين الباحثين بما لا يرجح

احدى الكفتين إلا من خلال دراسة مستفيضة على نحو ما أثير حول الأمانة العلمية عند المقريزى فيما ينقله عن سابقيه ولا يمثل عصره .

— وهناك إستدراكات ترجع الى اختلاف الوجهات بين العلوم الأصـولية عند تناول الموضوعات المشتركة ومدى ما يفضله كل تخصص من مصادر تتعلق بالماضى على نحو ما فضل الباحث ابن فضل الله العمرى وابن رقمان على القلقشندى والمقريزى مجال الجغرافا التاريخية فى مجمل الدراسة وان استعان بالآخرين فى مجال ما يحسنونه فقيمة المرء ما يحسنه .

— كذلك لقد أكد الباحث أن دراسته عن الصورة العمرانية فى القرن الثامن الهجرى لا تعنى معالجة كل موضوعات الجغرافيا التاريخية وإنما تركز على الإزدهار العمرانى من حيث أسـبابه ومحاوره ومظاهره ونتائجه مع مقارنة هذه الصـورة بما سبقها وما تلاها .

— هذا وقد أشار الباحث الى أن بعض الاستدراكات من الناقد قد جاءت بصورة مبتورة مما أوهم القارىء بخطأ الباحث مثل ما ذكره عن عدم استقرار أحوال مصر السياسية فى القرن الثامن الهجرى استنادا الى عزل الناصر محمد بن قلاوون مرتين ، وإلغاء منصب نائب السلطنة فى عصره ، وما أورده ابن خلدون من أقوال عن أهل القاهرة فى عصره .

— وأما قول الناقد بأن الباحث قد اقتصر فى دراساته على ما يخص جغرافية مصر التاريخية فان مجاله العلمى يضم دراسات خارج هذا الاطار وفى مجالات أخرى .

— وقد ضمن الباحث رده عددا من النقاط التى جاء استدراك الناقد لها فى صورة لا تتفق والصواب ، ولعل الأفضل للقارىء أن يعرف أمثلة منها : — أن فهرس القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ليس من وضع محمد رمزى وإنما هو من تأليف أحمد لطفى السيد بدار الكتب المصرية .

— لم تكن مدينة طنطا من المدن المصرية فى القرن الثامن الهجرى بل مجرد قرية بكل المقاييس الجغرافية والتاريخية ، بل لم تكن قد اكتسبت اسمها الحالى بعد .

— المقريزى يذكر مصر الفسطاط بهذه التسمية فى خططه جـ ١ ص ٣٠٢ .

— ما جاء عن السور حول القاهرة والفسطاط ليس من خيال الباحث بل هو ما جاء فى النصوص التاريخية وفى دراسة محمد رمزى الذى رسم خرطته والتى نشرت فى الدراسة وبها ما تبقى من أجزاء السور حتى الآن .

— قلعة الجبـــل مدينة بكل المقاييس التاريخية والجغرافية ، ولم تكن مجرد قلعة كقلاع الشام وهذا ما تؤكده دراسة مبررات النشـــأة .

— لم يعتمد الباحث على مؤلفات حديثة غير متخصصة ، وانما تشهد هوامش الدراسة والتعليقات على المصادر والمراجع التى اعتمد عليها والتى لم يتعرض لها الناقد بما يفيد غير ذلك ولو لمرة واحدة .

— لقد التزم الباحث بمجال تخصصه الجغرافيا التاريخية ولم يتجاوزه الى أى فئة أخرى فلكل علم منهجه المتميز والمغاير للعلوم الاخرى حتى فى الموضوعات التى تمثل ملتقى بين العلوم المتقاربة كالتاريخ والجغرافيا التاريخية .

وأخيرا يذكر الباحث أن بين العلوم التى تعول على الماضى صلات وثيقة تحقق النفع المتبادل من الآخذ والعطاء ، وهذه العلاقة العلمية ناضجة يقدم من خلالها المتخصص ما يحسنه ويستدركه فى مجال تخصصه بعيداً عن تجاهل أو تجريح الآخرين ، فلكل علم أعلامه ودارســـوه .

أما بالنسبة للرد الذى بعث به الاستاذ الدكتـــور / ســـعيد عبد الفتاح عاشور بعد أن أطلع على الرد المطول للباحث ، فقد وجدت

هيئة تحرير المجلة أن تكتفى باختيار فقرات منه ، لعل فيها إيضاحا كافيا لما استهدفه من النقد • من ذلك قوله (الاســتاذ الدكتور / عبد العال الشامى كان وسيظل دائما — موضع احترامنا ومحــل تقديرنا ••• ونحن أحرص الناس على إعطائه حقه من التقــدير والاحترام) •

وأكد د• سعيد عاشور القول بأنه لم يعترض فى نقده لصلب الموضوع وأن استدراكاته على ما نشر من مدن مصر وقراها فى القرن الثامن الهجرى إنما كانت من وجهــة النــظر التاريخية فقــال : **« لقد اخترنا مواضع محددة من صفحات البحث ، وهى الصفحات التى تصورنا فيها ما يمكن أن يكون موضعا للنقد • وجاء نقدنا فى صورة استدراكات تاريخية لا أكثر ، إيمانا منا بأن للجغرافيا رجالها الذين هم — كما ذكرنا دائما — موضع ثقتنا وتقديرنا •**

أما لماذا لم نتطرق فى نقدنا إلى صلب الموضوع ، فالسبب فى هذا واضح ، هو أن صلب الموضوع سليم ، لم نجد فيه ما يصح أن يكون موضعا للنقد • وإذا كان قد فاتنا شىء فهو أن نثنى على ما بذله الباحث فى صلب الموضوع من جهد واضح ملموس •

وأخيرا فان معظم بحوث الدكتور / عبد العال الشامى معروفة لنا ولغيرنا وهى موضع تقديرنا وتقدير المتخصصين • وفى انتظار بقية أقسام الدراسة •

نسأل الله له التوفيــق والفــلاح » •

ولعل فى هذا الايجاز المركز لرد الاستاذ الدكتور / عبد العال الشامى والتوضيح والاستدراك من جانب الاستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور فى هذا المجال ما يكفى لوضع الأمور فى نصابها •

وهكذا تكون هيئة تحرير مجلة المــؤرخ المصرى قد أطلعت القارىء على وجهات النظر المختلفة لكل من الناقد والباحث على الســواء •

هيئة تحرير مجلة المؤرخ المصرى

All Correspondence to be directed to :
Editor - in - Chief : PROF . S. A. EL - NASSERY,
Cairo University, Faculty of Arts,
Orman, Giza, A. R. E.

رقم الإيداع : ٧٣١٧ / ٨٨

Cairo University
Faculty of Arts

THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Volume 11 (JULY 1993)

Cairo University
Faculty of Arts



THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Volume 11 (JULY 1993)